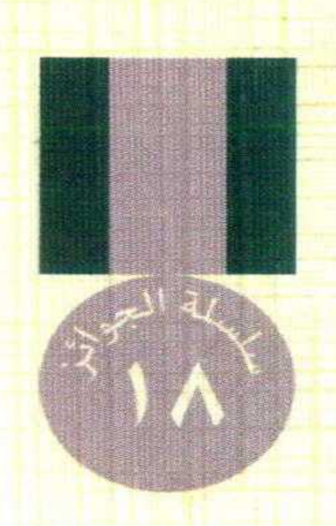
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

ف . س . نايبول

شارع ميجل

ترجمة وتقديم : دكتور أحمد هلال يس

فيدياهار سورجبرا ساد نايبول.
كاتب وروائى من ترينداد.

ولد ف. س. نايبول فى شاجواناس فى وسط ترينداد فى ١٩٣٢.

هاجر إلى إنجلترا فى ١٩٥٠. وتفرغ للكتابة الحرة فى الجرائد والمجلات.

من أعماله الروائية: "طبيب النفوس العليلة". "منزل للسيد بيسواس". "الرجال الجوف".

ومن مجموعاته القصصية: "راية تخفق فوق الجزيرة" بالإضافة إلى كتابه فى أدب الرحلات: "الرحلة الوسطى" و"منطقة يغشاها الظلام".

توجت مسيرته الإبداعية بجائزة نوبل عام ٢٠٠١.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥ كدعوة لتحقيق السلام فى العالم ومنذ عام ١٩٥١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.

وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة رواية.. شعر.. مسرح وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

شارع ميجل

نايبول ، ف . س .

شـــارع مــيــجـل: رواية/ تـأليف ف . س. نـــايبـــول، ترجمة وتقديم أحمد هلال يس. ــ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٣٨٨ ص ؛ ٢٢ سم.

تدمك ٨ ٦٢٢ ٤١٩ ٩٧٧

١ ــ القصص الإنجليزية .

(أ) ــ يس، أحمد هلال . (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٥٧/ ٢٠٠٧

I.S.B.N 977 - 419 - 622 - 8

ديوى ٨٢٣

رواية

شارع ميجل

تأليف: ف.س. نايبول

ترجمة وتقديم: أحمد هلال يس



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٧

● الكتاب: شارع ميجل Miguel Street
● تأليف: ف . س . نايبول V. S Naipaul
● ترجمة وتقديم: دكتور أحمد هلال يس
● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● الطبعة الأولى ٢٠٠٧.
● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
● التصميم الجرافيكى: دكتور مدحت متولى.
● الإخراج الفنى: صبرى عبد الواحد.

سلسلة الجوائز

تواصل سلسلة الجوائز تجديد نفسها فى الأعداد التالية، ومازالت تحاول جاهدة استيعاب أبرز ملامح المشهد الإبداعى عربيًا وعالميًا، هادفة إلى تقديم أعمال تتميز بالخصوصية والجودة، التى اتفقت عليها لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتاب.

واستنادًا إلى الاحتفاء الذى لاقته السلسلة فى أعدادها العشرة الأولى، ومع تشجيع المثقفين والقرَّاء، رأينا أن نعيَد نشر بعض الأعمال الأدبية التى نالت جوائز قديمة، والتى شكلت علامة فارقة فى السرد العربى والعالمى، تلك الأعمال التى نالت منذ نصف قرن أو أكثر جوائز عالمية ومحلية، ولكن طبعاتها نفدت منذ فترة، ولم تعد متاحة للأجيال الجديدة؛ ولذا رأينا أن تضاف للسلسة أعداد خاصة مميزة لإلقاء الضوء على تلك الأعمال وهذه الجوائز من خلال عنوان فرعى هو «ذاكرة الجوائز».

وستكون باكورة هذه الأعداد الخاصة، نشر رواية «الفسكونت المشطور» ١٩٥٢، للكاتب الإيطالى «إيتالو

كالفينو» (١٩٢٣ ـ ١٩٥٨)، الحاصل على عشرات الجوائز المحلية والعالمية، والتى شكَّلت ثلاثيته «الأسلاف» إضافة للسرد العالمى. كما نعيد نشر رواية «قرية ظالمة» ١٩٥٤ الحاصلة على جائزة الدولة للأدب عام ١٩٥٧، للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ١٩٠١ ـ ١٩٧٧.

هذه الرواية شكَّلت نقطة مضيئة فى الأدب العربى، وتم الاحتفاء بها حينذاك عربيًا وعالميًا، وترجمت إلى إحدى عشرة لغة، وكانت ومازالت إنجازًا يسعدنا أن نعيد طبعه فى هذه السلسلة.

كما نواصل نشر ماتم ترجمته وإعداده لتقديم المزيد من الأعمال الجديدة الحائزة على جوائز تمتد من نوبل إلى الجوائز المحلية الكبرى فى كل بلدان العالم، لكى يضمن القارئ العربى قراءة عمل متفق على جودته وجديته، ولكى يتسنى له الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية بكلّ أنواعها. ومنها «منزل للسيد بيسواس» للكاتب ف.س.نايبول الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠١ «ثلاثة أيام عند أمى» للكاتب الفرنسى «فرانسوا ويبرجان» الحاصل على جائزة الجونكور ٢٠٠٤، «المستبعدون» للكاتبة النمساوية «إلفريده يلينك» الحاصلة على جائزة نوبل ٢٠٠٤، «مارتش» للكاتبة الأمريكية «جير الدين بروكس» الحاصلة على جائزة البوليتزر عام ٢٠٠٦، «أسطنبول الذكريات والمدينة» للكاتب التركى «أورهان باموق» الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠٦.

د. ناصر الأنصارى

مقدمة
بقلم: المترجم

رغم أن شارع ميجل أول كتاب لنايبول خطه يراعه فإنه نُشر بعد روايتين أخريين له هما «المدلك الذى يداوى القلوب العليلة» (١٩٥٧) The Mystic Mas seur «وحق الانتخاب فى الڤيرا» (١٩٥٨) The Suf- frage of Elvira. شارع ميجل (١٩٥٩) حيوات أشخاص توثقت أواصر الصداقة بين الكاتب وبينهم أو وصلته بهم أسباب التعارف إبان فترة الطفولة، وهى تطرح صورًا قلمية لقاطنى الشارع الذى نشأ فيه الكاتب فى بورت أوف سبين والذين ذاقوا مرارة الخيبة حتى اترعت قلوبهم باليأس أو كادت، ترى هذه الشخصيات أن الدنيا تناصبهم العداء، وتستفز غضبهم ومقتهم، فغرقوا فى لجة اليأس، وأضحوا مثالاً مجسمًا لخيبة الأمل، أول شخصية يطالعنا بها الكتاب هو بوجارت الذى يستثير اهتمامنا لحد الاشتعال بشذوذه والغموض الذى يلفه، وخرقه للمألوف بجمعه بين زوجين فى وقت واحد، واختفائه المتكرر من الشارع من حين إلى آخر كأنه فص ملح ذاب، ويزخر الكتاب بشخصيات أخرى لا تقل غرابة

أو شذوذ طباع عن بوجارت مثل بوبو النجار الذى لا يصنع شيئًا وإن تظاهر بالتفانى فى العمل، والذى عانى تجربة مريرة زلزلته زلزالاً عندما فرت زوجه مع رجل غواها، والصبى «إلياس» الذى توثب للدراسة بعناد وإصرار من ناط بها أمله الأخير فحطمت محاولاته جميعًا على صخرة الواقع الصلد المكفهر، فجعل يعتذر عن إخفاقه فى الالتحاق بكلية الطب باضطهاد الممتحنين الأجانب له، حتى قر فى أعماقه أنه شهيد مضطهد، وعبقرية مقبورة، وضحية مظلومة للحظ العاثر، ، و«مان ـ مان» وهو رجل متهوس مخبول، كثيرًا ما يرى وهو يخاطب الفراغ كالمجانين، يصارح سكان الشارع ذات يوم باعتزامه محاكاة تجربة المسيح مصلوبًا ورجمه، بيد أنه عندما جعل المؤمنين يمطرونه وابلا من حجارة صاح بهم بصوت كالرعد أن يحلوا وثاقه وراح يقذفهم بسيل من السباب المقذع. أما ب. وردزورث (يشير حرف الباء هنا إلى بلاك أى أسود) فهو شاعر تعشش فى رأسه فكرة النهج على مثال الشاعر الإنجليزى ويليام وردز ورث فى قرض الشعر ونحت القوافى، فنجده يبعد فى الأمانى ويبنى قصورًا فى الهواء، ويعيش، مثل دون كيشوت، فى عالم تخلقه له أوهامه يقاتل فيه الظلال والأشباح بيد أنه يمضه إحساس بالخيبة لإخفاقه فى بيع قصيدة واحدة وتبدد حلمه وتبخر سعادته، فيفضى بسره إلى صديقه الراوى وهو يشعر بأنفاس الموت الباردة تتردد على وجهه. أما «بيج فوت» فهو رجل فارع

الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين، عملاق ينطق وجهه بالقوة والتحدى والاستهتار، يبث منظرة فى حنايا سكان الشارع خوفًا وتقديرًا للعواقب، ويتردد اسمه على الألسنة كأنشودة للقوة والجبروت، إلا أنه يصبح مضغة للأفواه عندما تتكشف لهم الحقيقة دفعة واحدة فوق حلبة الملاكمة وهم يرونه يفحم فى البكاء بحالة عصبية شديدة إثر هزيمته من ملاكم خامل الذكر عاطل من الموهبة. كما يلفت المعلم تيتس هويت الانتباه بشدة لانكبابه على تحرير خطابات إلى الصحف يمهرها بتوقيع تلاميذه يشهدون فيها على بلوغه أرفع مكانة فى أستذته. حتى علا نجمه وشع نورًا بهيجًا، وطغت عبقريته واستحكم ظرفه حتى أصبح حبيبًا إلى كل نفس عزيزًا على كل قلب. أما السيدة هيريرا فقد عشقت رجلاً قبيح الوجه لحد الازدراء، تلمع عيناه دومًا بوهج الخمر وتشع أساريره شرًا، لم يكن ينى عن الانقضاض عليها كالنمر وينشب فيها مخالبه. وعمى بها كسو «ذو العبقرية الفذة فى إصلاح السيارات» والذى طبقت شهرته آفاق الحى، «ويملأ شخصه الفضاء حتى ليكاد يتعثر به السمع والبصر أنَىّ مضيت»، إلا أنه يلفت الأنظار بولعه بالعبث بالمركبات بغية إصلاحها مما يفضى دوما إلى إعطابها بعد تفكيك أجزائها وعجزه عن تركيبها مجددًا. ويثير إدوارد الضحك باصطناعه لنفسه هوية أمريكية وذلك محاكاة الجنود الأمريكيين فى زيهم ومشيتهم، وهات الذى يعد قطب الرحى فى

حياة الشارع ومحور وجوده، والذى ينتهى به الأمر إلى السجن.

هذه الشخصيات تستلفت الانتباه باستسلامها للأحلام استسلام الحران إلى برد النسيم حتى تدور رءوسها من نشوة الأحلام الكاذبة بيد أنها سرعان ما تصحو من أحلامها الوردية وترتطم بصخرة الواقع.

والصبى الذى يقص علينا هذه القصص بحماس من يقاسم الشخصيات طموحاتها وينغمس حتى أذنيه فى مستنقع الخيبة التى يكابدونها يقدم لنا رؤية صادقة حميمة لحيوات هؤلاء الأشخاص. بيد أنه لا يشير إلى وشائج الصلة بين الخيبة التى ارتطموا بها وبين المناخ الثقافى أو الحضارى فى ترينداد إبان تلك الفترة إلا فى الفصل الأخير الموسوم «كيف غادرت شارع ميجل» حيث يطرح وجهة نظره فيما سارت إليه الأمور فى ترينداد لحد الانهيار التام:

قالت لى أمى: لقد انطلقت فى تحررك إلى آخر المدى، مذعنا لشهواتك كلية!

لم أعر الأمر التفاتًا حتى مساء تلك الليلة التى أفرطت فيها فى الشراب حتى أوشكت أن أفقد الوعى وظللت طوال اليومين التاليين سكران تدغدغ الخمر رأسى، وعندما أفقت واستردت وعيى أقسمت أن أمتنع نهائيًا عن التدخين أو تعاطى الخمر.

وقلت لأمى مستوهبًا تأييدها: لا يسعنى أن أنحى باللائمة على نفسى فى حقيقة الأمر، فليس بمقدور أى امرئ فى ترينداد سوى أن يسكر!

(شارع ميجل، ص ١٦٧)

وإذا كان كتاب شارع ميجل ينضح بمرارة الخيبة، فإن الروايتين التاليتين وإن كانتا نشرتا قبله، وهما «المدلك الذى يداوى القلوب العليلة» The Mystic Masseur (١٩٥٧) وحق الانتخاب لإلفيرا (١٩٥٨) The Suffrage of Elvira تلتمعان ببريق النجاح. فبطل الرواية الأولى بندت جانش الذى طالعنا بشذوذه وغرابة أطواره فى الفصل الأخير من «شارع ميجل» يعاود الظهور فى هذه الرواية كمدلك للأجسام ينقلب طبيبًا يداوى القلوب العليلة، والنفوس المكلومة. ينخرط هذا الرجل فى سلك التدريس بعد حصوله على قدر بائس من التعليم وزواج لا يعد بأى قدر من النفع المادى، ثم يسعى إلى امتهان التدليك فى محاكاة لنهج بعض أفراد العائلة، ولكنه يغدو فى نهاية الأمر طبيبًا يرعى بعين اليقظة النفوس العليلة. يُعين هذا الرجل بعد ذلك ممثلاً رسميًا عن طائفة الهندوس فى ترينداد ثم يعلو نجمه ويزداد نفوذه بتأليف الكتب، كان لا ينى عن مداعبة آمال عراض وأمانى كبار، فولج ميدان السياسة وشق طريقه بإرادة من حديد حتى اُختير عضوًا فى المجلس التشريعى. ثم يتسنم ذروة النجاح بظهوره فى لندن كرجل سياسة يتفانى فى تقديس الروح الاستعمارية منتحلاً لنفسه اسم ج. رامساى موير.

أما بطل رواية «حق الانتخاب لإلفيرا»، سوروجبات هاربانز، فهو يمتلك شركة لنقل الركاب، ويتقدم

لترشيح نفسه عضوًا فى المجلس التشريعى نائبًا عن إلڤيرا، ويفوز بمقعد فى هذا المجلس فى نهاية الأمر. وتصف الرواية الحيل التى يخطئها الحصر والتى يصطنعها هذا الرجل لتحقيق غايته، والتى تتضمن استرضاء باكش بتعيين ابنه مديرًا لحملته الانتخابية (فباكش يسيطر على أصوات المسلمين سيطرة تكاد تكون تامة)، والسعى الحثيث لخطب ود تشتيرانجان بإغداق الوعود عليه بتزويج ابنته لابنه (تشتيترانجان يسيطر على أصوات الهندوس)، ويتصدى بكل حماس لمنافسه بريتشر ارتكانا إلى ما يحظى به من تأييد من جانب طائفة السود فى ترينداد.

وتعبر هاتان الروايتان عن وجهة نظر نايبول حيال المشهد السياسى فى ترينداد فى عقد الأربعينيات وبداية الخمسينيات، يتسلم كلا الرجلين ذروة المؤسسة الاستعمارية فى ترينداد بتعلقهما بأذيال الآخرين، وزخرفة أهوائهما بكلمات التقوى المضيئة وفى عام ١٩٦١ أصدر نايبول رواية «منزل يطمح السيد بيسواس إلى الاحتماء بجدرانه». وتعد هذه الرواية أكثر أعماله ذيوعًا وشهرة وأوفرها حظًا. وتصور حياة والد نايبول سيبرساد نايبول (١٩٠٦ - ١٩٥٣)، الذى ينحدر مثل السيد بيسواس من أصول هندية، وشق لنفسه طريقًا فى عالم الصحافة فساهم بقلمه فى صحيفة «ترينداد جارديان» التى نشرت له مقالات تشيع فيها روح الإثارة والدعابة والظرف. كما كتب قصصًا قصيرة جمعها فى كتاب سماه «جورودڤا

وحكايات هندية أخرى» (١٩٤٣). ثمة مشابهة أخرى بينهما وهى أن كليهما كان يداخله السخط والاستياء من أحوال طائفة الهندوس وتساوره الوساوس حيال الهندوسية وما تلزم به معتنقيها من ممارسة الطقوس الدينية والحفاظ على التقاليد.

والطموح الكبير الذى يناوش السيد بيسواس هو أن يمتلك منزلاً يحتمى بجدرانه بعد تنقل سنوات متواصلة بين بيوت المعارف والأقارب. وأخيرًا ينتشل نفسه من هذه الأزمة المؤيسة بابتياع بيت عتيق متداع بشارع سيكيم فى بورت أوف سبين يستقر فيه مع أسرته، ويرحل ابنه اناند (وهى الشخصية المستقاة من حياة المؤلف نفسه) إلى إنجلترا، ليعاشر وحدته فى هذا المنزل حتى النهاية.

تجمع هذه الرواية بين الفكاهة المحببة والنادرة المستطرفة وبين نغمة الحزن والأسى، وتعكس بصدق ما يعتلج بصدر نايبول من مشاعر الحنين والرغبة فى استبطان الذات سعيًا وراء كشف اللثام عن ماهية الذات والمجتمع رغم ستار التجاهل والنسيان الذى أسدله الاستعمار على تلك الحقبة فى تاريخ ترينداد.

وتدور أحداث معظم القصص القصيرة التى جمعها نايبول فى كتاب موسوم بعنوان «علم يرفرف على الجزيرة» (١٩٦٧) فى ترينداد، وتصور ما يصطرع فى نفوس الشخصيات من قيم متضاربة عندما يسعى مواطنو ترينداد من ذوى الأصول الهندية إلى الاستمساك بأصولهم الثقافية التى أسدل عليها

ستار كثيف من التجاهل والنسيان. ثمة قصص قصيرة أخرى تتضمنها المجموعة تعكس مشاعر الرعب الدفين الذى يزلزل أركان نفوس المهاجرين السود فى لندن، وتتوسل قصص هذه المجموعة بالفكاهة والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة لتعمق من إحساسنا بمشاعر الظلم والهوان التى تنوء بها الشخصيات والتى تترنح تحت وطأة الاغتراب وخيبة الإخفاق والتمييز العنصرى.

أما كتاب «فى دولة حرة» (١٩٧١) In a Free State ورواية «منحنى النهر» (١٩٧٩) A Bend in the River فهما يعكسان اهتمام نايبول بإفريقيا والجنس الأسود.

ويشتمل كتاب «فى دولة حرة» على وصف سردى لرحلتين قام بهما المؤلف فى إفريقيا ودول الكاريبى، وقصتين قصيرتين ورواية قصيرة. وأدار الكتاب حول حياة المهاجرين وسعيهم للتأقلم مع أجواء بيئاتهم الجديدة، وما يكابدونه من مرارة العيش فى دولة عنصرية، وتصف الرواية القصيرة الموسومة «فى دولة حرة» وهو الاسم الذى اصطنعه المؤلف عنوانًا لكتابه، سياحة زوجين من البيض فى أنحاء إفريقيا واكتشافهما أن وراء أبهة الحضارة الكاذبة تتوارى ثقافة تئن فى قبضة الوحشية والطغيان والنزاعات القبلية.

أما رواية «منحنى النهر» فقد استلهم نايبول أحداثها ما شهدته زائير إبان حكم موبوتوسيسيكو.

أشارت الأكاديمية السويدية فى قرارها منح جائزة نوبل لنايبول إلى المشابهة بين كتابات نايبول عن إفريقيا وروايات چوزيف كونراد، الكاتب البريطانى ذى الأصل البولندى، ومؤلف رواية «قلب الظلام» Heart of Darkness، فكلاهما شمر عن ساعد الكد لوصف مصائر الإمبراطوريات الاستعمارية وما خلفته من آثار فى نفوس الشعوب.

ونلمس مواضع المشابهة بين هذين الكاتبين فيما تزخر به كتبهما عن إفريقيا من شخصيات منقوعة فى الثقافة الاستعمارية، وتفشى وجهات فى النظر حيال التباين الثقافى والعرقى، بيد أن كتابات نايبول تفتقر إلى ما نلمسه فى كتابات كونراد من إيماءات رمزية لرداء الظلام الذى تتدثر به قارة إفريقيا، والذى ينضح بأحاسيس الهلع والذعر التى تساور البشر فى كون فسيح يلفه الغموض.



(١)
بوجارت

كان من بين عادات «هات» عند نهوضه فى الصباح أن يقتعد درابزين الفراندة الخلفية فى منزله، وسرعان ما يصيح متسائلاً: كيف الأحوال عندك يابوجارت؟.

وعندها كان بوجارت يتقلب فى سريره، ويرد عليه بصوت خفيض، لايكاد يسمع: كيف الأحوال عندك يا هات؟.

كان السبب وراء تسميته بوجارت أمرًا يلفه قدر من الغموض، إلا أننى أرتاب فى أن هات هو الذى أطلق عليه هذا الاسم أننى لا أدرى إذا كنت تتذكر العام الذى ظهر فيه فيلم «كازابلانكا»، فهو العام الذى سرت فيه شهرة بوجارت فى أرجاء «بورت أوف سبين» سريان النار فى الهشيم، وشرع مئات الشباب فى احتذاء مثال بوجارت، ومحاكاة موقفه العنيد الصلب تجاه الأحداث.

بيد أنهم قبل أن يطلقوا عليه اسم «بوجارت» كانوا ينادونه «باشنس» (اسم لعبة من ألعاب الورق)، وذلك

لأنه كان ينهمك فى ممارسة هذه اللعبة منذ الصباح حتى هبوط الليل، ورغم ذلك لم يحب قط لعب الورق.

فإذا تصادف أن دلفت إلى حجرة بوجارت الصغيرة كنت ستجده دوما مقتعدًا سريره وقد اصطفت أوراق اللعب فى سبعة صفوف على خوان صغير أمامه.

وعندها كان يتساءل بهدوء وبلهجة روتينية: كيف الأحوال فى الخارج يا رجل؟ وسرعان ما يتلفع بالصمت الشامل لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة، فيساورك شعور بعجزك البين عن مجاذبته أطراف الحديث لما يلوح فى عينيه الصغيرتين اللتين يغشيهما النعاس من سأم بالغ ونظرات استعلاء هاتان العينان كانتا تستقران فى وجه سمين يعلوه شعر أسود لامع، أما ذراعاه فكانتا ممتلئتين على نحو غير منفر وبرغم ذلك لم يكن بالشخص الذى تثب فى داخله فرحة الحياة، فقد كان يؤدى كل شىء فى كسل واسترخاء آسرين. وحتى عندما كان يلعق إبهامه بلسانه كى يوزع الأوراق على اللاعبين كانت هذه الحركة تشى بقدر كبير من الرفعة والسمو.

لم أعرف فى حياتى رجلا مثله عانى من براثن السأم ما عاناه.

كان يتظاهر بالتعيش من مهنة الخياطة، ووصل به الأمر إلى حد أن نفحنى قدرًا من المال كى أكتب لافتة يعلن بها عن حرفته:

خياط ومقصر ثياب

تفصيل بدل

أسعار شعبية لاتقبل المنافسة

كما ابتاع ماكينة خياطة، وكمية من الطباشير الأزرق والأبيض والبنى، ورغم ذلك لم يسعنى قط تخيله فى موضع منافسة مع أى إنسان، كما أننى لا أذكر أننى رأيته قط يصنع بدلة كان فى هذا الصدد يشبه إلى حد ما بوبو النجار الذى كان يقطن حجرة لصق حجرته والذى لم يصنع قط قطعة أثاث واحدة، رغم أنه كان منهمكًا دومًا فى التخطيط لصنع إحدى قطع الأثاث، أو نجر قطعة خشب أو نقر ما كان يطلق عليه ثقوبا، تهيئة لصنع مفصل، وعندما كنت أسأله: ماذا تصنع يا سيد بوبو؟ كان يرد: «مرحى يا صبى! هذا هو السؤال الذى أنتظره، أننى أصنع شيئًا يستحيل تسميته، وأود أن أضيف هنا أن بوجارت لم يكن يستصرخ إرادته ليشرع فى صنع هذا الشىء.

ولأننى كنت ما أزال طفلا حينئذ فإننى لم أتساءل قط عن وسيلة ارتزاقه، كنت أفترض بداهة أن الكبار يملكون نقودًا.

كان لبوبو زوجة تمتهن عدة حرف، وانتهى بها الأمر إلى مصادقة الكثير من الرجال. بيد أننى لم يسعنى قط تخيل أم أو أب لبوجارت، كما أنه لم يصحب معه إلى حجرته الصغيرة امرأة قط، هذه الحجرة الصغيرة كان يطلق عليها حجرة الخدم، إلا

أن خادمًا من بين الخدم الذين يعملون فى هذا المنزل لم يقطن هذه الحجرة قط، فتشييد هذه الحجرة لم يكن سوى انعكاس للتقليد المعمارى السائد فى تلك الفترة.

ولايزال ذهنى يتشتت حيرة إزاء تمكنه من عقد صداقات مع الآخرين، إلا أنه كان له أصدقاء كثيرون بالفعل، كما غدا لفترة ما أكثر الرجال شعبية فى الشارع. إذ اعتدت أن أراه وهو يقعى على الرصيف مع جميع رجال الشارع المهمين، وقد خفض بصره وطفق يرسم حلقات بأصابعه على أديم الرصيف فى تجاهل بين لحديث «هات» أو «إدوارد» أو «أدوس». لم يضحك ضحكة عالية قط، أو يروى حكاية، ورغم ذلك عندما كانت تحل مناسبة للاحتفال، كان جميع قاطنى الشارع ينبرون قائلين: «لاغنى عن بوجارت، فهو يتسم بذكاء نادر ومهارة تعز على التصديق».

كان محضره يشيع فى نفوسهم قدرًا من السلوى والراحة على نحو خفى.

ولذا فإنه عند طلوع كل صباح كما قلت لك سلفًا كان هات يصيح بأعلى صوته: كيف الأحوال عندك يا بوجارت؟ ثم يطفق ينتظر الهمهمة المتشكية التى كانت تند عن بوجارت حينئذ: كيف الأحوال عندك يا هات؟

إلا أنه فى صباح أحد الأيام لم تتلق زعقة هات الاستجابة المعتادة وافتقد الشارع هذه الظاهرة التى كانت تبدو راسخة مثل أحد القوانين الأزلية.

اختفى بوجارت عن الأنظار، دون أن يخلف وراءه أثرًا، أو تند عنه كلمة على سبيل التفسير.

غشى رجال الشارع الكدر وران عليهم الصمت طوال يومين كاملين، واجتمعوا فى حجرة بوجارت الصغيرة، التقط هات مجموعة أوراق اللعب من فوق خوان بوجارت، وطفق يفلت من بين أصابعه ورقتين أو ثلاثًا كل فترة فتسقط على الأرض وقد لاحت على وجهه أمارات التفكير العميق.

بادر هات متسائلا: هل تعتقدون أنه رحل إلى فنزويلا؟ بيد أن أحدًا لم يحر جوابًا، إذ إن بوجارت لم يصارحهم سوى بالنزر اليسير عن تحركاته أو نواياه.

فى صباح اليوم التالى نهض هات من فراشه وأشعل سيجارة ومضى نحو الفراندة الخلفية، وكادت أن تفلت من بين شفتيه صيحته المعتادة لولا أن دهمته ذكرى رحيل صديقه فى سرعة اللهب. ولذا طفق فى حلب الأبقار فى هذا الصباح فى وقت أكثر بكورا عن المعتاد مما أثار حفيظتها وكدر عليها صفوها المعتاد.

انقضى شهر تبعه شهر آخر ولم يعد بوجارت من غيبته شرع هات وأصدقاؤه فى استخدام حجرة بوجارت ناديًا يزجون فيه أوقات فراغهم يمارسون فيه لعبة وابى Wappee ويتعاطون شراب الروم، ويدخنون، وكانوا أحيانًا يصحبون معهم إلى الحجرة تلك المرأة

الشريدة التى تتسم بالغرابة وشذوذ السلوك، وسرعان ما تورط هات مع الشرطة لتعاطيه القمار ودعمه المالى لمباريات مصارعة الديكة، مما اضطره إلى نفح المسئولين رشاو كى يذلل ما يعترضه من عقبات.

بدا الأمر كما لو أن بوجارت لم تطأ قدمه قط أرض الشارع، وعلى أية حال فإن بوجارت عاش فى هذا الشارع لمدة أربع سنوات، أو ما قارب فقط، فقد وفد إلى هذا الشارع ذات يوم وهو يحمل فى يده حقيبة واحدة وطفق يبحث عن حجرة تأويه ولذا توجه بالحديث إلى هات الذى كان يقعى أمام باب سور حديقة منزله وهو يدخن سيجارة ويطالع نتائج مباريات الكريكت فى الصحيفة المسائية. إلا أنه حتى فى هذا الظرف العصيب لم يقل الكثير، فكل ما قاله - وفقًا لرواية هات - هو جملة واحدة: هل تعرف أية حجرة شاغرة؟ صحبه هات إلى الفناء المجاور الذى قامت فيه هذه الحجرة المفروشة المخصصة للخدم بإيجار شهرى ثمانية دولارات. دلف داخل هذه الحجرة وما أن اطمأن فى جلسته حتى أخرج من جيبه مجموعة من أوراق اللعب وشرع فى ممارسة لعبة باشنس. أثار هذا السلوك إعجاب هات البالغ.

أما فى نظر الرجال الآخرين فقد ظل دومًا محاطا بالغموض. لقد توحد مع اللعبة التى كان يمارسها وأصبح يطلق عليه أسم «باشنس». وعندما طالت غيبته وأوشكت ذكراه أن تذوب فى ماء النسيان عاد

فجأة فى صباح أحد الأيام فى حوالى السابعة ووجد أدوس وامرأة مضطجعين فوق فراشه، ندت عن المرأة صيحة فزع هائلة وهى تقفز من فوق فراشه. أما أدوس فقد «أنتتر» واقفًا وقد لاح فى وجهه ارتباك فاق إحساسه بالخوف.

ابتدرهما بوجارت قائلا: «تنحيا عن السرير لى فأنا متعب وأريد أن أنام».

نام حتى الخامسة من بعد ظهر هذا اليوم، وعندما استيقظ وجد الحجرة تعج برجال العصابة القديمة. كان أدوس يصخب ويصيح بصوت عال ليدارى إحساسه بالحرج. صاح به هات الذى كان قد أحضر معه زجاجة روم: كيف الحال عندك يا بوجارت؟ أفعم قلبه بفرحة غامرة عندما طرق سمعه الإجابة المألوفة: «كيف الحال عندك ياهات؟»

فض هات سدادة زجاجة الروم، وصاح ببويى بلهجة آمرة حادة أن يذهب لشراء زجاجة ماء صودا.

سأله بوجارت : كيف حال الأبقار يا هات؟

- فى أتم صحة وعافية.

- وكيف حال «بويى»؟

- فى أتم صحة وعافية أيضًا. ألم تسمعن منذ لحظة أناديه؟

- وكيف حال أرول؟

- يتمتع بموفور الصحة، ولكن ما الأمر يا بوجارت. هل تشكو اعتلالا فى الصحة أو المزاج؟

هز بوجارت رأسه سلبًا وتناول جرعة صغيرة من فوهة زجاجة الروم، تبعها بجرعة ثانية وثالثة، وسرعان ما أتى الرجال على الزجاجة.

ندت عن بوجارت: لاتقلقوا .. سوف أذهب لشراء زجاجة أخرى، لم يروا بوجارت يفرط فى الشراب على هذا النحو من قبل أو يطلق العنان للسانه، ولذا ساورهم غير قليل من الانزعاج، وتطايرت برءوسهم الهواجس. إلا أن أحدًا لم يجرؤ أن يسأله عن الموضوع الذى حل به أثناء غربته.

خاطبهم بوجارت قائلا: إن جو الإثارة والعربدة لم يفارق حجرتى طوال غيابى بفضلكم يا رفاق».

فأجاب هات: لكن ليس بنفس القدر الذى كانت تنعم به أثناء وجودك بها.

إلا أن صدورهم كانت تموج بالقلق. فعندما كان يتحدث كانوا يكادون لايلمحون انفراجة شفتيه، وإن لم يغب عن ناظريهم ذلك الانحراف الطفيف الذى اعترى زاوية فيه وهو ينطق الألفاظ بلهجة تشى بتأثره باللكنة الأمريكية.

رد بوجارت على تحية هات قائلا: «بكل تأكيد... بكل تأكيد». ندت عنه بلكنه أمريكية لم يشبها خلل. كان يؤدى دوره بتفان وإتقان كممثل محترف.

لم يكن هات واثقًا من سكر بوجارت.

لابد أن تعرف أن مظهر هات كان يذكر بالممثل ركس هاريسون وأنه كان يبذل ما بوسعه كى يقوى هذا الشبه ويرسخه فى الأذهان، فقد كان يمشط شعره إلى الوراء، ويضيق عينيه، ويتحدث بلهجة تحاكى لهجة هاريسون فى الغالب الأعم.

- «عليك اللعنة يا بوجارت». ندت عنه فى لهجة توحى بزوال الفارق بينه وبين ركس هاريسون، ثم مواصلاً: «ينبغى عليك أن تصارحنا بالحقيقة بلا رتوش فورًا ودون إبطاء».

انحرف جانب فيه وهو يطلق ضحكة ساخرة كاشفًا عن أسنان بيضاء نضيدة.

- بالتأكيد سوف أكاشفكم بكل شىء. ندت عنه، ثم نهض واقفًا، ودس إبهاميه داخل بنطلونه عند موضع الحزام وهو يردد «سوف أطلعكم على كل شىء».

ثم أشعل سيجارة، ومال بنصفه الأعلى إلى الخلف على نحو اندفع معه الدخان الكثيف الذى يزفره متأنيًا داخل عينيه، ثم طفق يروى حكايته فى ألفاظ واضحة ممطوطة، وقد ضيق عينيه ليحد بصره لتكاثف الدخان من حوله.

الحكاية هى أنه حصل على عمل فى إحدى السفن التى أقلته إلى مستعمر ة جويانا البريطانية. وهناك فرَّ من السفينة موليًا وجهته شطر قلب الجزيرة. عمل فى البداية راعيًا للأبقار فى روبونونى، ثم نشط فى الاشتغال بالتهريب (لم يحدد ما كان يقوم بتهريبه إلى

البرازيل)، كما جمع بعض الفتيات من البرازيل واصطحبهن إلى جورج تاون، وكان يدير أفضل ماخور فى مدينة جورج تاون، إلا أن رجال الشرطة فى حركة غادرة أخذوا ما كان ينفحهم به من رشاو وألقوا القبض عليه.

زادنا إيضاحًا قائلا: «كان ماخورًا يتردد عليه علية القوم وخيارهم، لايسمح بدخول المشردين أو الشحاذين، فقد كان زواره يقتصرون على القضاة والأطباء وكبار موظفى الحكومة.

سأله أدوس: ماذا حدث؟ هل دخلت السجن؟

عنفه هات قائلا: هل بلغ بك الغباء هذا الحد. أتقول «سجن» والرجل يقف وسطنا الآن. ولكن ما السبب وراء ما تتصفون به من حمق وغباء، لماذا لاتدعون له فرصة للحديث؟

إلا أن تساؤل أدوس جرح كبرياءه وغشيه كدر عظيم جعله يطبق فمه ويحجم عن التفوه بكلمة أخرى فى هذا الأمر.

منذ هذه اللحظة فصاعدًا اعترت العلاقة بين هذين الرجلين تغير بين. فقد أضحى بوجارت مثل سميه تمامًا. كما توحد هات مع هاريسون نجم السينما اللامع. تمثل هذا التغير فيما طرأ على التحية المتبادلة بينهما عند الاستيقاظ، إذ جعل هات كل صباح يصيح به قائلا: « بوجارت!»، ليجابه بالرد: اخرس يا هات!.

أضحى بوجارت بعد عودته من أكثر رجال الشارع مهابة وإثارة للرعب فى القلوب، لدرجة أن شاع أن «بيج فوت» (ذا القدم الضخمة)، كان يهابه ويخشاه طفق بوجارت يتعاطى الشراب ويقامر مع النخبة المختارة فى الشارع وهو يشاركهم التنابذ بالشتائم، قاذفًا إياهم بسيل من السباب المقذع، كما اعتاد أن يصب على رءوس الفتيات اللاتى يسرن منفردات فى الشارع الإساءة تلو الإساءة على مسمع ومشهد من المارة، وابتاع لنفسه قبعة كان يسير بها، وقد جذب حافتها لأسفل كى تخفى عينيه عن الأنظار، وأصبح من المشاهد المألوفة لسكان الشارع بما اعتاد عليه من الوقوف ملصقًا ظهره بالسور الخراسانى العالى الذى يحيط بالفناء المترامى أمام حجرته، وقد دس يديه فى جيوبه، ثانيًا إحدى ساقيه التى ارتكزت قدمها على أديم جدار السور راشقًا بين شفتيه إحدى سجائره التى لاتفارق فمه إلا فى وقت النوم.

بعد ذلك بفترة رحل ثانية فجأة. كان يلعب الورق مع أفراد العصابة فى حجرته عندما نهض قائمًا على حين بغتة وهو يقول: «إننى ذاهب إلى دورة المياه». إلا أنه غاب عنهم لمدة أربعة شهور.

وعندما عاد كان وزنه قد زاد بقدر ملموس، وإن انعقدت فى عينيه نظرة مخيفة تنذر بالعداوة والخصام. كما اكتست لهجته بلكنة أمريكية لاتخطئها الأذن. وكى يتقن محاكاة الأمريكيين شرع فى التودد إلى الأطفال. فكان يناديهم بأعلى صوته فى الشارع

وينفحهم نقودًا لشراء العلكة والشيكولاتة، وكان يجد قرة عينه فى أن يربت رءوسهم بحنان ويمحضهم النصيحة المخلصة لوجه اللّه.

أما فى المرة الثالثة التى رحل فيها فإنه احتفل بعودته بإقامة حفل كبير فى حجرته لجميع الأطفال أو الصبية كما كان يطلق عليهم ابتاع خصيصًا لهذا الحفل صناديق تحوى زجاجات صولو، وكوكاكولا، وبيبسى كولا وكميات هائلة من الكعك.

إلا أنه فى يوم من الأيام جاء الرقيب تشارلز، رجل الشرطة الذى يقطن المنزل رقم خمسة وأربعين بشارع ميجل، وألقى القبض على بوجارت.

حذره الرقيب تشارلز قائلا: «لاتلجأ إلى العنف يا بوجارت» إلا أن بوجارت أخفق فى استيعاب ما يرمى إليه، وتساءل: ما حقيقة الأمر يا رجل؟ إننى لم أفعل شيئًا . وعندها جابهه الرقيب تشارلز بالحقيقة. أشارت الصحف إلى الحادث على نحو عابر، وأوضحت أن التهمة الموجهة إليه هى الجمع بين أكثر من زوجة، ولذا عُقدت الآمال بهات فى أن يكشف لنا التفاصيل التى تغفل الصحف دائمًا عن ذكرها.

اطلعنا هات فى مساء نفس اليوم ونحن جلوس على الرصيف على ما كنا نتحرق لهفة إلى معرفته، هجر الرجل زوجه الأولى التى كان يعيش معها فى تونابونا، ورحل إلى بورت أوف سبين إذ لم يسعهما أن ينجبا أطفالاً، ولذا كان يساوره شعور مؤلم بالتعاسة

والضـآلة، دفعـه إلى الرحـيل ، وفى كـارونى عشـر على فتـاة أنجب منها طفـلاً، إلا إنهم فى كـارونى لاينظرون بعـين الاسـتـخـفـاف إلـى مـثل هذه الأمـور، مـمـا اضطر بوجارت إلى الزواج من هذه الفتاة».

سـأله أدوس: ولكن لماذا هـجـرها؟

فأجـابه هـات من فوره: كى يكون رجلاً مثلنا جديرًا بالعيش بيننا.



(٢)
الشىء الذى يعز على التسمية

الشىء الوحيد الذى شيده بوبو الذى كان يلصق مهنة النجارة باسمه هى الورشة الصغيرة التى صنع جدرانها وسقفها من الحديد المجلفن تحت شجرة المانجو فى الجزء الخلفى من فناء منزله، وحتى هذا البناء لم يتمه كما ينبغى. إذ لم يجشم نفسه عناء تثبيت ألواح السقف من الحديد المجلفن بالمسامير التى استعاض عنها بوضع حجارة ضخمة على السقف حتى لاتطيح به الرياح. ولذا عندما تعصف رياح مزمجرة، كان يصدر عن السقف أصوات خبط وزمجرة تبث الرعب فى القلوب، ويخيل للمرء أنه على وشك أن يُطاح به فى الهواء.

ورغم ذلك لم يكن بوبو قط بالشخص الكسول، بل كان دومًا منشغلاً فى التسمير والنشر والسجح بالفارة، وكنت أحب أن أرقبه أثناء عمله، فقد كنت أحب رائحة الخشب بأنواعه خشب السرو وخشب الأرز وخشب Crapaud. كما كان يستهوينى لون الرقائق الخشبية الصغيرة الناتجة عن السجح بالفارة،

ويعجبنى هيئة شعر بوبو المفلفل الذى حال لونه بسبب ما انتثر عليه من نشارة الأخشاب.

سألته: ما الذى تصنعه يا سيد بوبو؟

وهو سؤال كان يرد عليه دومًا قائلا: مرحى يا فتى هذا هو السؤال الذى أنشد سماعه.. إننى أصنع شيئًا يعز على التسمية.

هذه الإجابة كانت تحبب بوبو إلى .. فقد كنت أعتقد أنه يتسم بروح شاعرة.

قلت لبوبو ذات يوم: دلنى على شىء أصنعه.

- ماذا تريد أن تصنع؟

كان يصعب على تسمية شىء أريده حقًا بكل مجامع قلبى.

واصل بوبو: أن ترددك ليشى برغبتك فى صنع شىء يعز على التسمية لتفرده فى الطراز أو الشكل.

إلا أننى قر عزمى فى النهاية على صنع حامل للبيض. سألنى بوب: لمن تصنعه؟

- أمى.

ضحك قائلا: هل تعتقد أنها سوف تستخدمه؟

اهتز فؤاد أمى سرورًا بهذا الحامل، وجعلت تستخدمه لمدة أسبوع تقريبًا، ثم بدا لى كما لو أنها أسقطته تمامًا من الحسبان، إذ راحت تضع البيض فى آنية أو أطباق كعادتها قبل امتلاك الحامل.

ندت عن بوبو ضحكة عندما أخبرته بما حدث، ثم بادرنى قائلا: إن الشىء الذى يستأهل عناء صنعه يا غلام هو الشىء الذى يعز على التسمية.

بعد أن انتهيت من كتابة لافتة محل الخياطة التى كلفنى بها بوجارت طلب منى بوبو كتابة لافتة له أيضا.

انتزع بوبو من خلف أذنه ما تبقى من القلم الرصاص الأحمر الذى كان يرشقه دومًا فى هذا الموضع، وقلقت فى عينيه نظرة حائرة تشى بعجزه عن انتقاء الكلمات المناسبة. أراد فى البداية أن يعلن عن نفسه مهندسًا معماريًا، بيد أننى تمكنت من إثنائه عن هذا القرار. كما أنه لم يكن واثقًا من الهجاء الصحيح لهذه الكلمة. ولذا رُكبت فى النهاية على هامة الورشة لافتة كبيرة مُسطر عليها بالخط العريض:

بناء ومقاول

نجار

وصانع صوان ملابس

وقعت بإمضائى مثل أى خطاط فى الركن الأيمن فى ذيل اللافتة. كان بوبو يحب الوقوف أمام اللافتة وهو يحدق فيها منبهرًا ولكنه كان يحس رعدة تسرى فى أطرافه عندما يفد أناس لايعرفونه للسؤال عن النجار، ولكنه كان يزوغ من الخطر المحدق به متسائلا: النجار؟ لقد رحل.

كان يُخيل إلى أن بوبو يفوق بوجارت رقة ولطافة. فقد كان بوجارت مقلاً فى الحديث معى، فى حين أن بوبو كان دومًا مستعدًا لمبادلتى الحديث عن أمور جادة مثل الحياة والموت وظروف العمل، مما غمرنى بإحساس بأنه يهيم بالحديث إلى هيامًا. ورغم ذلك لم يكن بوبو شخصية محبوبة فى الشارع؛ إذ اعتاد أن يصطحب معه زجاجة روم كل صباح فى طريقه لاقتعاد الرصيف. إلا أنه لم يكن يحسو حسوة روم واحدة، بل يظل يترقب مرور أحد الأشخاص الذين يعرفهم، وسرعان ما يغمس أصبعه الوسطى فى الروم، ويخرجها وهو يلعقها بتلذذ ملوحًا بيده الأخرى له.

علق هات على هذا السلوك قائلا: «بوسعنا أن نشترى شراب الروم أيضًا، ولكننا لن نتباهى مثله».

لم أنظر قط إلى هذا السلوك على هذا النحو، وعندما استخبرت بوبو بواعث هذا السلوك ذات يوم، أجابنى قائلا: يا صبى عندما تستيقظ مبكرًا فى الصباح، وتجد الشمس تريق شعاعها الدافئ على الخلق، بينما تهب نسائم مرطبة ببرودة حنونة منعشة، فإن روحك تهفو إلى الخروج والوقوف تحت أشعة الشمس الحانية وأنت تحتسى شراب الروم حسوة تلو أخرى.

لم يكن لبوبو فى حقيقة الأمر حرفة يتعيش منها، أما زوجه فقد اعتادت أن تخرج للعمل، وهو أمر تيسر لها لعدم إنجابها أطفالاً؛ وكان بوبو يبرر هذا الوضع

قائلا: « إن النساء يحببن العمل، ولكن الرجل لم يُخلق للعمل».

أما هات فعلق قائلا: «إن بوبو تابع لزوجه ولذا فهو تعوزه الرجولة الحقة، فهو نكرة؛ له روح أرنب واستسلام دابة».

كانت زوجة بوبو تعمل طباخة فى منزل كبير يقع على كثب من مدرستى. وقد اعتادت أن تنتظرنى خارج المدرسة فى موعد انتهاء اليوم المدرسى بعد الظهر كىَّ تصطحبنى إلى المطبخ الكبير حيث تنفحنى بالأطعمة الشهية. أما الشىء الوحيد الذى كان يكدر على صفوى فهو جلوسها أمامى ترقبنى وأنا أتناول طعامى. إذ كان يخيل إلىَّ أننى آكل من أجلها، وأن معدتها وليست معدتى هى التى تستقبل الطعام، كما طلبت منى أن أناديها «عمتى».

قدمتنى إلى بستانى حديقة المنزل الكبير، كان رجلاً وسيمًا يتميز بسمرة غامقة وعشقه البالغ للزهور التى يغرسها بيديه، وكنت أحب الحدائق التى كان يرعاها دائما بعين اليقظة، إذ كان أديم أحواض الزهور شديد السواد، تبلله دومًا رطوبة كثيفة، أما الحشائش فكانت ذات لون أخضر زاه، تبللها الأنداء، ومن التشذيب فى غاية، وكان أحيانًا يسمح لى برى أحواض الزهور. كما اعتاد أن يجمع الحشائش المقطوعة ويضعها فى حقائب صغيرة كى أخذها معى ولأعطيها لأمى التى كانت تطعمها الدجاج الذى تربيه.

ذات يوم افتقدت زوجة بوبو، إذ لم تأت لاصطحابى من المدرسة كالمعتاد. وفى صباح اليوم التالى لم ألمح بوبو على الرصيف وهو يغمس إصبعه فى زجاجة الروم. كما أننى لم أر زوجة بوبو فى المساء.

وعندما ذهبت إلى ورشة بوبو وجدته يتجرع غصص اليأس وهو يتنهد فى كرب شديد. كان جالسًا على أحد الألواح الخشبية، وقد جعل يثنى إحدى الرقائق الناجمة عن نشر الخشب حول إصبعه.

بادرنى بوبو قائلا: «إن عمتك قد رحلت ياصبى».

- إلى أين رحلت يا سيد بوبو؟

- «هذا هو السؤال الذى تدوخنى الحيرة دون الجواب عليه».

ثم أطبق فمه ولم يتفوه بكلمة أخرى.

منذ هذه اللحظة فصاعدا غدا بوبو شخصية محبوبة تتندى لها القلوب حنانًا، وتفيض رقة، إذ اجتاح خبر اختفاء زوجه الشارع كالنار المندلعة. وعندما قال أدوس ذات يوم «أننى أعجب لما أصاب بوبو؛ يبدو أنه لم يعد لديه المزيد من شراب الروم»، وثب هات من مجلسه كالملدوغ مسددًا إلى وجهه لطمة صادقة على سبيل الدعابة إلا أنها طاشت فى الهواء. بعد ذلك شرع جميع رجال الشارع فى اتخاذ ورشة بوبو مكانًا يجتمعون فيه للسمر والحديث عن

مباريات الكريكت وكرة القدم والسينما أو أى موضوع آخر سوى النساء من الواضح أنهم كانوا يبتغون اقتلاعه من دنيا الأحزان التى غاص فيها حتى أذنيه.

لم تعد الضوضاء الصادرة عن الخبط والنشر تتجاوب أركان ورشة بوبو. كما أن رائحة نشارة الخشب فقدت طزاجتها، وحال لونها إلى السواد، فبدت مثل نفايات على أديم أرض الورشة. شرع بوبو فى الإفراط فى الشراب، إلا أننى لم أحب نظرة عينيه وقد احمرتا من أثر الخُمار، أو رائحة شراب الروم التى كانت تسطع أنفى كلما اقتربت منه، كان صياحه يدك جدران الورشة ويجتاح أرجاء الشارع، وكان ينتفض غضبًا وهياجًا لأقل استثارة، ويتجلى الافتراس فى ملامحه، هذه الطباع المستحدثة رشحته عن جدارة للانضمام للعصابة.

علق هات قائلا: «لقد كنا مخطئين بشأن بوبو. فهو رجل مثلنا جميعًا».

اهتز قلب بوبو فى البداية لما حبته به الأقدار من دفء هذه الصحبة الجديدة، فقد كان يهيم بالثرثرة بمجامع قلبه، ويود ترسيخ علاقات المودة بينه وبين رجال الشارع، ولذا فإن مشاعر الإعراض والنفور من جانب هؤلاء الرجال كانت تثير فى نفسه الحيرة والدهشة، ولذا خيل إلى أنه ظفر أخيرًا ببغيته إلا أنه لم يكن سعيدًا فى حقيقة الأمر. فهذه الصداقة وما أشاعته من دفء فى المشاعر قد جاءت متأخرة، ولذا

لم تستهوه بالقدر الذى كان يتوقعه. حاول هات أن يثير اهتمام بوبو بنساء أخريات، ولكن بوبو لم يبد اهتمامًا على الإطلاق وأعاد محاولاته أذنا صماء.

لم يتخيل بوبو أن صغر سنى يمكن أن يحول بينه وبين مكاشفتى بأى شىء. «عندما تبلغ من العمر ما بلغت يا غلام، فسوف تكتشف أنك لم تعد تهتم بالأشياء التى كنت تعتقد أنك سوف تحبها إذا ما أتيح لك الحصول عليها». تلك كانت طريقته فى الحديث، وهى طريقة تظلها سحب الإبهام والغموض، كما لو كان يلقى عليك ألغازا تحير الألباب.

ثم استيقظنا ذات صباح على خبر رحيل بوبو عن الشارع، دافع هات عن هذا المسلك قائلاً: «إنه ليس مضطرًا أن يكشف لى عن وجهته. فهو قد رحل للبحث عن زوجه».

سأل إدوارد: هل تعتقد أنها سوف تعود معه؟

فأجابه هات: فلننتظر حتى نرى ما تسفر عنه الأحداث.

إلا أن الانتظار لم يطل بنا، فقد طالعتنا الصحف بحقيقة ما حدث. وعلق هات قائلا لقد صدق حدسى» فقد انهال بوبو ضربًا وصفعًا على أحد الرجال فى أريما لإغوائه زوجه وفراره معها. وهذا الرجل هو البستانى الذى اعتاد أن ينفحنى بهداياه من الحقائب الورقية الممتلئة بالحشائش. لم يعان بوبو الكثير من هذه الفعلة. إذ اقتصر العقاب على غرامة

دفعها صاغرًا، وأطلق سراحه بعد أن وجه إليه القاضى تحذيرًا بالكف عن التحرش بزوجه وإزعاجها على أى نحو كان.

ابتدع سكان الشارع أغنية شعبية تروى ما حدث لبوبو ذاعت على ألسنتهم طوال العام وسرت فى جميع الأرجاء سريان النار فى الهشيم. كما مضت حشود المحتفلين بالكرنفال يترنمون بهذه الأغنية أثناء مسيرتهم السنوية المعتادة، كما أن الأخوات اندروز قمن بتسجيل كلمات الأغنية على أسطوانات من إنتاج شركة أمريكية تعمل فى مجال الفن.

تقول كلمات الأغنية:

«شد شخص يعمل بالنجارة الرحال إلى إريما

باحثًا عن فتاة ساقطة تدعى إيميلدا»

أثارت كلمات الأغنية عاصفة من الاستحسان فى شارعنا وطفقت أتباهى فى المدرسة بصلتى الوثيقة به قائلا: هذا الشخص الذى يشتغل بالنجارة هو صديق حميم لى».

كما جعل هات يردد أثناء حضوره مباريات الكريكت وسباقات الخيل: هل تسألنى إذا كنت أعرفه! يالهى لقد كنت أشاربه ليلاً ونهارًا. يا فتى لقد كان بوسعه أن يشرب المحيط دون أن يسكر»

إلا أننا لمسنا تغييرًا عميقًا فى شخصية بوبو عند عودته. فعندما ذهبت إلى ورشته لمجاذبته أطراف

الحديث، زعق فى وجهى وطفق يزمجر بصوت ملؤه الوعيد، كما طرد هات وبقية أفراد العصابة من ورشته عندما دلفوا إليها حاملين زجاجة روم.

علق هات قائلا: «لقد جُنّ الرجل بسبب أفعال تلك المرأة»

إلا أن الضوضاء الصادرة عن الدق والخبط والنشر فى ورشة بوبو عادت تصك الأسماع من جديد، إذ طفق يكرس قلبه لعمله، وجعلت بدورى أتساءل عما إذا كان لايزال يتفنن فى صنع ذلك الشىء الذى يعز على التسمية، ولكننى أحجمت عن طرح هذا السؤال عليه أن يهتاجه الغضب لما يمكن أن يعده تهكمًا أو تعريضًا به.

أدخل بوبو الكهرباء إلى الورشة، وشرع فى العمل أثناء الليل، وكنت ألمح عربات نقل ضخمة تتوقف أمام منزله لتفرغ حمولتها من الأخشاب أو تنقل قطع الأثاث، بعد ذلك شرع بوبو فى طلاء جدران منزله بلون أخضر زاه، أما السقف فقد طلاه بلون أحمر فاقع، علق هات قائلا: «إن الرجل قد جُنّ حقًا، ثم أضاف: يخيل إلى أنه ينتوى الزواج للمرة الثانية».

إلا أن رأيه لم تكن يجانب الصواب كلية، إذ عاد بوبو بعد انقضاء أسبوعين على عملية الطلاء مصطحبًا معه امرأة، لم تكن هذه المرأة سوى زوجه، التى كنت أناديها «عمتى»، علق هات قائلا: هل تدركون الآن طبيعة المرأة، وما تبغيه من وراء الزواج،

ليس الرجل بطبيعة الحال، بل بيتًا جديدًا حسن الطلاء وما يحويه من أثاث جديد، إننى مستعد للرهان على أنه لو كان للبستانى منزل جديد مؤثث بأفخم الرياش، ما كانت لتعود مع بوبو».

بيد أننى لم أهتم بهذه المسألة، فقد كنت سعيدًا برؤية بوبو وهو يقف على الرصيف صباح كل يوم ممسكًا بإحدى يديه زجاجة الروم، وقد شرع يغمس إصبعه داخلها وهو يلوح باليد الأخرى لأصدقائه، وكان يثلج صدرى أن أتيحت لى الظروف كى أسأله مجددًا: ماذا تصنع يا سيد بوبو؟ فأتلقى الرد القديم: «مرحى يا صبى هذا هو السؤال الحق. إننى أصنع ذلك الشيء الذى يعز على التسمية لتفرده» لدرجة تعز على التأمل أو التخيل.

سرعان ما عاود بوبو انتهاج مسلكه القديم فى العيش مع تكريس جل وقته لصنع ذلك الشيء الذى يعز على التسمية، كما توقف عن العمل فى الورشة، وعادت زوجه إلى عملها السابق فى البيت الكبير الذى يقع على مقربة من مدرستى.

امتلأت نفوس أهل الشارع سخطًا وغضبًا على بوبو بسبب عودة زوجه، إذ أحسوا أن هذه العودة كانت بمثابة لطمة قاسية لمشاعر التعاطف التى أغدقوها عليه دون حساب، كما عاود هات لذعه بكلمات قارصة: «إن بوبو اللعين أطاح برأسه الغرور». إلا أن بوبو لم يبال هذه المرة، وضرب صفحًا عن مثل هذه

الإساءات، إذ كان يستخفه طرب جنونى عذب، كان يردد على مسمعى دومًا: عد إلى منزلك يا صبى وتضرع إلى اللّه فى ظلمة الليل البهيم أن يهبك سعادة كالتى أرتع فى رحابها».

إلا أن ما حدث بعد ذلك كان أمرًا جد فجائى إلى حد أننا لم نعرف به عند وقوعه. وحتى «هات» كان يجهله تمامًا حتى قرأ عنه فى الصحف فقد كان «هات» مواظبًا على قراءة الصحف، يعكف على مطالعتها منذ حوالى العاشرة صباحًا حتى حوالى السادسة مساء، وعندما وقعت عيناه على الخبر، صاح قائلا: ما هذا الذى أقرؤه.. انظروا... ثم أشار بإصبعه إلى العنوان الرئيسى فى إحدى الصحف: سجن النجار بطل الأغنية الشعبية».

طالعنا تفاصيل الحكاية ونحن فى غاية الدهشة والعجب . فقد كان بوبو يسرق الأشياء من كل حدب وصوب، فجميع قطع الأثاث الجديد التى زود بها منزله لم يصنعها فى حقيقة الأمر، بل سرقها وأجرى عليها عددًا من التغييرات طمست ملامحها الأصلية. إلا أن إفراطه فى السرقة دفع به إلى بيع مازاد عن حاجته، وكان هذا هو السبب وراء سقوطه المزرى فى قبضة الشرطة. كما أننا ندرك الآن السر وراء وقوف عربات نقل الأثاث دومًا أمام منزله. حتى الطلاء والفرشات التى استخدمها فى طلاء منزله وتزيينه كانت مسروقة، وقد عبر «هات» حقًا عما تعصف به

عقولنا من دواعى الحيرة عندما قال: «هذا الرجل فى غاية الحمق. ما الذى يضطره إلى بيع ما سرقه، باللّه عليكم خبرونى .. لماذا؟.

قر رأينا جميعًا على أن مافعله لايمكن أن يوصف إلا بالرعونة والغباء، بيد أننا شعرنا فى أعماق نفوسنا بأنه جدير بلقب «رجل» إن لم يكن يفوقنا جميعًا رجولة وفتوة.

لكنى طفقت أتساءل عن مصير «عمتى» علق هات قائلا: ما المدة التى سوف يقضيها فى السجن؟ عام واحد، عندما يُخصم منها ثلاثة شهور لحسن السير والسلوك داخل السجن، فإن هذا يعنى تسعة شهور. إلا أننى أعتقد أن بوسعها أن تقوم سلوكها وتصلح من شأنها لمدة ثلاثة شهور فقط أيضًا، وبعد ذلك لن نراها فى شارع ميجل. هل تفهمون ما أقول؟ بيد أن إيميلدا لم تغادر شارع ميجل قط. فهى لم تكتف بالارتزاق من العمل طباخة، بل تعيشت أيضًا من غسل وكى ملابس الجيران بمنزلها. إن أحدًا فى الشارع لم يشعر بالأسى لسجن بوبو بسبب العار الذى سوف يلحق باسمه، فالذى قُدر له، وأعنى به السجن، هو مصير لا يستبعد أى منا ملاقاته.

وإنما كان مبعث أسفهم هو بقاء إيميلدا وحيدة لفترة طويلة.

وعندما عاد استقبلناه استقبال الأبطال الفاتحين. لقد غدًا الآن فردا من أفراد العصابة عن جدارة

لامـراء فيـهـا . بل كـان يفـوق حـتـى هـات أو بـوجـارت ذيوع صيت وشهرة.

لكننى كنت الشخص الوحيد الذى أحس بفداحة التغير الذى طرأ على روح بوبو، وهو تغير أحزننى وكدر علىَّ صفوى، إذ أنه شمر عن ساعد الكد، وشرع فى صنع كراسى ضخمة ذات ذراعين وظهر قابل للتعديل، ومزودة بحشيات يمكن نزعها، ومناضد، وصوانات ملابس يبيعها الناس.

وعندما سألته: متى ستشرع يا سيد بوبو فى صنع ذلك الشىء الذى يعز على التسمية؟ ندت عن فيه صيحة مكتومة أشبه بالزمجرة، وقال بصوت ملؤه الوعيد: كف عن المشاكسة، وأغرب عن وجهى قبل أن تمتد يدى إليك بالأذى.

* * *

(٣)
«جورج ومنزله
ذو اللون الوردى»

كان خوفى من جورج يفوق إلى حد كبير خوفى من صاحب القدم الضخمة رغم أن الأخير كان عملاقًا مترامى الأطراف طولاً وعرضًا، وبذا كان يُعد أقوى رجل فى شارعنا، أما جورج فكان قصير القامة بدينًا لحد الإفراط، يمتاز بكرش ضخم، وشارب جرى المشيب فيه، لم تكن أساريره تشع شرًا، وإن كان يداخله سخط شامل على الوجود كله دفع به إلى محادثة نفسه فى شبه غمغمة دون انقطاع، وصب اللعنات من أعماق الفؤاد على من يحيطون به، ولذا لم أسع قط إلى مصادقته.

كان بينه وبين الحمار الذى كان يعقله فى صدر فناء منزله مشابهة لما اتسم به مثله من تفاهة شأن، وطعون فى السن، وإيثار عجيب للصمت إلا عندما يلذ له النهيق بأعلى حنجرته حتى يضيع صوته، كان ينسرب إلى نفسى إحساس محتوم بأنه يستمرئ عزلته الوحشية، يعيش فى نطاق ذاته، مبتور الصلة بما يدور حوله طوال الوقت، ولذا كنت أضرب كفًا

بكف متعجبًا من إفلاته من تهمة الجنون والخلل العصبى، وهى التهمة التى كان جميع أهل الشارع يرمون بها مان - مان الذى كنت أكن له عظيم المودة والإعجاب.

كما كان قلبى ينقبض خوفًا وجفولاً عندما يقع بصرى على منزل جورج، فقد كان على هيئة مبنى خشبى أكله البلى والتقادم، ويكسوه من الخارج طلاء أحمر وردى. أما ألواح السقف من الصفيح المجلفن فقد حال لونها إلى اللون البنى بفعل الصدأ، كان بوسع الزائر أن يدلف إلى الداخل من باب يقع على يمينه كان يترك دومًا مفتوحًا، لم تحظ الجدران الداخلية للمنزل بترف الطلاء قط، ولذا حال لونها مع مر السنين إلى مزيج من اللونين الرمادى والأسود. كان المنزل مؤثثًا بفراش قذر يربض فى أحد الأركان، وخوان ومقعد بلا ظهر فى الركن المقابل. كما لم تزين الجدران بستائر أو صور، فحتى بوجارت كان يعلق صورة لورين باكال فى حجرته.

لم يكن بالأمر الهين على أن أصدق أن لجورج زوجة وابن وابنة، كان جورج، مثل بوبو، يغمره شعور ارتياح وسرور عندما يرى زوجه تقوم بجميع الأعمال فى المنزل والفناء، كان جورج يربى أبقارًا، مما زاد من كراهيتى له. فقد كانت تزكم أنوفنا الرائحة النتنة التى تفوح بها قنوات الصرف غير المغطاة فى شارعنا عندما تصب فيها المياه الواردة من حظائره،

ناهيك عن البلل الذى كان يصيب الكرة بسبب سقوطها فى هذه القنوات أثناء ممارستنا لعبة الكريكيت على الرصيف، كان بويى وأرول يتعمدان غمس الكرة فى مياه قنوات الصرف القذرة، إذ كانا يعتقدان أن الكرة المبتلة بهذه المياه تنطلق كالصاروخ عندما تصطدم بسطح المضرب.

لم تكن زوجة جورج ذات سمات شخصية واضحة فى نظرى، كانت تمثل لى دومًا مجرد زوجة لجورج. كما كنت على يقين من أنها تكاد تقيم فى حظيرة الأبقار ليلاً ونهارًا لا تفارقها. فعندما كان جورج يجلس علي عتبة بيته مستندًا إلى مصراع الباب المفتوح دوما كانت زوجه غارقة حتى أذنيها فى سبيل الرزق.

لم ينضم جورج قط إلى العصابة فى شارع ميجل، بيد أنه خيل إلىَّ أن هذا الأمر لم يكن يهمه، فقد كان له زوجة وابن وابنة، كان يضربهم جميعًا دون استثناء، وحتى عندما تعملق الصبى إلياس وغدا عريض الصدر كمصارع، ازداد عدد الضربات التى يكيلها جورج لزوجه وابنته، بيد أنه خيل إلىَّ أن زوجه لم تستفد قط من اللكمات التى كانت تنهال عليها كالمطر، إذ حل بها هزال وذبول فبدت كالطيف، فى حين أن صحة الابنة دوللى قد طرأ عليها تحسن لا تخطئه العين مما يشهد بالأثر الطيب للكمات الضارية والركلات التى كانت تنهال عليها، فقد ازداد

وزنها على مر السنين، وتورد وجهها من البهجة، وطفقت تطلق المزيد من ضحكاتها المقرقرة. أما الابن «إلياس» فقد ارتسم على جبينه عبوس لا يريم، إلا أنه لم يوجه إلى أبيه كلمة واحدة تعرب عن استيائه أو استهجانه لقسوته المفرطة.

ندت عن هات: «هذا الصبى إلياس يتمتع بقدر هائل من الذكاء».

كما فوجئت ذات يوم ببوجارت الذى كان منكمشًا فى أعماق ذاته يخرج من قوقعته ويقول: «إننى أحترق لهفة إلى إعطائه علقة تلزق بذاكرته لا تتزحزح.

كما أنه فى المرات القلائل التى كان فيها إلياس يسامرنا على الرصيف، كان هات يخاطبه قائلاً: إن الحسرة تعصر قلبى... لماذا لا تحسم الخلاف مع والدك وتردعه عما يفعل إلى الأبد؟، وكان إلياس يرد قائلا: «إنها مشيئة الله».

كان إلياس فى الرابعة عشرة تقريبًا فى تلك الفترة، ولكن هذه كانت شخصيته بما اتسمت به من جدية وطموح كبير.

كان قلبى ينخلع فزعًا عندما يقع بصرى على جورج خاصة بعد أن ابتاع كلبين ضخمين من فصيلة «الإلزاس» وشد وثاقهما إلى وتدين مغروزين فى الأرض الأسمنتية أمام عتبة البيت فعندما كنت أمر على منزله كل يوم فى الصباح وبعد الظهر، كان يحرض كلبيه على مهاجمتى والفتك بى، فكانا يثبان

من مرقديهما كالملدوغين ويمزقان السكون بنباحهما الوحشى كان بصرى يتجه فى هذه اللحظات العصيبة إلى الحبلين المربوطين فى الوتدين، وقد طفقت جوانحى تخفق كأنما انطلقت بها صفارة الإنذار، إذ كان يساورنى دومًا ثمة إحساس بأن أحد الحبلين أو كليهما سوف ينقطع فى القفزة التالية، أننى أتذكر الآن أنه عندما اقتنى هات كلبًا من نفس الفصيلة سعى إلى توطيد أواصر المودة بينى وبين كلبه ونصحنى عندئذ قائلاً: «لا تخش الكلاب أبدًا، ولا تطلق ساقيك للريح عندما تراها، بل سر أمامها ملقيًا عليها نظرة مترفعة من رأس شامخ». اعتدت مستندًا إلى هذه النصيحة، أن أسير متمهلاً فى هوادة ورفق وأنا أمر بمنزل جورج، مما كان يطيل فترة عذابى.

لم أكن أعرف إن كان جورج يكنّ لى كراهة على المستوى الشخصى أم كان يكره جميع الناس على وجه التعميم ودون تمييز، إلا أننى لم أناقش هذا الأمر قط مع الصبية الآخرين فى الشارع، إذ كان إحساسى بالخزى والخجل يعقد لسانى كلما هممت بمكاشفتهم بخوفى من الكلبين. إلا أن العادة سرعان ما طوت مخاوفى من الكلاب. وحتى الضحكات المجلجلة التى كان يطلقها جورج عندما يلمحنى مارًا أمام منزله لم تعد تثير قلقى، لمحت جورج ذات يوم واقفًا على الرصيف، وعندما حاذيته سمعته يقول فى شبه غمغمة: يا وجه القرد! وهو نفس السباب الذى صك سمعى بعد ظهر نفس اليوم، واليوم الذى تلاه.

وأحيانًا كان يقول: يبدو أن جميع قاطنى هذا الحى بينهم وبين القرود مشابهة قوية.

وأحيانًا كان يقذفنى بشتيمة فى غاية البذاءة والفحش، ثم يعرب عن دهشته من أن العالم يزخر بمثل هذه النوعية من البشر التى تتسم بهذا الانحطاط الخلقى.

كنت أتظاهر بطبيعة الحال بالصمم، بيد أنه بعد أسبوع أو ما قارب كانت تخنقنى العبرات وأكاد أنخرط فى بكاء مرير كلما صكت سمعى هذه الشتائم والإهانات.

ذات مساء عندما توقفنا عن لعب الكريكيت على الرصيف بعد أن قذف بويى الكرة بمضربه واستقرت فى فناء منزل السيدة هيلتون، وتبخر الأمل فى استردادها، ابتدرت إلياس متسائلاً: لماذا يعاملنى والدك بمثل هذه الفظاظة لماذا يواظب على سبى وشتمى كلما رآنى سائرًا أمام منزله؟

ندت عن هات ضحكة، بيد أن إلياس بدا وقورًا رزينًا.

سألنى هات: ما الشتائم التى يقذفك بها؟

فأجبته: إن الرجل العجوز السمين يسبنى قائلاً: يا وجه القرد!... إلا أننى جفلت من مجرد ذكر النوع الثانى من السباب.

ضج هات بالضحك.

قال إلياس: إن أبى يا صديقى رجل غريب الأطوار. ولذا لا يسعك إلا أن تغفر له هذه الإساءات. فلا تلق بالا لما يصبه على رأسك من شتائم. فهو رجل عجوز، راكمت له الدنيا من صدماتها ما انقض ظهره، فضلاً عن أنه إنسان جاهل لم يتلق تعليمًا مدرسيًا مثلنا. إلا أنه رغم ذلك لا يعدم روحًا أو قلبًا يخفق أو يهتز حنانًا مثل أى إنسان آخر.

ندت عن إلياس هذه العبارات وقد ارتسمت على وجهه آى الرزانة والجد مما جعل هات يحجم عن إطلاق ضحكاته المجلجلة. لقد استفدت من هذا التفسير من جانب الابن أيما استفادة، فكنت كلما مررت بمنزل جورج أهمس لنفسى قائلاً: «يجب أن أغفر له ما يفر من فيه من بذاءات، فهو لا يعلم عاقبة ما يتفوه به».

بعد ذلك توفيت أم إلياس، وشيعت إلى مثواها الأخير فى موكب جنائزى لم يشهد شارع ميجل مثيلاً له من قبل قلة شأن ورثاثة حال، وشيوع حزن وكآبة كغبار الخماسين، وقلة مشيعين، بعد وفاتها كان منظر الحجرة الأمامية وقد خلت من ساكنيها يثير فى النفس المزيد من الحزن والشجن، ويبعث الرعشة فى المفاصل.

الغريب فى الأمر أننى داخلنى شعور بالأسى، وإن لم يكن عميقًا لما أصاب جورج، وشرع الرجال فى شارعنا فى إجراء تحقيق فى ظروف وملابسات

حادث الوفاة أمام منزل هات، لم يبخل هات بشهادته، فبادر قائلاً: «كان ينقض عليها ويسوى بها الأرض. أمن بوجارت على قوله باحناءة من رأسه، ثم طفق يرسم دائرة على الرصيف بسبابة يده اليمنى. إلا أن إدوارد علق قائلاً: «إننى أعتقد أنه قتلها، فقد أخبرنى بويى أنه ترامى إلى سمعه الليلة التى سبقت وفاتها صرخات كالعواء انطلقت من حلقها بينما كانت تنهال عليها اللكمات والركلات كالمطر.

بادرنا هات متعجبًا: هل تعتقدون أن القضاة والأطباء يلهون ويلعبون؟!

فأجاب إدوارد: «ولكننى أصدقك القول.. فلم يكن بويى ليكذب فى أمر جاد مثل هذا الأمر. لقد لقيت المرأة مصرعها بسبب لكماته الضارية التى كان بوسع مدينة ضخمة فقط مثل لندن أن تتحملها، ولكن امرأة فى نحافة وهزال زوجة جورج سرعان ما تهاوت تحت وطأة الضربات الوحشية».

لم يند عن أى من الرجال كلمة دفاعًا عن جورج وفوجئت ببويى يعرب عن دفقة شعور لم أتوقع صدورها منه، إذ قال: إن من أشفق عليه ويتفتت قلبى رثاء له هى دوللى. هل تعتقد أنه سوف يواظب على ضربها؟.

فأجاب هات بحكمة بالغة: فلننتظر ما تسفر عنه الأيام.

انكمش إلياس فى أعماق ذاته وهجر جميع أصدقائه ومعارفه فى شارع ميجل.

دهم جورج حزن شديد الضراوة إبان الأيام القلائل التى تلت الجنازة، كان ينهل من شراب الروم حتى تدور رأسه، وجعل يضرب فى الشوارع على غير هدى، وهو ينتحب انتحابًا متواصلاً، ويضرب صدره بقبضة يده، مستوهبًا كل من يقابله الشفقة والعطف والمغفرة، مذكرًا إياه بأنه مجرد أرمل مسكين.

وطوال الأسابيع التالية واصل الشرب دون انقطاع، وطفق يذرع الشارع جيئة وذهابًا فى شبه هرولة. لف المارة الحرج والارتباك عندما كانوا يرونه يقترب منهم سائلا إياهم المغفرة، ثم مستطردًا «إن ابنى إلياس غفر لى ما اقترفته فى حقه، وهو صبى أخذ حظه من التعليم»، إلا أنه عندما توجه إلى هات بادره الأخير متسائلاً: كيف حال أبقارك؟ هل تحلبها؟ هل تطعمها؟ هل ترغب فى قتلها أيضًا؟ لذا باع جورج جميع أبقاره لهات.

علق هات قائلا: من وجهة النظر الدينية فهذه سرقة أما من وجهة نظرى فهى مجرد صفقة، إلا أن إدوارد قال: إن ما حدث سوف يفيده. فها هو ذا يشرع فى دفع ثمن خطاياه».

فأجاب هات: هذه هى وجهة النظر التى أتبناها بهذا الصدد، فأنا قد أعطيته فى مقابل أبقاره نقودًا سوف يكون بوسعه أن يسدد بها ثمن سكره لحد الموت طوال شهرين كاملين».

غاب جورج عن شارع ميجل أسبوعًا كاملاً رأينا أثناءه دوللى مرات كثيرة بعد أن ظلت شبه متوارية عن الأنظار. إذ كنا نلمحها وهى تكنس الحجرة الأمامية، ثم وهى تشحذ أزهارًا من الجيران كى تزين بها الحجرة، كما أنها جعلت تطلق ضحكاتها المقرقرة بمعدل غير مسبوق. ودس أحد سكان الشارع (لم يكن أنا) السم لكلبيه الضخمين من فصيلة الإلزاس، كان ثمة أمل يتوهج فى قلوبنا أن يكون جورج قد ذهب دون رجعة. إلا أنه عاد وكان لا يزال مخمورًا، وإن كف عن البكاء، وامتلأ فؤاده ثقة بالنفس، وكان بصحبته امرأة تنم قسماتها عن أصلها الهندى على نحو قاطع، ويوحى منظرها، وإن تكن جاوزت عتبة الشباب بقليل، بالقوة، مما بشر بقدرتها على التصدى لاعتداءات جورج المحتملة.

قال هات: إن نظرة عينيها اللتين تلتمعان بوهج الخمر تشى بإدمانها الشراب مثل جورج.

اضطلعت هذه المرأة بمسئولية تدبير شئون البيت، ووجدت دوللى نفسها مضطرة إلى التقهقر إلى قوقعتها مرة ثانية، والانزواء فى حظائر الأبقار الخالية أيامًا لا تغادرها.

ترامى إلى أسماعنا حكايات عن تعرض دوللى والمرأة الهندية للضرب وأعرب جميع سكان الشارع عن أسفهم العميق لما تعانيه المرأة والفتاة.

تفتت قلبى رثاء للمرأة ودوللى، وعجبت لمن يسعه

تحمل العيش مع جورج ولذا لم تصبنى الدهشة عندما أخبرنى بوبو بعد أسبوعين فقط من عودة جورج بزوجه الثانية إلى شارع ميجل، بأنها قد هجرته.

علق هات قائلاً: «إننى أتساءل عما سيفعل عندما تنفد النقود التى أخذها منى ثمنًا لأبقاره».

سرعان ما عرفنا الإجابة على هذا التساؤل.

انقلب المنزل الوردى بين عشية وضحاها إلى مكان أشبه بخلية نحل تتطاير فى أرجائه السباب، وتلعلع فى جوه الضحكات المتهتكة. اكتظ المنزل بنساء تميزن بالحديث بصوت مرتفع، وعدم مراعاة الاحتشام فيما يرتدين من ملابس. وكلما مررت بالمنزل الوردى كن يقذفننى بسيل من اللعنات الفاحشة ولم يكن الأمر يخلو من تحرش إحداهن بى وهى تمط بوزها داعية إياى إلى أحضان «ماما». كما أن الوجوه الجديدة لم تقتصر على تلك النساء. فالكثير من الجنود الأمريكيين كانوا يفدون إلى منزل جورج فى سيارات «جيب» وبذا انقلب شارعنا ماخورًا ضخمًا تتجاوب أركانه بالصراخ والضحكات المقرقرة والمجلجلة، قال هات متحسرًا: «هذا الرجل سوف يثير الشبهات حول سمعة شارعنا، ويجعلنا نتمرغ فى السمعة السيئة، بدا الأمر كما لو أن شارع ميجل غدا ضمن ممتلكات هؤلاء الوافدين الجدد، ولم يعد هات وبقية الصبية فى مأمن من انتهاك ستار السرية الذى كانوا يسدلونه على ما يدور بينهم من حوار ومناقشات أثناء اقتعادهم الرصيف.

إلا أن بوجارت اندمج فى أولئك الوافدين الجدد، وكان يساهرهم مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع. كان يتظاهر بالتقزز والنفور مما كان يحدث، فكان يلوى شفتيه امتعاضًا بعد أن يذكر لنا ما كان يشهد من آثام وخطايا، بيد أننى لم أصدقه، فقد كان دومًا يعاود زياراته بعد هذا الاحتجاج العنيف، سأله هات ذات يوم: كيف حال دوللى؟، فأجاب بوجارت على ما يرام، فتساءل هات: ماذا تعنى؟ - أعنى أنها تقوم بأعمال الطهى والتنظيف، فسأله هات: هل تنهض بهذه الأعباء بمفردها؟ فهز بوجارت رأسه علامة الإيجاب. أما إلياس فكان ينزوى فى حجرته لا يغادرها طوال إقامته بالمنزل، وكان يتناول وجباته فى الخارج. كان يبذل أقصى ما لديه من جهد فى المذاكرة كى يجتاز امتحانًا مهمًا. كانت شعلة اهتمامه بأسرته قد ذبلت، هذا ما قاله بوجارت أو ألمح إليه أثناء حديثه.

كان جورج كعادته يشرب حتى تلطسه الخمر، بيد أنه أصبح يعيش فى بحبوحة من العيش، وفى رغد من الحياة، واقتنى بدلة وربطة عنق مثل الوجهاء.

قال هات: إنه يكسب أموالاً طائلة دون شك... وإن لم يكن الأمر كذلك، فما الذى يدفعه إلى رشوة جميع رجال الشرطة.

أما الذى كنت أعجب له، وانبهم مغزاه على إدراكى الطريقة التى كان هؤلاء النسوة يعاملن بها جورج والتى كانت تنم عن ود يخالطه قدر كبير من الاحترام،

كما لم يكن جورج يستحفز فى نفسه العزيمة على أن يبادلهم ودًا بود، ولم يصلح من شأنه، ويقوم سلوكه. بل ظل فظًا غليظ القلب، ينهال على من حوله سبًا وتعنيفًا لأتفه الأسباب.

وفى صباح أحد الأيام عالن الجميع بقراره: «لقد فقدت دوللى أمها، ولذا أصبحت مجبرًا على أن أكون أمًا وأبًا لهذه الطفلة، ولذا فإننى أرى أن الوقت قد حان كى تتزوج».

وقع اختياره على رجل يدعى رازر (موسى حلاقة). كان من الصعب على أى امرئ مهما كان حظه من الذكاء وسرعة البديهة أن يتفتق ذهنه عن اسم آخر أكثر ملاءمة لهيئة هذا الرجل وطبائعه. فقد كان قصير القامة، رقيق الجسم، ذا عود نحيل وشارب أنيق بطرفيه الحادين كالسيف يتأرجحان فوق شفتين صغيرتين بالغتى الرقة. أما ثنيتا بنطلونه فقد كانتا دومًا فى استقامة وحدة موسى الحلاقة، كما كان من المفترض أنه يحمل سكينا لا يفارقه إلا فى وقت النوم.

وقع اختيار رازر زوجًا لدوللى من نفس هات موقع الانزعاج والهلع، فطفق يتفرس فى وجوه من حوله متشكيًا: «لن تستطيع أن تُصمد أمام عنفه.. فهو من ذلك الصنف من الرجال الذى يغرز السكين فى ظهرك لأتفه سبب دون أن تطرف له عين». ورغم ذلك لم تتوقف دوللى عن إطلاق ضحكاتها المقرقرة.

عقد قران رازر ودوللى فى الكنيسة، ثم حضرا حفلاً فى المنزل الوردى أقيم بهذه المناسبة، كان جميع النساء يرفلن فى الثياب الغالية، وكان المكان مكتظًا بالبحارة والجنود الأمريكيين الذين طفقوا يطلقون الضحكات وقد احمرت عيونهم من أثر الخُمار، وهم يزجون التهانى لجورج بألسنة أثقلها السكر الذى رنت أنغامه فى أوتار أصواتهم. دفع تشجيع النساء والجنود الأمريكيين «دوللى» و «رازر» إلى تبادل القبلات عدة مرات. لعلعت فى الجو ضحكات دوللى المقرقرة. قال هات معلقًا على ضحكاتها: «إنها لا تضحك إذا تحرينا الدقة بل تنتحب انتحابًا متواصلاً».

لم يحضر إلياس الحفل ذلك اليوم.

طفقت الحناجر بعد ذلك تهزج بأغنية «سن السادسة عشرة» وأغنية «بينما الوقت ينسل» «ثم وجد «رازر» و «دوللى» نفسيهما مدفوعين إلى تبادل القبلات إرضاء للنسوة والجنود. «نريد أن نستمع إلى خطبة» ندت عن أحد الضيوف، ثم تطايرت الضحكات والهتافات المطالبة بسماع خطبة يلقيها والد العروس.

ابتعد رازر عن دوللى تاركًا إياها بمفردها، وقد غرقت فى ضحك هستيرى، وعندما عاود ضيوف الحفل الصياح مطالبين بسماع خطبة، كان رد فعل دوللى الوحيد هو إطلاق المزيد من ضحكاتها

المقرقرة. أخيرًا نهض جورج من مقعده وخطب في الحشد قائلاً: «إنك يا دوللي قد تزوجت، وهذا أمر لا يسعني إنكاره. لكن إياك أن تغتري بضخامة حجمك، ويوسوس لك شعورك بالزهو والخيلاء بعجزي عن طرحك على ركبتي، وتأديبك بضرباتي الصادقة ولكماتي الضارية» ندت عنه هذه العبارات على سبيل الدعابة والمزاح، لذا ضج ضيوف الحفل بالضحك فور انتهائه من إلقاء كلمته، أما دوللي فقد توقفت فجأة عن إطلاق ضحكاتها المجلجلة، وزايلت أساريرها هيئة الضحك، وطفقت تقلب عينيها في وجوه الحاضرين بعقل غائب وبما يشبه البلاهة، لاذ الجميع بالصمت هنيهةٍ ثم خرقه بحار أمريكي لعبت الخمر برأسه، فصاح بعد أن لوح بيده، وهو يترنح مترنحًا: بوسعك يا جورج أن تجد لها عملاً يدر عليها دخلاً وفيرًا، وسرعان ما تجاوبت في أركان المنزل الضحكات، كبشت دوللي كبشة حصى من الفناء وندت عن يدها حركة كما لو كانت تنتوي رمي البحار بها، ولكنها تراجعت فجأة، وتقلص وجهها، تقلص البكاء وسرعان ما انخرطت في بكاء عصبي طويل، ورغم ذلك تجاوب أرجاء المنزل بالضحك والصياح والهتاف.

لم يقدر لي قط أن أعرف على وجه الدقة مصير دوللي، إذ أخبرني إدوارد ذات يوم أنها تعيش في سانجريه جرانديه، وقال هات إنه رآها تبيع سلعًا في سوق شارع جورج المهم في الأمر أنها كانت قد غادرت الشارع، ولم تعد إليه بعد ذلك قط.

ومع مـر الأسـابيع والشـهـور أخـذ عـدد النسـاء المـقـيمـات بالمنـزل يقل تدريجـيًا، كمـا لـوحظ تدهور مماثل فى عدد سيارات الجيب التى كانت تقف خارج منزل جـورج، علق هـات على هذا المـوقف قـائلاً: «إن ما ينقصه هو التنظيم، أومأ بوجارت برأسه موافقًا، أضاف هات قائلاً: كما أن بوسعهم التردد على كثير من الأمـاكن اللطيفـة التى انتشـرت فى جميع أنحـاء «بورت أوف سبين» مؤخـرًا. إن مشكلة جـورج هى أن ذكاءه يعجز عن مجاراة طموحاته كرجل أعمال ناجح.

برهنت الأيام على صـدق نبـوءة هـات، فـمـا أن انقضت ستة شهور حتى كان جـورج يعيش بمفرده فى منزله الوردى، اعتدت أن أراه فى هذه الفترة مقتعدًا درجـات سلم منزله، ولكنه كـان قـد كف عن مـبـادلتى نظراته القاسية التى تنز مقتًا واحتقارًا، بدا طاعنا فى السن، وتبدى الإعياء فى أعماق عينيه ولاح فى وجهه الهم والغم.

مات جورج بعد ذلك بفترة قصيرة.

تعـاون هات والأولاد على جـمع مـبلغ من النقـود لإقـامـة الجنـازة، وواريناه الثرى فـى مـدافن لابيـروس، وأود أن أضـيف هنا أن إليـاس لم يتخلف عن تشـيـيع جنازة والده.

(٤)
«المهنة التى لا يعدل بها مهنة أخرى»

بعد منتصف الليل كان يخرق الصمت الشامل فى شارعنا نوعان من الضوضاء ألفناهما واعتدنا عليهما.

ففى حوالى الثانية كان يترامى إلينا خشخشة صادرة عن نثار أوراق الأشجار الجافة وقد نشط الكناسون لعملهم بهمة عالية، ثم بعد ذلك. وقبيل الفجر، كان يتناهى إلى آذاننا صرير عجلات عربات جمع القمامة التى تجرها الخيول والضوضاء الصادرة عن الرجال وهم يرفعون القمامة التى كومها الكناسون فى الأركان.

لم يكن هناك صبى فى الشارع كله يرغب على وجه خاص فى أن يصبح كناسًا، بيد أنك إذا سألت أى صبى من هؤلاء الصبية عن المهنة التى يرغب فى الاشتغال بها فى المستقبل فإنه سوف يجيب من فوره «سائق عربة جمع القمامة».

كانت تتحلق حول هؤلاء السائقين للعربات الزرقاء هالة مبهمة من المجد والرفعة، وكانوا ذوى هيئة

أرستقراطية، كانت فترة عملهم لا تتجاوز الساعات الأولى من الصباح ثم يمرحون بقية النهار دون عمل، وفضلاً عن ذلك كانوا دومًا فى حالة إضراب عن العمل، لم يكن ما يضربون من أجله بالأمر الجليل، إذ كانوا يضربون عن العمل أحيانًا من أجل رفع أجرهم اليومى سنتًا واحدًا، أو اعتراضًا على تسريح أحد زملائهم، كما أضربوا عندما بدأت الحرب، وأضربوا احتجاجًا على انتهائها، ولم تفتهم فرصة الإضراب عندما حصلت الهند على استقلالها، أو عندما مات غاندى.

كان معظم الصبية فى الشارع يتطلعون إلى «أدوس»، الذى كان يعمل سائقًا، بإعجاب وإجلال يجلان عن الوصف، كان «أدوس» يردد دومًا أن والده كان أعظم سائق عربة جمع قمامة فى زمانه، وكان يقص علينا قصصًا رائعة عن مهارة والده فى أداء عمله على نحو يرقى إلى الإعجاز، انحدر «أدوس» من إحدى طوائف الهندوس ذات المرتبة الاجتماعية المتدنية، وكان وصفه لعظمة والده لا يخلو من قدر كبير من الصدق، إذ أن مهارته كانت تشهد برسوخ هذه الموهبة وتأصلها فى العائلة وتوارثها عبر الأجيال.

ذات يوم بينما كنت أكنس الطوار أمام منزلى جاء «أدوس» وأراد أن ينتزع المكنسة من يدى، كنت أشغف بالكنس أيما شغف، ولذا كرهت أن أسلمه المكنسة.

ضحك «أدوس» ضحكة مترعة بصحة وعافية، ثم تساءل: ماذا تعرف يا بنى عن الكنس؟ طرفت عيناى ارتباكًا، وتساءلت وأنا من الحيرة فى نهاية: هل البراعة فى الكنس تقتضى عظيم خبرة وطول تمرس؟ أجاب «أدوس» إن الكنس هو العمل الذى تمرست على أدائه سنوات طوال. انتظر حتى تكبر وتصبح مثلى. أعطيته المكنسة وأنا أغص بخيبة ترابية. دهمنى حزن شديد الضراوة، وظللت لفترة طويلة أكابد حسرات الهزيمة وغصص الخيبة.

خيل إلى أنه لن يقيض لى أبدًا أن أشب عن الطوق وأبلغ مرحلة الرجولة مثل «أدوس»، أو أحظى بما كان يطلق عليه الحنكة والخبرة، طفقت أرمق «أدوس» بعين الإعجاب والإجلال والإكبار. وشعرت بروحى تذوب شوقًا إلى الحياة الباهرة التى يحياها سائقو عربات القمامة.

بيد أن إلياس كان يختلف عن بقية الصبية فى آماله وتطلعاته، كنا - نحن المؤسسين - لنادى شارع ميجل للصبية نجلس القرفصاء على الطوار ونتحدث، مثل هات وبوجارت وبقية أعضاء العصابة، عن موضوعات مثل الحياة، ومصائر البشر والكريكيت، وكرة القدم، نازعت إلياس الحديث ذات يوم: أعتقد أنك لا تريد أن تصبح سائق عربة قمامة، فما المهنة التى تريد أن تعمل بها؟ مهنة كنس الشوارع؟.

صوب إلياس بإحكام بصقته التى انطلقت من فيه كالرصاصة مصحوبة بأزيز صك أسماعنا تجاه قناة المجارى المكشوفة، وخفض عينيه قائلاً فى تصميم مباغت، سوف أكون طبيبًا. هل تسمعوننى؟.

لو كان هذا القول قد ند عن «بويى» أو «أرول» لانفجرنا ضاحكين، بيد أننا كنا نقر جميعًا بتفرد إلياس، وما يتمتع به من ذكاء حاد.

كانت قلوبنا تفيض بالأسى لما كان يعانيه إلياس من الضربات الوحشية التى كان يكيلها له والده جورج، بيد أننا لم نره قط ينتحب باكيًا، ولم تند عنه كلمة تسىء إلى أبيه.

أذكر أننى فى أحد الأيام طلبت من إلياس أن يصحبنى إلى محل تشين لشراء زبد بثلاثة سنتات، لم يقع بصرى على جورج أمام منزله، ولذا غمر فؤادى الطمأنينة والارتياح، بيد أننا لم نكد نقطع بضع خطوات فى طريقنا إلى دكان تشين حتى طالعنا جورج بسحنة منقلبة انحشر قلب إلياس فى حلقه، وعقد الخوف لسانه عندما رأى أباه يتقدم نحونا وهو يزمجر بصوت ملؤه الوعيد: إلى أين تمضى معه؟ ندت عنه وهو يوجه إلى فكه لكمة ضارية.

كان جورج يرى قرة عينه فى ضرب إلياس كان من عادته أن يوثق يديه وراء ظهره، ثم يكيل له ضربات وحشية بحبل أعده لهذا الغرض بغمسه فى مياه المجارى القذرة فى حظيرة أبقاره، لم يكن إلياس

ينتحب باكيًا، إذ كان يعض على نواجذه دومًا ليحبس دموعه الهائجة، ورغم هذه المعاملة القاسية كنت أرى الأب وابنه يتندران بالنكات والملح إثر كل علقة يأكلها الابن صابرًا متصبرًا، وكان الأب يوجه الحديث إلى قائلاً: إننى أعرف ما يدور بذهنك، فأنت تعجب للسرعة التى تتبدد معها الوحشة والنفور بين قلبينا. وبقدر فوران قلبى بكراهية جورج كانت أضلعى تدر حنانًا وعطفًا على إلياس، الذى لم يكن يساورنى شك فى قدرته على أن يصبح طبيبًا فى يوم من الأيام.

قال أرول: أنا مستعد للرهان على أنه عندما يصبح طبيبًا سوف ينسانا جميعًا. أليس كذلك يا إلياس؟.

افتر ثغره عن ابتسامة حيية، وهز رأسه قائلاً: كلا. أنا لست من هذا النوع من الناس، فسوف أهبكم الكثير من النقود وأغدق عليكم الهدايا، لوح إلياس بيديه الصغيرتين فى عزم وتصميم، وتمثلت لعيوننا صورة السيارة الكاديلاك، والحقيبة الأنيقة السوداء والسماعة الطبية التى كان إلياس سيقتنيها عندما يصبح طبيبًا.

التحق إلياس بالمدرسة التى كانت تقع فى الطرف الآخر من شارع ميجل، والتى لم يكن بينها وبين هيئة أى مدرسة ثمة مشابهة. فقد كانت تبدو لى مثل أى منزل بالشارع، إلا أنه رُكبت على هامة المدخل لافتة كبيرة سطر عليها بالخط العريض:

«تيتس هويت (لندن، امتحان من الخارج).

شهادة معتمدة من مدرسة كمبردج.

الغريب فى الأمر أن جورج الذى لم يكن ليفلت من يديه أية فرصة سانحة لضرب إلياس، كان يتيه عجبًا وسرورًا فى الوقت نفسه بانخراط ابنه فى الدراسة: «إن ابنى ينهل من منابع المعارف، فهو يقرأ ويكتب بالإسبانية والفرنسية واللاتينية».

تقدم إلياس فى العام الذى سبق وفاة أمه لامتحان شهادة الثانوية المؤهلة لدخول جامعة كمبردج، قطع تيتس هويت الشارع كله مشيًا على الأقدام كى يزف إلينا البشرى: «هذا الصبى سوف يجوز الامتحان بمرتبة الشرف الأولى، كنا نرمق إلياس بعين الإكبار والإجلال وهو يمضى فى طريقه إلى قاعة الامتحان فى بنطلونه الكاكى الأنيق وقميصه الأبيض.

قال أرول «إن كل كلمة يخطها إلياس فى كراسة الإجابة سوف تُصحح فى إنجلترا»، بيد أن هذا الكلام وقع من نفسى موقع الدهشة والإنكار، واصل أرول وقد جرفه زهو: «هل تعتقدون أن قولى ينطوى على ثمة مبالغة.

إن إلياس كما لا يخفى على أى منكم، مثال مجسم فى الذكاء والعبقرية.

توفيت أم إلياس فى يناير، وظهرت نتيجة الامتحان فى مارس، ولم ينجح إلياس. عاود هات مطالعة

أسماء الناجحين فى جريدة «الجارديان» عدة مرات دون جدوى، ثم ابتدرنا قائلاً:

«إن المرء يساوره غير قليل من الشك، فالبشر دومًا يرتكبون أخطاء خاصة عندما يكتظ الكشف بأسماء الناجحين. ركب الجميع حال تعسة من الحزن والقهر، إذ خلت الجريدة من اسم إلياس. قال بوبى متشكيًا ومواسيًا فى الوقت نفسه: ماذا تتوقعون خلاف ذلك؟ من يصحح الكراسات؟ رجل إنجليزى، أليس كذلك؟ فهل تتوقعون أن ينصف الإنجليز إلياس ويهبوه ثمرة جهوده وعبقريته؟! وقعت هذه التساؤلات المأساوية من أذن إلياس موقع النياحة من أذن الميت، لو كان ميت يسمع فختم على شفتيه بخاتم الصمت ولم ينطق بكلمة واحدة.

قال هات، وقد اختنق صوته بالبكاء: «إنه فعل شائن يجب أن يندى من أجله جبين البشرية خزيًا. فلو كانوا يعلمون ما يقاسيه من شظف العيش والهوان وأفانين العذاب لسارعوا إلى إنجاحه بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة».

قال تيتس هويت مخاطبًا إلياس: «لا تحزن ولا تيأس. فروما لم تشيد فى يوم واحد. وسوف يشهد العام الحالى تحسنًا هائلاً فى الظروف والأحوال. وسوف نبرهن لهؤلاء الإنجليز على جدارتنا بالتفوق على نحو يعز عليهم تصديقه».

هجرنا إلياس وذهب للعيش مع تيتس هويت، لم نكن نراه إلا فى المناسبات، إذ كان غائصًا فى العمل حتى قمة رأسه.

فى أحد أيام شهر مارس التالى، وقفت أمامنا سيارة بحذاء الطوار وهبط تيتس هويت، وبادرنا متسائلاً: هل سمعتم بما حدث؟ تساءل هات بدوره: ماذا حدث؟ فأجاب تيتس هويت وهو من الانفعال فى غاية: إن الصبى مثال فذ فى العبقرية والنبوغ. فسأله أرول: أى صبى؟.

فرد قائلاً: إلياس.

- وماذا فعل إلياس؟

- لقد جاز امتحان شهادة الثانوية المؤهلة لدخول جامعة كمبردج.

صفر هات بفمه وردد اسم الشهادة مستوهبًا توكيده كى يطمئن قلبه، فأجاب تيتس هويت، وقد رفت على شفتيه ابتسامة: «نعم لقد حصل على المرتبة الثالثة لهذه الشهادة، وسوف يظهر اسمه فى الصحف غدًا. طالما رددت، وهأنا أردد الآن، إن عقل هذا الصبى إلياس يفيض بالعبقرية».

قال هات فيما بعد: «ما يحز فى نفسى هو أن جورج لم يعش حتى يشهد هذا الحدث، أننى أقر بأنه إنسان تافه عديم الحيلة ولكنه كان يريد أن يرى ابنه رجلاً متعلمًا.

فى مساء ذلك اليوم قدم إلياس إلى مجلسنا فوق الطوار، وتجمع حوله جمهرة من رجال الشارع وأطفاله الذين تطرقوا فى حديثهم إلى جميع الموضوعات عدا الكتب، كما أن إلياس أيضًا تحدث عن أشياء مثل السينما والفتيات والكريكيت، إلا أنه علاه وجوم ولاح فى وجهه سهوم.

وعندما انقطعت الأصوات هنيهة وغشينا صمت شامل، تساءل هات: ماذا ستفعل الآن يا إلياس؟ هل سوف تبحث عن عمل؟

بصق إلياس كعادته قبل الشروع فى الحديث وأجاب: كلا أعتقد أننى سوف أتقدم للامتحان مرة ثانية.

ابتدرته متسائلاً: لماذا؟

- أريد أن أحوز الشهادة مع المرتبة الثانية.

تفهمنا الأمر فقد كان يحترق توقًا إلى أن يصبح طبيبًا.

اقتعد إلياس الطوار، وواصل قائلاً: نعم يا فتى إننى أنتوى التقدم للامتحان مرة ثانية، إلا أن إجاباتى على الأسئلة هذا العام سوف تبلغ من الدقة والبراعة حدًا يجعل السيد كمبردج وزملاءه يصيحون إعجابًا وقد لفهم ذهول شامل، عندما يطالعون هذه الإجابات.

لذنا بالصمت وقد هزنا الفخار والإكبار، واصل إلياس متشكيًا: إن اللغة الإنجليزية والأدب هما المادتان اللتان قصمتا ظهرى وحالا بينى وبين تحقيق هدفى».

لم أسمع فى حياتى كلمة تفوق كلمة «أدب» (ليترتشر) كما ينطقها جمالاً وسحرًا، إذ أن وقعها فى الأذن يشبه مذاق الشيكولاتة فى الفم.

قال هات: هل تعنى بهذا أنك مضطر إلى قراءة الكثير من الأشعار وما شابه؟.

هز إلياس رأسه علامة الإيجاب. شعرنا بفداحة الظلم الذى يعانى منه صبى مثل «إلياس» عندما تضطره الظروف إلى دراسة الأدب وحفظ الأشعار.

انتقل إلياس للعيش فى المنزل الوردى الذى ظل خاليًا منذ وفاة أبيه، كان إلياس أثناء هذه الفترة يجمع بين العمل والدراسة، وعندما عاد إلى مدرسة «تيتس هويت»، لم يعد إليها بصفته تلميذًا بل مدرسًا، سمعت تيتس هويت يقول إنه يعطيه راتبًا قدره أربعون دولارًا فى الشهر، وأضاف إنه يستحق هذا الراتب، فهو من أنجب الصبية فى «بورت أوف سبين».

وبعودة إلياس إلى منزله، ومعاودة اندماجه معنا، أتيحت لنا فرصة أفضل لمعرفة صفاته النادرة، كان أكثر الصبية فى الشارع اعتناء بالنظافة الشخصية، كان يستحم وينظف أسنانه مرتين كل يوم، كان يقوم بهذه المهام وهو يقف أمام الصنبور المركب فى جدار

عند مدخل داره. كما كان يكنس منزله كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، كان صورة مناقضة لوالده فى كل شىء. إذ أن والده كان قصير القامة. بدينًا لحد الإفراط، لا يستحم إلا فى المواسم وتغشى وجهه وبشرته دومًا طبقة غليظة من غبار وقذارة، أما إلياس فكان طويل القامة، نحيل الجسم، مهجوس بالنظافة الشخصية. كان والده شريبًا سكيرًا. وكان يهدر بأقذع أنواع الشتائم، أما الابن فلم يتعاط الخمر قط، كما لم يكن فاحش القول بذىء اللسان.

فى ذلك الوقت كانت أمى لا تنى عن الإشادة بمناقب إلياس الشخصية، واعتادت أن تصيح بى بوجه مصفر من الغضب: لماذا لا تنتهج على مثال إلياس؟ ثم تضيف متشكية: «أننى لا أدرى الحكمة وراء ابتلائى بابن مثلك.

وعندما كان هات أو إدوارد يضربان «بويى» و «أرول» كانا يقولان بصوت مختنق بالعبرات: لماذا تضربانا؟ ليس بوسع كل امرئ أن يستمسك بالمثل العليا، ويتحرى الكمال فى كل شىء مثل إلياس. أليس كذلك؟.

كما كان هات مثل أمى لا ينى عن الإشادة به كمثال مجسم لخير الفضائل: «إن الأمر لا يقتصر على تمتعه بالذكاء الحاد إذ أنه يحظى أيضًا بالسلوك القويم والعادات بالغة التهذيب».

على ضوء هذه المواقف يمكنك أن تفسر الشعور الغامر بالسعادة والارتياح الذى شاع فى صدرى عندما علمت بسقوطه فى الامتحان للمرة الثالثة، علق هات متشكيًا والتعاسة تهصر قلبه: ها هم الإنجليز قد أسفروا عن وجوههم، وكشفوا عن خبيئة طبيعتهم الشريرة. لا يمكن أن يدعى أى امرئ أن الصبى قد رسب فى الامتحان حقًا، لكن هل يمكن أن يصدق أحد أن الإنجليز يرغبون حقًا فى إعطائه درجة أفضل مما حصل عليها فى المرة الثانية؟

ردد الجميع كما لو كانوا يأمنون على قوله: إن ميزان العدالة قد اختل، وضاعت القيم أدراج الرياح.

وعندما سأل هات إلياس: ماذا تنتوى أن تفعل الآن؟

أجاب إلياس: «سوف أعمل فى إحدى الوظائف فى الحكومة، أعتقد أننى سوف أعمل مفتش صحة».

تمثل لعين مخيلتى صورته وهو ينتقل من منزل إلى آخر فى لباسه الرسمى كاكى اللون، تعلوه قبعة من الفلين ذات لون كاكى أيضًا، قابضًا بيده على دفتر صغير، أفقت على صوته وهو يردد بعزم، وقد ارتفعت حرارة حماسه لدرجة الغليان: نعم مفتش صحة هى الوظيفة التى عقدت العزم على الفوز بها وليس هناك قوة على الأرض يمكن أن تزحزحنى عن إصرارى قيد حبة رمل.

قال هات والبشر يطفر من وجهه: إننى أعتقد أن هذه الوظيفة تفتح أبواب رزق واسعة والقائم عليها سعيد الحظ لا سراء كمن عثر على كنز. لقد تناهى إلى سمعى أن والدك جورج اعتاد أن يدس فى يد مفتش الصحة خمسة دولارات كل شهر على سبيل الرشوة كى يختم على شفتيه بخاتم الصمت فلا ينطق بكلمة واحدة، فلنقل جدلاً إن عشرة أشخاص أو حتى ثمانية مثل والدك سيعهد إليك بالمرور عليهم كل شهر... فيكون المجموع... دعنى أحسب... عشرة أشخاص كل منهم ينفحك خمسة دولارات فيكون المجموع خمسين دولارًا، أما إذا كان هناك ثمانية يغمزك كل منهم بخمسة دولارات، فيكون المجموع أربعين دولارًا، فكما ترى سوف تحصل على أربعين أو خمسين دولارًا كل شهر، وأحب أن ألفت نظرك إلى أن هذا المبلغ يّعد بمثابة هبة شهرية تضاف إلى راتبك.

قال إلياس وهو يلوى شفتيه امتعاضًا: «إن النقود ليست هدفى؛ إننى أحب حقًا هذا النوع من العمل».

كان من السهل علينا تفهم دوافعه.

أضاف إلياس قائلاً: «لكن هذه الوظيفة تتطلب التقدم لامتحان» قال هات متسائلاً: لكنهم لا يرسلون أوراق الإجابات إلى إنجلترا لتصحيحها، أليس كذلك؟.

أجاب إلياس: بلى. بيد أن قلبى يتقبض خوفًا من الامتحانات، كما أننى لم أصادف حظًا طيبًا فى أى منها كما تعلم.

قال بويى وقد ارتسمت الدهشة على أساريره: «ولكنك - حسب اعتقادى - كنت تفكر فى ممارسة مهنة الطب».

هب هات للنجدة فقال وهو يتنهد بغيظ دفين: إن شيئًا لن يحول بينى وبين إجراء عملية إخصاء لك لو لم تكف عن مثل هذا الهذر.

بيد أن بويى لم يكن يقصد السخرية من إلياس.

قال إلياس موضحًا موقفه: «بعد أن تدبرت أمرى بعين الحكمة، قر منى العزم على أن أكون مفتش صحة، فهى مهنة جديرة بان أكرس لها بقية عمرى، وسوف أجد فيها قرة عينى دون شك».

تقدم إلياس لامتحان المفتشين الصحيين لثلاث سنوات على التعاقب، ولم يظفر ببغيته، إذ باء بمرارة الخيبة فى كل مرة.

قال إلياس وقد اعتلج بصدره الألم والحسرة، وبدت له الحياة متلفعة بثوب حداد: «لكن ماذا تتوقع خلاف ذلك فى بلد مثل ترينداد حيث تجد نفسك مضطرًا إلى أن تنفح كل من تقابله رشوة إذا أردت أن تقلم ظفرًا من أظافر قدميك».

قال هات ناصحًا: لقد قابلت رجلاً قادمًا على إحدى المراكب منذ حوالى يومين، وأخبرنى أن امتحانات المفتشين الصحيين فى مستعمرة جويانا البريطانية أسهل بكثير منها هنا. ولذا فبوسعك أن تذهب إلى هذه المستعمرة، وتقدم للامتحان هناك ثم تعود وتمارس عملك هنا.

طار إلياس إلى مستعمرة جويانا. وأودع الامتحان محفوظاته، ثم رسب وعاد وقد ركبته حالة تعسة من القهر.

محضه هات النصيحة للمرة الثانية: «لقد قابلت رجلاً من مواطنى باربادوس، وأخبرنى أن الامتحانات فى غاية السهولة هناك. لقد قال لى حرفيًا: إن الامتحانات هناك من السهولة لدرجة تعز على التصديق».

طار إلياس إلى الباربادوس، واستعرض معلوماته باستفاضة فى كراسات الإجابة، ثم عاد متعثرًا بالخيبة بعد أن هام فى واديها طويلاً تظله سحابة من الغم والنكد.

لم يبخل عليه هات بالنصيحة هذه المرة أيضًا: لقد قابلت رجلاً من جرينادا منذ أيام قلائل..» قاطعه إلياس صائحًا وهو يشعر بغمز الألم فى قلبه: «اخرس ياهات.. وإلا سوف تنشب بيننا خناقة حامية، تزلزل أركان الشارع، وتجعل منك عبرة لكل معتبر».

بعد ذلك بسنوات قلائل تقدمت لامتحان شهادة الثانوية المؤهلة لدخول جامعة كمبردج ومنحنى «السيد كمبردج» شهادة النجاح مع المرتبة الثانية ثم تقدمت بطلب استخدام للعمل فى الجمرك، وحصلت على وظيفة به دون أن يكلفنى ذلك مالاً كثيرًا فوجدتنى متسربلاً بزى رسمى ذى لون كاكى وأزرار نحاسية لامعة، وقبعة، كان هذا الزى يشبه إلى حد كبير الزى الرسمى الذى يرتديه مفتشو الصحة.

وعندما خرجت أول مرة إلى الشارع فى هذا الزى، لم يستطع إلياس أن يتمالك أعصابه بعد أن أطاح الغضب برأسه، وكور قبضته مهددًا، وهو يصر على أسنانه بحنق، صاح وهو يزفر من الغيظ: «ماذا ارتكبت أمك من آثام كى توفر لك هذا الزى»، هممت بالانقضاض عليه لأمسك بتلابيبه، ولكن أدوس حال بيننا.

قال أدوس مبررًا سلوكه: لقد تجهم له وجه الدنيا، كما أن قلبه يشتعل بنار الغيرة، فلا تغلظ له القول، وترفق به.

ذلك لأن إلياس كان قد أصبح واحدًا من أرستقراطى الشارع لقيادته عربات جمع القمامة. اعتاد إلياس أن يقول بتواضع ودون تفلسف: ليس هناك ثمة مبرر نظرى لامتهانى هذا العمل الذى ينبع فى حقيقة الأمر من موقف عملى براجماتى يتجسد فى إحساسى الصادق بالحب له، والهيام بأدائه.

(٥)

مان . مان

كان جميع سكان شارع ميجل يرمون مان . مان بالجنون، ولذا كانوا يتحاشونه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. إلا إننى عندما ترجع بى الذاكرة القهقرى يتبين لى عجزى عن تلمس دلائل قاطعة على جنونه، كما أننى عندما أعمل ذاكرتى يتمثل لعينى صور أسباب التعارف كانت تصلنى بهم رجال كثر يفوقون مان . مان اضطراب ذهن ووفرة حظ من الخبل.

وفضلا عن ذلك فإن ملامحه لم تكن تشى بخلل عقلى أو اضطراب فى التفكير ؛ كان متوسط القامة، ذا عود نحيل، كما كان لا يخلو من براعة فى القسمات، وامتشاق قوام، كما أننى لم أضبطه قط وهو يحملق فى وجوه الناس، مثلما نتوقع من شخص لا يخلو جهازه العصبى من خلل. ناهيك عن أنه عندما كان أى أمرئ يبادله الحديث كان واثقًا من أنه سوف يظفر باجابة لا تخلو من منطق، بيد أن سلوكه لم يكن يخلو من شذوذ.

كان يتقدم لترشيح نفسه فى جميع الانتخابات سواء لاختيار أعضاء مجلس المدينة أو المجلس التشريعى، ثم ينشط للصق الإعلانات بالجدران فى جميع أرجاء الحى، خلت هذه الملصقات التى اتسمت بجودة الطباعة من العبارات المألوفة التى تحرض الناخبين على اختيار مرشح معين، إذ لم تتضمن سوى صورة فوتوغرافية لمان - مان تعلوها كلمة واحدة «انتخبوه».

وفى كل انتخاب رشح نفسه له، لم يكن يفوز سوى بثلاثة أصوات على وجه الدقة، مما شكل تساؤلا دوختنى الحيرة دون الجواب عنه. فإذا كان مان - مان - بطبيعة الحال - ينتخب نفسه، فمن هما الاثنان الآخران اللذان يصران على انتخابه فى كل مرة؟.

وعندما حاولت تلمس إجابة عند هات، أجاب قائلاً: إننى لا أدرى حقًا يا بنى،. فهذا لغز يحار الفهم إزاءه ربما ينتخبانه على سبيل التهريج، بيد أننا نعجب لهذين المهرجين عندما يصران على انتخابه كل مرة مما يثير الشبهات حول صحتهما العقلية، ويؤكد المشابهة الوثيقة بينهما وبين مان - مان فى مضمار الخلل العقلى، والاضطراب العصبى.

ظل لغز هذين الرجلين هاجسًا يسيطر على عقلى لفترة طويلة، وكنت كلما رأيت أحد الأشخاص يسلك سلوكًا ينم عن أقل قدر من الشذوذ ومجافاة المألوف، كنت أتساءل بينى وبين نفسى: هل هو أحد الرجلين

اللذين ينتخبان مان ـ مان كل مرة بإصرار وإيمان لا يتزعزع؟.

عجبت لشأن هذين الرجلين اللذين تسربلا بالغموض الكثيف مطلقى السراح فى شوارع المدينة ولا يفترقان فى هيئتهما عن الرجال الذين أخذوا حظهم من العقل.

لم يرتزق مان ـ مان من عمل قط، وإن كان دومًا يجد ما يشغل به وقته، إذ شغف بالكلمة أيما شغف خاصة الكلمة المكتوبة وعجز عن الانفكاك من سحر هيئة الحروف من انحناءات واستدارة... إلخ ولذا كنت تجده ينفق يومًا بأكمله فى خط كلمة واحدة على أديم الشارع.

ذات يوم قابلت مان ـ مان عند منعطف شارع ميجل ، بادرنى متسائلاً: أين تذهب يا غلام؟ فأجبت: المدرسة، فقال وهو يرمقنى بنظرة ساخرة منتقدة: أنت تذهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟ فأجبت «بلى. فأنا تلميذ أذهب إلى المدرسة.» ندت عنى على نحو تلقائى، واكتشفت أننى كنت أحاكى دون وعى لهجة مان ـ مان الفصيحة التى تشى بافتتانه باللغة الإنجليزية.

كانت اللهجة التى يتحدث بها مان ـ مان لغزًا آخر. فلو أغمضت عينيك أثناء حديثه لخيل اليك أن من يتحدث إليك رجل إنجليزى من طبقة رفيعة فى المجتمع، وإن كان لا يولى اهتمامًا كبيرًا بقواعد اللغة.

غمغم مان ـ مان كأنما يهامس نفسه: «إذًا فالشاب الصغير يولى وجهه شطر المدرسة». ثم نسينى تمامًا، رأيته يدس يده فى جيبه ويخرج إصبعًا طويلاً من الطباشير جعل يخط به حروفًا على أديم الطوار، رسم حرف sضخمًا مجوفًا ثم شرع فى ملء الفراغات فى أناة وعلى مهل، ثم انتقل إلى حرف C، تبعه بحرف H ثم O، إلا أنه خط عدة أشكال من حرف O كل منها يقل عن سابقه فى الحجم، حتى انتهى به الأمر إلى رسم حروف O متشابكة ومتداخلة.

وعندماعدت إلى المنزل لتناول طعام الغداء كان قد بلغ شارع فرنش وكان لا يزال يخط حروف O، وإن كان يرتكب أخطاء من حين إلى آخر، سرعان ما كان بمحوها بخرقة من القماش زود بها نفسه خصيصًا لهذا الغرض.

ومع حلول فترة بعد الظهيرة كان قد عاد ثانية إلى شارع ميجل بعد أن قطع الشارع كله وهو يخط حروفه على أديم الطوار، ثم مال إلى الشارع الذى يقطعه، وواصل زحفه حتى عاد أدراجه إلى شارع ميجل.

بعد أن عدت إلى منزلى وخلعت زى المدرسة وارتديت ملابس المنزل خرجت إلى الشارع، ورأيت مان ـ مان وقد بلغ منتصف شارع ميجل، خاطبنى قائلا: إذًا الشاب الصغير قد ذهب إلى المدرسة صباح هذا اليوم، أمنت على قوله، انتفض قائمًا، وقد

تصلب جسمه كالجندى أثناء عرض عسكرى، ثم أقعى ثانية على الأرض ورسم حرف L ضخمًا مجوفًا ثم شرع فى ملء الفراغات على مهل ، وقلبه يندى بالحنان والعطف، وعندما انتهى من مهمته نهض قائمًا وخاطبنى قائلاً: أنت انهيت عملك. وأنا فرغت من عملى» هذا دأبه وديدنه، فعندما كان يخبره شخص ما بأنه يعتزم الذهاب لمشاهدة مباراة فى لعبة الكريكيت، كان يكتب Crick ثم يركز على حرف E لا يفرغ من تجويده وتحسينه وينتقل إلى حرف T حتى يراه عائدًا ويطمئن قلبه.

دلف مان ـ مان ذات يوم إلى القهوة الكبيرة القائمة فى نهاية شارع ميجل، وجعل ينبح ويزمجر كما لو كان كلبًا مسعورًا فى وجوه الزبائن المطمئنين فى جلستهم على مقاعد القهوة التقليدية المستديرة التى تخلو من ظهور. زعق صاحب القهوة، وهو رجل برتغالى ضخم الرأس والوجه، غليظ القسمات، بدين لحد الإفراط، ويغطى ظاهر يديه شعر كثيف، زعق فى وجه مان ـ مان قائلاً : غر فى داهية»! وإلا سويت بك الأرض ببصقة واحدة، كان رد الفعل الوحيد أن غرق مان ـ مان فى الضحك حتى دمعت عيناه. نهض رواد المقهى من مقاعدهم وقذفوا مان ـ مان فى الشارع.

فى اليوم التالى اكتشف صاحب القهوة تسلل أحد الأشخاص إلى داخلها أثناء الليل، ومغادرته إياها بعد أن ترك جميع الأبواب مفتوحة ودون أن يسرق شيئًا.

قال هات معلقًا على هذا الحادث: «يجب أن تحذر دومًا الإساءة إلى مان ـ مان، فالإساءة تلزق بذاكرته لا تتزحزح»

تكرر نفس الحادث فى تلك الليلة، إذ اقتحم شخص مجهول القهوة، وغادرها بعد أن ترك الأبواب مفتوحة.

أما فى الليلة الثالثة فقد خلف وراءه كتذكار قطعًا صغيرة من الغائط فى منتصف كل مقعد ومنضدة، وعلى مسافات منتظمة على طول النضد الرخامى الطويل.

أصبح صاحب القهوة نادرة تلوكها الألسن لأسابيع طوال لم ين أهل الشارع أثناءها عن تناوله بألسنة الهزء والسخرية، كما أحجموا لفترة طويلة بعد هذا الحادث عن ارتياد هذا المقهى.

قال هات: «ها هى الأحداث تثبت صدق رأيى يا فتى. إننى أحاول تجنبه قدر الاستطاعة، فمثل هؤلاء الأشخاص تنضح أنفسهم بالخبث واللؤم والكراهية، وتنز قلوبهم مقتًا، هكذا خلقهم اللّه لحكمة تجل عن الأفهام».

مثل هذه الأفعال كانت تجعل الناس تتجنبه وتتحامى من الحديث إليه أو مصادقته، ولذا لم يكن له من صديق سوى كلب مهجن رقيق الجسم أبيض اللون، يمتاز بأذنين مزركشتين ببقع سوداء، كان بين مان ـ مان وكلبه قدر من المشابهة لا تخطئه عين أو

يغفل عنه شعور. كان ـ مثل سيده ـ يتسم بشذوذ فى السلوك والطبائع، فلم يكن لينبح حتى لو كان هناك داع لذلك، ولم يكن ينظر إلى أحد، وعندما كان يلمح بطرف عينه امرأ يعاطيه نظرات ود واهتمام كان يشيح عنه بوجهه. كما لم يصادق قط كلبًا من بنى جنسه، وإذا استشعر أن ثمة كلبًا يسعى إلى التودد إليه أو إبداء العداوة والخصام له، فإن وجهه كان يتقلص فى تقزز ونفور، ويمط بوزه ممتعضًا، ويرميه بنظرة تنز احتقارًا واستهانة ثم يمضى فى سبيله دون أن ينظر وراءه.

كان مان ـ مان يحب كلبه ملء فؤاده، كما كان الكلب يهيم بصاحبه هيامًا. كان كل منهما يكاشف الآخر بما فى نفسه، كان يخيل إليك أنهما توءمان يعجز المرء عن تخيل انفصال أحدهما عن الآخر. كما أن مان ـ مان كان سيضطر إلى التسول ليقيم الرمق لولا كلبه الأمين، كما كان ينسرب إلى نفسك إحساس مبهم بأن مان ـ مان يحظى بقدر كبير من السيطرة على حركة الأمعاء داخل جسد كلبه العزيز، فبوسعه أن يحملها على الإذعان لمشيئته كلما وجد فى ذلك نفعًا أو فائدة.

علق هات قائلا: إن عقلى يقف عاجزًا أمام هذه الظاهرة، فهى بمثابة لغز يحير الألباب والعقول.

وتكشفت التجليات الأولى لهذه الظاهرة فى شارع ميجل.

ففى صباح أحد الأيام فوجئت عدة نساء عند استيقاظهن بتلوث قطع الملابس، التى نشروها طوال الليل كى تبيض بعد معالجتها كيميائيًا، بمخلفات أحد الكلاب، لم ترغب أى من هاتيك النسوة فى استخدام تلك الملاءات والقمصان الملوثة، ولذا عندما قدم إليهن مان ـ مان لاستطلاع الأمر، أعطته كل منهن الملابس الملوثة عن طيب خاطر ـ كان مان ـ مان يتعيش من بيع هذه الملابس.

قال لى هات: «إن مثل هذه الحيل التى يتفتق عنها ذهنه تجعلنى أتساءل عما إذا كان يعانى حقا الخرف والجنون.

وسع مان ـ مان من دائرة نشاطه الذى لم يعد مقصورًا على شارع ميجل، وكان الناس الذين عانوا من مخلفات كلب مان ـ مان يموتون شوقًا إلى رؤية الآخرين يتجرعون مثلهم كأس الألم والقهر حتى ثمالتها.

أما أنا وبقية الأولاد فى شارع ميجل فقد كنا نرمقه بعين الإكبار والإعجاب، إننى لا أعلم حقًا الأسباب وراء انغماسه على نحو فجائى فى حياة التقوى والصلاح بحرارة صادقة، ربما كان مصرع كلبه تحت عجلات سيارة أحد هذه الأسباب. وقد وصف هات مصرعه قائلاً إنه لم يطلق سوى صيحة واحدة قصيرة ثم غاص فى صمت اللامبالاة.

ظل مان ـ مان لعدة أيام متتالية يخبط فى الشوارع على غير هدى وقد ارتسم الذهول على وجهه، وتولاه الارتباك واضطربت حواسه أيما اضطراب.

ولم يعد يخط كلمات على أديم الطوار، أو ينازعنى الحديث كما كان يفعل أحيانا، كما كف عن محادثة الصبية الآخرين فى الشارع، ثم فوجئنا به ينكب على محادثة نفسه، شابكًا أصابع يديه، وقد سرت فى بدنه رعدة كما لو كان مصابًا بحمى الملاريا.

ذات يوم قال لنا إنه بعد أن أخذ حمامًا، وبينما كان يرقب غروب الشمس رأى نورًا يومض فى السماء، فآمن بأنه قديس.

لم يقع هذا القول من آذاننا موقع الدهشة والإنكار، فمثل هذه الرؤى كانت جد شائعة فى «بورت أوف سبين» وترينداد فى تلك الفترة.

إذ كان المعلم والمرشد الروحى «جانش بنديت» الذى كان يعيش فى «قونتيه جروف» أول من شاهد هذه الرؤى وسجل ما شاهده فى كتيب صغير، وأعلن أيضا الكثير من الصوفيين المنافسين لجانش بنديت وعدد لا بأس به من المرشدين الروحيين رؤيتهم هذا النور البهيج، ولذا فإننى أفترض أن رؤية مان ـ مان لهذا الوميض أمر طبيعى حيث اعتادت السماء أن تومض فى هذه البقعة من الأرض عندما ينشر الليل جناحيه.

شرع مان ـ مان فى إلقاء مواعظه مساء السبت من كل أسبوع تحت المظلة التى كانت تعلو مدخل محل مارى على ناصية شارع ميجل. كما أرسل لحيته وارتدى جلبابًا أبيض طويلا، كان يقف تحت مصباح الإستيلين مغمورًا بضوئه الأبيض وقد تحلقت حوله هالة مبهمة من القداسة يعظ الناس قابضًا بإحدى يديه على الإنجيل، وممسكًا باليد الأخرى أدوات وأشياء تنفث أريج القداسة، فتنداح فى الجو موجة من الأسرار الخارقة، كان ينتهج أسلوبًا غريبًا فى الوعظ وإن كان ذا أثر هائل على الحاضرين. فكانت النساء تنتحبن انتحابًا متواصلاً حتى تنفطر قلوبهن من البكاء، أما الرجال من شاكلة هات فكانت نفوسهم تفيض بالقلق والاضطراب والتوتر.

كان من عادته أن يمسك الإنجيل بيده اليمنى، ويقول فى لهجة إنجليزية تصل إلى حد الكمال وهو يربت براحة يده اليسرى عليه برفق بالغ: «لقد كنت متصلاً بالوحى طوال الأيام القلائل الماضية، أوحى إلى أثناءها أن مصيركم لايبشر بخير، ففى هذه الأيام تسمعون جميع السياسيين يتحدثون عن سبل تحقيق الاكتفاء الذاتى للجزيرة، هل تعلمون بماذا أوحى إلى ليلة أمس؟ أعنى فى الليلة نفسها بعد أن فرغت من تناول الطعام، رأيت الزوج يأكل زوجته، والزوجة تزدرد زوجها؛ رأيت الأب يأكل ابنه، والأم تأكل ابنتها، والأخ يأكل أخته، والأخت تأكل أخاها. هذا هو ما يعنيه رجال السياسة فى بلادنا بقولهم إن الجزيرة سوف

تحقق مجتمع الكفاية إلا أننى أعتقد يا إخوتى فى الإيمان أن الفرصة لاتزال متاحة للعودة إلى حظيرة الإيمان.

اعتادت الكوابيس مهاجمتى كل ليلة سبت بعد سماع موعظة مان - مان، بيد أن الغريب فى الأمر أن الرعب الذى كان يقذفه فى قلوب المستمعين لم يجعلهم يتفرقون بسرعة - كما هو متوقع - كالحمام فى أعقاب طلقة ، بل زادهم إصرارًا على المواظبة على الحضور لسماع مواعظه بهمة لايعتريها الكلال. كما أنهم عندما كانوا يدعون إلى التبرع كانوا يمنحونه من أموالهم بسخاء منقطع النظير.

كان يطيب له أن يخبط فى الشوارع على غير هدى طوال أيام الأسبوع، عدا يوم السبت، فى ردائه الأبيض الفضفاض يتسول الطعام.

وقال إنه اتبع أوامر السيد المسيح عليه السلام، ونزل للفقراء والمساكين عن ممتلكاته فى هذه الدنيا الفانية، لم يكن بوسع أى امرئ أن يقبض يده عن هذا الرجل ذى اللحية الطويلة حالكة السواد، ونظرة عينيه الوهاجة، ولم يعد يحس لى بوجود، ولم يعد يسألنى : هل تذهب إلى المدرسة؟.

عجز سكان الشارع عن تفسير ما طرأ عليه من تغيير، ولكنهم كانوا ينشدون راحة البال فى رميه بالجنون، بيد أننى كنت أعتقد أنهم كانوا غير واثقين مثلى أن مان - مان لايخلو جهازه العصبى من خلل.

ما حدث بعد ذلك لم يكن فى الحقيقة أمرًا مستبعدًا، فقد أعلن مان ـ مان على الملأ أنه مسيح جديد.

بعد ذلك ابتدرنا هات ذات يوم قائلاً: ألم تسمعوا آخر خبر؟

تساءلنا: ماذا؟

ـ خبر يتعلق بمان ـ مان، فهو يقول إنه سيصلب فى يوم من الأيام.

قال إدوارد: إن أحدًا لايسعه أن يوقع به أذى، فجميع الناس يخشونه الآن.

قال هات موضحًا: لقد أسأت فهم قوله؛ فهو سيصلب نفسه، سيولى وجهه شطر «بلوبيسن» ذات يوم جمعة، ويشد وثاقه إلى صليب ويدعو الناس إلى رجمه بالحجارة.

ندت عن أحدنا ضحكة خفيفة ـ أظن أنه أرول ـ ولكنه عندما لم يجد لضحكته صدى فى نفوس من حوله تلفع بالصمت فى خزى .

غمرتنا موجة من الفخر والمباهاة بانتساب مان ـ مان إلى شارع ميجل فشاع فى الصدور شعور غامر بالسعادة أطاح بهواجس القلق ومحا جميع صيغ الدهشة التى كانت تعكسها عيوننا.

ألصقت إعلانات صغيرة مكتوبة بخط اليد بجدران الحوانيت والمقاهى وبالأبواب الخارجية لبعض المنازل مبشرة بصلب مان - مان الوشيك.

أعلن هات فى سعادة طفولية «سوف يغمر بلوبيسن» موجات من المشاهدين كالفيضان العارم، ثم أضاف وقد خالط فؤاده شعور بالسرور والخيلاء: كما نما إلى علمى عزمهم على إرسال بعض أفراد من رجال الشرطة للمحافظة على الأمان والنظام».

وفور أن انقشع ظلام الليل، وشعشع أول ضوء للنهار، معلناً بداية هذا اليوم الموعود، وقبل أن تفتح الحوانيت أبوابها، وتجرى باصات التروللى فوق أديم شارع أريابيتا، اجتمع حشد هائل من الخلق عند ناصية شارع ميجل، كان من بينهم رجال كثيرون متشحون بالسواد، وعدد أكبر من النساء يرفلن فى الثياب البيضاء، وكانوا يترنمون بالتراتيل الدينية. أحاط بهذا الحشد حوالى عشرون رجل شرطة لم يشاركوهم الغناء.

وعندما هل عليهم مان - مان بعوده النحيل ، وهالة القداسة المبهمة التى تتحلق حوله، علت أصوات النساء بالصراخ والعويل، وهن يتدافعن نحوه للارتماء عليه ولمس ردائه التماساً للبركة، وقف رجال الشرطة على تمام اليقظة والاستعداد لمواجهة أى طارئ .

جاءت شاحنة تحمل صليبًا خشبيًا ضخمًا.

وقف هات فى بدلة من الصوف المتين يراقب ما يجرى بعين تطفح بالأسى والحزن «لقد أخبرونى أن الصليب مصنوع من خشب «الأبلكاش» فهو ليس ثقيلاً، بل بالغ الخفة».

قال إدوارد بصوت كالرصاص برودة وحدة: عجبًا لك! إن ما يهم هو روح التضحية والفداء التى تتوثب بها لأداء المهمة المقدسة.

قال هات وقد اعتور نبرات صوته التوتر العصبى: إننى لم أقصد الاستخفاف بعظمة هذه المناسبة المقدسة الجليلة.

شرع بعض الرجال فى إنزال الصليب من الشاحنة كى يسلموه إلى مان ـ مان، لكنه منعهم قائلا، بلهجته الإنجليزية الفصيحة التى زاد من تأثيرها على نفوس الجموع الحاشدة الحزينة الواجمة مصافحتها الآذان فى جو الصباح الباكر «ليس هنا فلنرجئ إنزال الصليب حتى نصل إلى بلوبيسن».

دفن هات حسرته فى أعماقه، وغص بخيبة أمل ترابية، قطعنا الطريق إلى «بلوبيسن» مشيًا على الأقدام فى ساعتين و«بلوبيسن» هو اسم موضع حوض لأحد المساقط المائية فى الجبال الواقعة فى شمال غرب «بورت أوف سبين». أنزل الصليب من الشاحنة، وحمله مان ـ مان، وشرع يرقى فى طريق جبلى شق وسط الصخور الوعرة حتى بلغ هامته، ثم طفق يهبط فى اتجاه الحوض المائى.

نصب عدد من الرجال الصليب وشدوا وثاق مان - مان إليه.

صاح مان - مان وقد توهج فؤاده بحماس صادق «ارجمونى يا إخوة الإيمان».

جعلت النساء تنشجن باكيات، وكبشن كبشات من الرمل والحصى وقذفن بها عند موضع قدميه.

وجعل مان - مان يئن بشكوى مكتومة. ثم غمغم بالدعاء، «اغفر لهم يا إلهى فإنهم لايعلمون. ولايدركون خطأ ما يصنعون»، ثم صرخ بأعلى حنجرته «ارجمونى يا إخوة الإيمان».

قُذف بحجر فى حجم بيضة أصابه فى صدره.

لم يكف مان - مان عن الصياح «ارجمونى... ارجمونى! يا إخوة الإيمان. إننى أغفر لكم ما تصنعون».

قال إدوارد: «إنه رجل شجاع، يعمر قلبه الإيمان.»

شرع الناس فى قذفه بالحجارة الضخمة فى وجهه وصدره.

اكتسى وجه مان - مان بالجزع والألم، وارتسمت الدهشة على أساريره، وصاح بوجه مصفر من الغضب: «ما الذى تفعلون بحق الجحيم، هيا! سارعوا إلى إنزالى حتى أقتص لنفسى من أبناء الأنذال الذين أمطرونى وابلاً من حجارة، أقسم بشرفى إننى سوف أعجنهم حتى لايعرف لهم رءوس من أقدام».

خيل إلينا من الموضع الذى كنا نحتشد فيه أنا وإدوارد وهات وبقية الرفاق من شارع ميجل لمشاهدة هذا الحدث الفريد أن الصيحة التى فرت من فيه كانت تنز ألمًا ومقتًا.

قذف مان - مان بحجر فاق سابقيه ضخامة، أما النساء فقد جعلن يقذفنه بالرمال والحصى فى وجهه.

صاح مان - مان بأعلى حنجرته بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس فى الحجر: «فلننفض أيدينا من هذا العبث، إنى لن أستمر، وأود أن أنسحب، ثم انهمر من لسانه سيل من اللعنات، وانهال على راجميه سبًا هادرًا بأقذع الشتائم، فتوقف راجموه وقد علت وجوههم أمارات الدهشة والذهول.

ألقت الشرطة القبض على مان - مان وساقوه من قفاه إلى القسم، ثم أحالته سلطات التحقيق إلى المستشفى للتحقق من صحة قواه العقلية، فصدر قرار بإيداعه المستشفى مدى الحياة.

* * *

(٦)

ب. وردز ورث

ثمة ثلاثة شحاذون كانوا يطرقون أبواب المنازل التى تتسم بالكرم وحسن الضيافة فى شارع ميجل فى توقيت دقيق كل يوم، ففى حوالى العاشرة كان يأتى شحاذ هندى يرتدى وزرة قصيرة فى خاصرته وسترة بيضاء، وكنا ندلق ملء علبة صفيح من الأرز فى الجوال الذى كان يحمله على ظهره. وفى الثانية عشرة كانت تهل علينا امرأة عجوز وهى تأخذ أنفاسًا عميقة من غليون من الفخار تزفرها سحائب من الدخان كثيفة، وكنا ننفحها بسنت.

وفى الثانية كان يجىء رجل أعمى يقوده صبى للمطالبة بنصيبه. وكان يطرق بابنا أحيانا أحد المتشردين. فذات يوم جاءنا رجل يشكو الجوع. قدمنا له الطعام. وبعد أن فرغ منه طلب سيجارة وأصر على عدم الذهاب مالم نشعلها له. إلا أن هذا الرجل لم يكرر الزيارة قط.

أما أكثر هؤلاء الزائرين غرابة وشذوذًا فكان رجلاً وفد علينا فى أصيل أحد الأيام فى حوالى الساعة

الرابعة بعد عودتى من المدرسة وارتدائى ملابس البيت. قال بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء: اتسمح لى يا بنى بدخول فناء منزلك؟

كان رجلا قصير القامة، رقيق الجسم، أنيق الملبس والهندام. كان يرتدى قبعة، وقميصا أبيض، وبنطونًا أسود.

سألته: ماذا تريد؟

فأجاب: أن أرقب النحل فى الفناء.

ثمة أربع من أشجار النخيل الصغيرة من فصيلة جرو - جرو كانت مغروسة فى الفناء، ويغص أعلاها بجحافل النحل المتطفل.

وثبت فوق الدرجات بلاحرص صائحًا: ماما ثمة رجل بالخارج، يقول إنه يريد أن يشاهد النحل.

خرجت أمى من المنزل، وشخصت إلى الرجل ببصرها ثم سألته وقد التوت شفتها السفلى فى امتعاض: ماذا تريد؟.

فرد الرجل: أرغب فى مشاهدة النحل.

وقعت لغته الإنجليزية من مسمعى موقع الدهشة والغرابة. إذ كانت من الإتقان فى غاية، ولاحت فى عينى أمى نظرة ارتياب. قالت مجتاحة بدفقة غضب: امكث هنا جنبه وراقبه وهو يشاهد النحل.

فابتدرها الرجل قائلا: أشكر لك يا سيدتى حسن صنيعك فقد عملت خيرًا اليوم.

كان يتحدث بأناة وتؤدة متوخيًا الدقة فى كل ما يند عنه كما لو أن كل كلمة كانت تغرمه ثمنًا باهظًا.

جعلنا نرقب النحل لمدة ساعة تقريبًا وقد تكومنا متقرفصين على كثب من أشجار النخيل.

قال الرجل على سبيل الملاطفة والتودد: إننى أحب مراقبة النحل. هل تستهويك مشاهدتها؟

فقلت: ليس لدى وقت لهذا.

هز رأسه فى أسى ثم قال: إننى أقنع بالمشاهدة فحسب. فبوسعى مراقبة النمل لأيام دون انقطاع. هل حدث أن قمت بمراقبة النمل والعقارب وحشرات أم أربعة وأربعين؟

هززت رأسى بالنفى. ثم سألته: ماذا تعمل يا سيدى؟ نهض بغتة قائلا بفخار صبيانى: إننى شاعر.

فسألته وقد جرفنى حب الاستطلاع: شاعر مجيد؟

فأجاب من فوره: أعظم شاعر فى العالم.

- ما اسمك يا سيدى؟

- ب. وردز ورث.

- هل ترمز الباء لاسم بيل؟

- كلا... بلاك... اسمى بلاك وردز ورث. أما وايت وردز ورث فقد كان اسم أخى. إذ أن كلينا تقاسم نفس

المشاعر والأحاسيس ولذا أجدنى أغرق فى نشيج حار عندما أرقب الزهر يتفتح من أكمامه.

فقلت بصوت لايخلو من رنة الأسف: لماذا تنخرط فى البكاء عندما ترى الأزهار؟

فأجابنى: إن تساؤلك هذا يثير دهشتى يا بنى، ولسوف تعرف الإجابة عندما تكبر. إنك تعرف أنك أيضا شاعر. وعندما تكون شاعرًا مثلى فسوف تحزن لكل شىء حزنًا بالغًا وتبكيه مر البكاء.

تكتمت ضحكة بالعض على باطن شفتى.

ثم واصل متسائلا: هل تحب أمك؟

ـ عندما لاتضربنى.

دس يده فى جيب بنطلونه الخلفى واستخرج ورقة ثم قال: هذه الورقة تحوى أعظم قصيدة نظمت فى الأمهات وسوف أبيعها لك بسعر منخفض يعز على التصديق. أربعة سنتات فقط.

هرعت إلى الداخل صائحًا: ماما هل تودين شراء أشعار بأربعة سنتات؟.

صرخت أمى فى وجهى وقد أخرجها الغضب عن وعيها: قل لهذا الرجل: غر فى داهية ولاترينا وجهك مرة أخرى.

عدت إلى السيد وردز ورث وقلت له بصوت لايخلو من رنة الأسف:

تقول أمى إنها لاتملك أربعة سنتات.

فقال وهو يكابد خيبة أمل: ولذا فإن أى شاعر يبدو مثالا صادقًا لليأس والضياع.

دس القصيدة فى جيبه دون مبالاة.

قلت بعد تردد: أعجب بها من طريقة لبيع الأشعار! كأنك بائع جوال هل يشترى كثير من الناس أشعارك؟

فأجاب وهو يعانى سكرات الخيبة: إن أحدًا لم يشتر نسخة واحدة حتى الآن.

فتساءلت وأنا فى غاية من العجب: فلماذا تسرح بها متوقعا لها سوقا نافقة؟

- لأن ذلك يتيح لى فرصة نادرة لملاحظة أشياء عدة كما أننى آمل دومًا أن أتعرف بالشعراء الذين يستهوينى الاجتماع بهم، وأجد فى الأنس بهم ما يجد التعب المنهوك أسلم جنبه للرقاد.

تساءلت بريق جاف: هل تعتقد حقا أننى شاعر؟

- إنك تنتظم مثلى فى سلك عالم الشعر لؤلؤة منعدمة النظير.

بعد أن غادرنى وردز ورث تضرعت إلى اللّه ألا يحرمنى لقاءه ثانية.

بعد هذا اللقاء بأسبوع فى طريق عودتى من المدرسة عصر ذات يوم لمحته واقفًا عند ناصية شارع ميجل.

قال بارتياح وهو يبتسم مشرقًا: إننى أنتظر مجيئك هنا منذ فترة طويلة.

فسألته هل بعت أى أشعار؟.

هز رأسه سلبًا. ثم قال: بفناء منزلى توجد أفضل شجرة مانجو فى بورت أوف سبين. وهى مثقلة بثمار دانية القطوف تسر الناظرين. وقد أتيت لأدعوك إلى تذوق بعض الثمار.

كان يعيش فى شارع ألبرتو فى كوخ يتكون من حجرة واحدة يتوسط الفناء المترامى حوله، والمتلفع بخضرة يانعة، وينبثق من أديمه شجرة مانجو ضخمة وشجرة جوز هند وشجرة برقوق.

بدا المكان مهجورًا مسربلاً بعزلته الوحشية كما لو كان منقطع الصلة بصخب المدينة من حوله. محاطا بأسوار عالية تحجب المنازل الضخمة فى الشارع عن الأنظار.

كان الرجل محقًا فى إطرائه حلاوة ثماره التى التهمت منها ستة بنهم حتى انساب عصيرها الأصفر خطوطا على ذراعى حتى الكوعين، كما انساب من فمى منحدرًا إلى ذقنى، وانداحت البقع فوق قميصى.

عندما عدت إلى المنزل صاحت أمى مرعدة كالوحوش الضارية: أين كنت؟ هل تعتقد أنك بلغت مبلغ الرجولة وبمقدورك أن تخبط فى الشوارع على غير هدى أو تتسكع فى الطرقات. هيا أعد لى سوطا لتأديبك.

ألهبتنى أمى بالسوط. مرقت خارج المنزل كالهارب وأنا أقسم بأغلظ الأيمان بأننى لن أعود أبدًا.

ذهبت إلى منزل وردز ورث وقد ثارت ثائرتى واستولى على الحنق والغيظ، كان الدم يسيل من أنفى.

قال وردز ورث فى نبرات حزينة: توقف عن البكاء وسوف نخرج للتريض بالسير، كتمت انتحابى ولكنى ظللت ألهث وجعل صدرى يعلو وينخفض. قطعنا شارع سانت كلير مشيًا على الأقدام حتى سافانا، ثم واصلنا السير إلى حلبة السباق.

قال مستوهبًا تأييدى: فلنفترش الحشائش ونشخص ببصرنا إلى صفحة السماء التى تنبسط كانت متبرجة بما لا يحصى من نجومها متأملين بعدها السحيق عن الأرض.

استلقيت على ظهرى فوق الحشائش أسرح الطرف فى صفحة السماء وسرعان ما تجلت لى الحكمة وراء قوله، انتابنى إحساس بالضآلة حتى كدت أتلاشى، وإن طارت بى نشوة فى نفس الوقت لم أعهدها فى حياتى من قبل وداخلنى شعور بالسعادة والتفوق عجيب تبددت معه جميع مشاعر السخط والغضب وأمحت من ذهنى ذكرى الدموع والضربات التى انهالت علىَّ.

وعندما أخبرته أننى أشعر بأن الهم قد انجاب عن قلبى جعل يخبرنى بأسماء النجوم التى احتفظت ذاكرتى منها على وجه التخصيص بأسماء مجموعة الجوزاء رغم أننى أجهل السبب وراء ذلك فبوسعى حتى الآن تحديد مواقع نجوم هذه المجموعة إلا أننى نسيت مواقع النجوم الأخرى.

سلط على وجهينا بغتة ضوء كشاف كهربائى يقبض عليه رجل شرطة جعل يصلينا نظرات ملتهبة من عينين متقدتين انتفضنا قائمين، يغمرنا نور وهاج أغلق جفنينا قسرًا.

- ماذا تفعلان هنا؟.

- فأجاب وردز ورث: هذا هو السؤال الذى ظل يلح على ذهنى طوال الأربعين عامًا الفائتة دون أن أجد له جوابا حتى الآن.

اتحدت علاقتنا فى صداقة وطيدة. مال على أذنى ذات يوم وهمس قائلا:

حذار أن تفضى إلى أى امرئ بسر صداقتنا وتمتعنا بثمار شجرة المانجو وشجرة جوز الهند أو شجرة البرقوق. فإذا بحت بهذا السر فسوف أعلم لأننى شاعر.

قطعت على نفسى أمامه عهدًا بالكتمان وحافظت عليه.

أحببت حجرته الصغيرة التى لم تكن تحوى قطعًا من الأثاث تفوق تلك الموجودة بحجرة جورج الأمامية عددًا وإن بدت أكثر نظافة بيد أنها كانت تظلها أيضا سحابة من الوحشة.

سألته ذات يوم: لماذا تحتفظ بهذه الشجيرات الكثيفة فى فناء دارك ؟ أليست تجعل المكان رطبًا؟.

فقال: سوف أقص عليك قصة. حدث ذات يوم أن تقابل فتى وفتاة ووقع كلاهما فى هوى الآخر، عشق كلاهما الآخر لحد الوله فتزوجا كان كلاهما يقرض الشعر، هام هو بالكلمات هياما فى حين أحبت هى الحشائش والأزهار والأشجار حبًا ملك عليها حواسها وعقلها. عاشا فى حجرة يتيمة يرشفان من كئوس السعادة خمرًا صافية، إلا أن الفتاة الشاعرة قالت للفتى الشاعر ذات يوم: سوف نرزق بشاعر آخر. بيد أن هذا الشاعر الوليد لم يقيض له أن يرى نور الحياة، إذ ماتت الفتاة ومات الشاعر الصغير فى أحشائها، انعقدت سحب التعاسة فوق رأس الزوج وبدت له الدنيا صفراء كريهة لاتّحتمل ولاتّعاشر وأقسم بكل مقدس ألا يلمس شيئًا فى حديقة الفتاة، ولذا امتدت يد الإهمال إلى الحديقة واكتسبت سحنة وحشية».

جعلت أرنو إليه وهو يقص على هذه القصة الجميلة فلمحت النظرات فى عينيه تشيخ وبدا وجهه أكبر من سنه. إلا أن مغزى قصته لم يغمض على.

كنا نخرج نتريض بالسير فنظل نخبط فى الشوارع على غير هدى لساعات طوال، كما ذهبنا إلى حدائق النباتات وحدائق الصخور، وتسلقنا تشانسللور هيل وكنا نلقى ناظرينا إلى الأفق وقد جعل المغيب يرسل ألوانه الهادئة الرزينة المليئة بالشجن وقرص الشمس يهبط وديعًا أليفًا فى الشفق وقد استلت منه روح الشباب الفائر، وتراءى بورت أوف سبين والليل يهبط من ذروة الأفق وسرعان ما كانت الأنوار تضىء أرجاء المدينة والسفن الراسية فى الميناء.

كان كل ما يند عنه من أفعال يشى بنشوة الحماس التى كانت تنقدح فى قلبه كما لو كان طفلا تتفتح عيناه على مسرات الحياة ومباهجها لأول مرة فيحس بموجة من الفرح تغمره وتطير به إلى شاطئ السعادة، كانت كل أفعاله تنضح بحماس الراهب الذى تشتعل جوارحه بنيران مقدسة.

وأحيانا كان يقول وهو يهز رأسه فى طرب مفاجئ: ما رأيك فى تناول الآيس كريم؟. وعندما كنت أحنى رأسى إعرابا عن الموافقة كانت تلوح فى عينيه أمارات الجد البالغ متسائلاً: ما المحل الذى سوف نتعامل معه؟ كما لو كان أمرا بالغ الأهمية. بيد أنه كان يتفكر هنيهة ثم يقول بغتة وقد دبت فى قلبه الحماسة : أظن أنه آن أوان ذهابى لهذا المحل للتفاوض على شراء الآيس كريم.

صفت الحياة من شوائب الكدر ومضت الأيام مترقرقة بالسعد والإقبال.

قال لى ذات يوم وأنا أجالسه فى فناء منزله: سوف أبوح لك بسر هائل.

- هل هو سر حقًا؟

- هو سر حتى الآن.

جعلنا نتبادل النظرات فى صمت مجلل بالرهبة، ثم غمغم وكأنما يهامس نفسه: أننى أنظم قصيدة الآن.

- اوه.. ندت عنى بصوت خامل محشرج بالخيبة.

واصل قائلا: بيد أنها قصيدة جد مختلفة. إنها أعظم قصيدة خطها يراع شاعر فى العالم بأكمله.

صفرت بفمى بإعجاب فقال مجتاحًا بدفقة حماس: إننى أواظب على النظم بهمة لايعتريها الكلال منذ خمس سنوات خلت، وسوف أنتهى من كتابتها بعد حوالى اثنين وعشرين عامًا شريطة أن أواظب على الكتابة بنفس المعدل الحالى.

- لاشك أنك تنجز الآن الكثير.

- لم أعد أكتب الآن بنفس المعدل عند البداية . فإننى أكتب الآن بيتًا واحدًا كل شهر. إلا أننى أتوخى أن يولد متوهجًا بالتفرد والعبقرية.

ـ ما البيت الذى نظمته الشهر الماضى؟.

شخص ببصره إلى السماء ثم قال: «إن الماضى موغل فى العمق.»

فقلت وقد تشعشع رأسى بالنشوة: إنه بيت جدير بانتزاع آهات الإعجاب من الأعماق.

فقال بارتياح ممزوج بزهو: آمل أن أقطر خبرة وحكمة شهر بأكمله فى هذا البيت اليتيم. ولذا فإنه عندما تنقضى هذه الأعوام الاثنان والعشرون سأكون قد أبدعت قصيدة تغدق على البشرية جمعاء أعذب الألحان.

ثمل قلبى بالحماس والإعجاب.

واظبنا على الخروج فى جولات استكشافية. بينما كنا نسير بحذاء الكورنيش عند دوكسايت فى ذات يوم، تساءلت بعد تردد: هل تظن أن هذا الدبوس سوف يطفو عندما أسقطه فى الماء؟. فأجاب بصوت لايخلو من رنة الأسف: إن هذا العالم يتسم بالغرابة. فلتسقط دبوسك فى الماء ونر ما سوف يحدث.

غاص الدبوس فى الماء.

قلت ممهدًا لمجرى جديد من الحديث: ما الذى أضفته إلى قصيدتك هذا الشهر؟ بيد أنه لم يتل على أى بيت جديد بل أكد لى فحسب : إن الأمور تسير على خير ما يرام، فلا تقلق. وأحيانا كنا نقتعد سور الكورنيش ونرقب السفن وهى تتهادى إلى داخل الميناء.

انقطع حديثنا عن قصيدته التى كان يعدها درة ليس لها نظير فى عالم القريض.

ساورنى إحساس مبهم بأن سيما الهرم تغشاه وأن الشيخوخة الكريهة تنشب فيه الأنياب والأظافر.

سألته ذات يوم: كيف تعيش ياسيد وردز ورث؟.

- تعنى الحرفة التى أتعيش منها؟

وعندما أحنيت رأسى دلالة الإيجاب. انفجر صدره عن ضحكات بلهاء الرنين ثم قال: إننى أترنم بأشعار تنبعث فى نفسى بوحى البديهة أثناء موسم الأغانى الشعبية.

- أيكفى ما تكسبه أثناء هذا الموسم لتغطية نفقاتك طوال العام؟

- نعم.. يفى بحاجياتى.

- لكنك سوف تصبح أكثر رجال العالم ثراء عندما تنتهى من نظم أعظم قصيدة فى العالم.

بيد أنه لم يحر جوابا، وختم على شفتيه بخاتم الصمت. وعندما ذهبت إلى منزله الصغير ذات يوم وجدته مستلقيًا على فراشه الصغير وقد حل به هزال وذبول فبدا كالطيف، راودتنى نفسى على البكاء. وشعرت بقلبى ينتحب فى أعماق صدرى.

قال بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل: إن مشروع القصيدة يتعثر بالعراقيل والمشكلات، كان يتحدث كما لو كان يناجى نفسه وهو يمد بصره إلى شجرة

جوز الهند خلال النافذة. غمغم وكأنما يهامس نفسه: عندما كنت فى العشرين كان يفعم قلبى الهام التفاؤل والإقدام، أغمض عينيه فى إعياء واستسلام ثم رفع إلىَّ وجهًا بارز العظام مدبوغًا بالتعاسة والكبر وواصل: بيد أن هذا كان منذ زمن طويل.

وإذ ذاك دهمنى شعور قاسٍ، كإحساسى بقبضة أمى تنهال على صدغى، بدنوه نحو الفناء بخطو دءوب، لاحت فى نظرة عينيه الغائمة أطياف من العالم الآخر.

عندما لمح الدموع تترقرق فى عينى اعتدل جالسًا فى الفراش ودعانى إلى الجلوس على ركبتيه، نظر فى عينى وقال: إنك تقرأ فى وجهى نذر الموت. لقد كنت أعلم أنك تملك عينى شاعر.

بدا لى غير مبال بمصيره فتقطع قلبى حزنا عليه، واستسلمت لموجة عاتية من النحيب، ضمنى إلى صدره بحنان قائلا : هل ترغب فى أن أقص عليك قصة مضحكة؟ ابتسم إلى ابتسامة رقيقة على سبيل التشجيع.

لم أحر جوابًا. ساد صمت كأنه بكاء أخرس.

استطرد قائلا: أريدك أن تعدنى بعد سماع هذه القصة أن ترحل ولاتعود أبدا لرؤيتى. هل تعدنى؟.

أومأت برأسى موافقا.

- هل تذكر هذه القصة التى قصصتها عليك التى تدور حول الصبى الشاعر والفتاة الشاعرة؟ إنها قصة ملفقة، كما أن حديثى عن الشعر ونظمى أعظم قصيدة فى العالم حزمة من الأكاذيب. ألا تظن أن هذه القصة من أمتع ما سمعت فى حياتك؟

ثم أمسك لسانه بالصمت بعد أن تهدج صوته منذرًا بالبكاء، غادرت المنزل بقلب كسير ثم طفقت أعدو بسرعة الريح صوب بيتى مستسلمًا للنحيب مثل شاعر يبكى مر البكاء كل ما يراه من مآس تتفطر لها القلوب.

تحاميت من السير فى شارع البرتو لمدة عام كامل. بيد أنه ذات يوم مررت، بعد أن عاودت السير فيه، أمام موقع منزل الشاعر فلم أجد له ثمة أثرًا. كما لو أن الأرض فغرت فاها وابتلعته. إذ طالعنى بدلا منه مبنى ضخم يتكون من طابقين شُيد على مساحة الأرض بأكملها واختفت شجرة المانجو وشجرة البرقوق وشجرة جوز الهند.

بدا الأمر كما لو أن ب. وردز ورث لم يوجد على ظهر الأرض قط.

* * *



(٧)
الجبان

كان ذو القدم الضخمة عملاق القامة مترامى الأطراف طولا وعرضًا غامق اللون غليظ القسمات، وكان جميع سكان شارع ميجل يرتعدون فرقا منه، لم يكن ارتجافهم رعبًا فى محضره يرجع إلى ما امتاز به من ضخامة فى الجسم وسمرة داكنة إذ كانوا يخالطون من هو أكثر منه ضخامة وأغمق سمرة، كان الناس يخشونه لأنه كان صموتًا نزر الكلام، صارم النظرة، عبوسًا، يوحى منظره بما طبع عليه من حدة وجدية وتجهم، كان يبدو شديد الخطورة لا يؤمن له جانب مثل تلك الكلاب التى لا تنبح أبدًا وإن كانت تخطف منك أحيانا نظرة جانبية فتتفكك مفاصلك من الرعب الذى لا يوصف، اعتاد هات أن يعلق على الصمت والهدوء اللذين يغلبان على ذى القدم الضخم قائلا: إن هذا الصمت قناع يتوارى وراءه ليدارى به نضوب معين الكلام منه وانقطاع مدده عنه.

ورغم ذلك كان هات يتيه على كل من يصادفه فى مباريات السباق والكريكيت بما يزعم من صداقة وطيدة بينه وبين ذى القدم الضخمة: إننا صديقان

لصيقان تجمع بيننا صداقة عميقة منذ سنى الطفولة الأولى وهى علاقة وثقت الأيام عراها فتوطدت وتناهت إلى ذروة الثقة.

كما أننى لا أبرئ نفسى من هذه المباهاة إذ أننى كنت أردد دومًا فى المدرسة محذرًا من تسول له نفسه الاعتداء علىَّ: حذار أن تتهور. إن ذا القدم الضخمة يعيش فى شارعنا وبيننا ألفة قوية، فإذا امتدت لى يدك بالأذى فسوف أخبره ليهصرك بين أصابعه ويجعل منك عبرة لكل معتبر.

كنت حتى ذلك الوقت لم أتبادل كلمة واحدة مع ذى القدم الضخمة، كان يداخلنا شعور بالثقة والزهو والخيلاء لأنه أحدث لنفسه سمعة إيجابية فى بورت أوف سبين، وطار له صيت فى الناس. فذات يوم قذف مبنى إذاعة تريندادد بحجر وحطم أحد النوافذ، وعندما سأله القاضى عما دفعه إلى هذه الفعلة قال باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل: كى أوقظهم من سباتهم.

أدى فاعل خير عنه الغرم المطلوب إلى المحكمة.

اشتغل فى وقت من الأوقات بقيادة أحد باصات الديزل، مضى بالراكبين ذات مرة خارج المدينة إلى كارتيدج التى تقع على بعد خمسة أميال ثم أمرهم بالترجل من الباص ليستحموا.

لم يتزعزع أنملة عن موقفه ووقف يرقبهم باهتمام داهم حاد حتى انتهوا من المهمة.

اشتغل بعد ذلك ساعى بريد، عانى سكان الحى أشد المعاناة من غلطه بين الخطابات عند توزيعها. رأوه ذات يوم وهو يجلس فى شبه استلقاء وقد غمس قدميه الضخمتين فى مياه الخليج باريا عند دوكسايت ورقدت جواره حقيبة الخطابات الممتلئة إلى النصف. قال بصوت تمزقه الشكوى: إننى أعمل فى شبه سخرة أسرح بالخطابات كبائع جوال، إننى أحس كأننى لا أفارق فى هيئتى طابع البريد، كان منظره وأفعاله توحى لجميع أهل ترينداد بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون بيد أننا كان لنا رأى آخر فيه.

لقد كان رجال من أمثال ذى القدم الضخمة هم الذين جروا على عصابات المدينة سوء السمعة، إذ كان ذو القدم الضخمة لا ينى عن التحرش برجال العصابات الأخرى، بيد أن ضخامة جسمه وما يوحى به منظره من شدة الخطورة كانا كفيلين ببث الرعب فى النفوس ولذا لم يشتبك قط فى أى عراك أو شجار، كما أنه لم يغيبه السجن أكثر من ثلاثة شهور أو نحوها فى كل مرة.

كان هات على وجه التخصيص يخشى ذا القدم الضخمة، وكان يتساءل دوما عن السبب وراء إحجام الحكومة عن الزج به فى السجن مدى الحياة، وربما تظن أنه عندما يستخفه الطرب لحد الجنون وهو يهوى بمطرقته على المقلاة راقصًا على توقيعها فى الشارع أثناء حفل الكرنفال، سوف تبتسم أساريره فى

سرور ويتهلل وجهه فى سعادة، إلا أن ظنك سوف يخيب، ففى أمثال هذه المناسبات التى يمتلئ الجو فيها برنين الضحكات ووميض الابتسامات كان يصطنع السحنة التى تشع تجهمًا وامتعاضًا. فإذا ما عثر بصرك به وسط الزحام وهو يدق على مقلاته فسوف يخيل إليك من البريق الحاد الذى تلمع به عيناه وانفعاله بالمناسبة لحد الهذيان أنه يمارس أحد الطقوس الدينية.

ذهبت ذات يوم مع طائفة من الأصدقاء: هات وإدوارد وأدوس، وبوبى، وإرول إلى السينما. جلسنا فى صف واحد وجعلنا نضحك ضحكات مترعة بصحة وعافية ونحن نتبادل الحديث طوال عرض الفيلم بين يدى فرحة الحياة المتدفقة.

بلغ أسماعنا صوت قادم من الخلف يشوبه هدوء مريب: تلفتنا إلى الوراء فرأينا ذا القدم الضخمة. حلق الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة نهمة تنقض على أفراخ مذعورة، استخرج سكينا على مهل من جيب بنطلونه وسرعان ما لوح بنصلها الذى التمع كالشهاب فى الظلام ثم رشقه فى ظهر مقعدى، رفع بصره إلى الشاشة ثم قال برقة متوددة مشوبة بلهجة تنم عن الوعيد: واصلوا الحديث.

أطبق كل منا شفتيه ولم نتفوه بكلمة أخرى حتى انتهاء العرض قال هات بعد خروجنا من السينما: لا يسع امرؤ التصرف على هذا النحو سوى ابن رجل شرطة أو ابن قسيس.

تساءل بويى وهو يتمادى فى الاهتمام: هل تعنى أن ذا القدم الضخمة ابن قسيس؟

فصاح هات بصوت متهدج من شدة الغضب: هل تظن يا أحمق أن القساوسة يتزوجون وينجبون أطفالا؟

اطلعنا هات على الكثير من جوانب حياة والد ذى القدم الضخمة، كان منظر الوالد، مثله فى ذلك مثل الابن، يبث الخوف فى حنايا سكان بورت أوف سبين وعندما كنت أنا وبويى وإرول نعقد مقارنات عن أشكال الضرب التى نتعرض لها كان بويى يعلق قائلا: إن الضربات التى تنهال علينا لتتذاوب حياء وخجلا أمام أى علقة يأخذها ذو القدم الضخمة. وربما يفسر هذا ضخامة جسمه لحد الإرهاب.

إذ قابلت بالمصادفة صبيًا من بلمونت منذ عدة أيام فى سافانا أخبرنى أن ما ينهال عليك من ضربات أو صفعات يجعلك عملاقا مترامى الأطراف طولا وعرضًا.

قال إرول وهو يزفر زفرة غيظ: إنك جاهل أحمق. كيف تقبل مثل هذه الترهات؟

قال لنا هات ذات يوم: «إن والد ذى القدم الذهبية لا يبخل على ابنه بعلقة كل يوم، فهو رجل شرطة يعطى لابنه علقة كالدواء ثلاث مرات يوميًا بعد الوجبات.

وكان ذو القدم الذهبية يصرح بعد كل علقة قائلا: عندما أنجب أطفالا فسوف أضربهم جميعًا»

لقد عقدت حينئذ أحاسيس الخجل والخزى لسانى عن البوح بما يضطرم فى فؤادى. إذ أن مثل هذه الرغبة الجائحة كانت تلح علىَّ دومًا كلما انهالت على أمى ضربًا وركلا.

سألت هات وقد ارتفعت حرارة اهتمامى لدرجة الغليان: هل كانت أمه تضربه أيضًا؟

فأجاب هات بجفاء مباغت: يا إلهى! لقد كان هذا كفيلا بقتله لقد كان سعيد الحظ فلم يكن له أم. فوالده لم يتزوج قط.

لقد كانت بورت أوف سبين فى تلك الأيام تكتظ شوارعها بالجنود الأمريكيين مما جعلها تموج بالانفعالات والمشاعر المحتدمة. سرعان ما أدرك الأطفال سخاء هؤلاء الجنود وكرمهم البالغ.

شكل منا هات مجموعة عمل صغيرة؛ دفع خمسة من بيننا إلى الخروج لشحاذة اللادن والشيكولاتة، كنا نحصل على سنت واحد فى مقابل كل علبة من اللادن نعطيها إياه، كنت أحيانا أكسب اثنى عشر سنتًا فى اليوم. بيد أن أحد الصبية همس فى أذنى ذات يوم بأن هات يبيع علبة اللادن الواحدة بستة سنتات إلا أننى لم أصدقه.

رأيت بعد ظهر أحد الأيام من موقفى فوق الطوار أمام منزلى جنديًا أمريكيًا يسير فى الشارع قادمًا من الاتجاه المقابل، كانت الساعة تدور فى الثانية وكانت الشمس تريق أشعة حامية من سماء باهتة وخلا الشارع أو كاد من السابلة. عندما هرعت نحوه

متسائلاً: هل معك لادن ياجو؟ دهمنى مسلكه كزلزال ووقفت مذهولا وقد هرب قلبى فى أعماقى.

غمغم بألفاظ لم أتبينها عن الصبية الشحاذين. اقشعر بدنى برعدة خوف شاملة وخشيت أن يبتدرنى بلطمة أو يصفعنى على قفاى فارتفع منكباى بحركة عكسية كأنما ليخفيا قفاى، لم يكن عملاق القامة أو ضخم الجسم ورغم هذا طفق قلبى يخفق خفقات عنيفة كاد ينخلع لها، لم يداخلنى ريب فى أنه مفعم خمرا حتى قمته.

لمعت عيناه ببريق حاد يدل على العزم والإصرار، لم يكن ثمة أمل فى أن يتزعزع أنملة عن موقفه.

خرق الصمت بغتة صوت أجش: حذار أن تمتد يدك إلى الصبى بالأذى. ندت عن ذى القدم الضخمة بصوت غليظ تتطاير فظاظته مع نثار ريقه، لم يتفوه الأمريكى بكلمة ثم تزحزح عن موقفه فجأة ومضى فى خطو ثقيل مثقلا بشعور الخزى والخجل وإن تظاهر بأنه ليس فى عجلة من أمره.

لم يكلف ذو القدم الضخمة نفسه عناء النظر إلى.

ولم أتفوه بعد ذلك قط بهذه العبارة: هل معك لادن يا جو؟ بيد أن هذا الموقف الدال على الشهامة لم يستدر مودتى، بل زاد من خشيتى منه.

اطلعت هات على ما دار بين الجندى الأمريكى وذى القدم الضخمة، فقال بنبرة عتاب لا تخلو من مسحة من مودة: أننى أربأ بك أن تظن أن جميع الأمريكيين مثل هذا الجندى شرس الطباع صخرى

القلب، ولذا فإننى أنصحك بألا تفلت من يدك فرصة كسب اثنى عشر سنتا كل يوم.

بيد أننى قر منى العزم على هجر هذه المهنة، وقلت مستوهبًا تأييده: لولا ظهور ذى القدم الذهبية فى اللحظة الفاصلة لكنت الآن جثة مدرجة فى الأكفان.

فقال هات بنبرة جديدة يمهد بها لتغيير مجرى الحديث: إن ذا القدم الضخمة سعيد الحظ لامراء لأن والده لقى مصرعه قبل أن يضخم فيمتد طولا وعرضًا.

فسألته وقد جرفنى حب استطلاع طارئ: ما الذى حدث لوالده؟

فأجاب وعيناه تعكسان جميع صيغ الدهشة: أتجهل هذا حقًا؟

إن حكاية مصرعه لاكتها ألسنة لا حصر لها. ما حدث هو أن جمهرة من العمال السود تجمعوا حوله وانهالوا عليه ضربا حتى أخمدوا أنفاسه أثناء أحداث الشغب التى اندلعت فى حقول البترول فى العام ١٩٣٧. كان يصطنع دور البطل وهو نفس الدور الذى يتبناه ابنه الآن.

سألته برقة متوددة: لماذا تضمر لذى القدم الضخمة كراهة؟

فأجاب: ليس ثمة ما أضغنه عليه.

فقلت: ولماذا تخشاه؟

فأجاب: ألا تخشاه أنت أيضًا؟.

هززت رأسى علامة الإيجاب ثم قلت: إننى أشعر أنك تدبر له مكيدة، ولذا يخامرك دومًا هاجس من قلق، وتتوجس خيفة.

فقال هات: ليس ثمة مكيدة. فالأمر فى الحقيقة يبعث على الضحك. إذ اعتدنا فى صبانا أن نسومه سوء العذاب، كان نحيلا لدرجة تستثير الضحك وكنا نسلط سوط الإرهاب عليه ونجد فى مطاردته فى جميع شوارع الحى، فكما تعلم لم يكن بوسعه الركض على الإطلاق.

تألم فؤادى غاية الألم من أجله.

سألته بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا: ماالجانب المضحك فى هذه الرواية؟

- إنك تعلم نتيجة مسابقات الركض؟ كان يكسف نور جميع رفقائه فى حلبه الركض. ففى المباريات المدرسية كان يقطع مسافة مائة ياردة فى عشرة فاصل أربع ثوان. إلا أنك تعلم جهل أهل ترينداد بحساب الوقت، ورغم ذلك كنا جميعًا نرغب فى أن نوطد صداقتنا معه. إلا أنه كان يرغب عن صداقتنا بجامع قلبه.

جعلت أساءل نفسى فى حيرة عما جعل ذا القدم الضخمة يحجم عن ضرب هات وبقية الرفاق الذين خسفوا به الأرض ليكون موطئ نعال فى فترة صباه.

ورغم هذا لم يقع حبه فى قلبى.

اشتغل ذو القدم نجارًا لفترة قصيرة وصنع صوانى ملابس أو ثلاثة وإن خلت من أى لمسة فن أو جمال.

ورغم ذلك صادف من غامر بشرائها. ثم انقلب بعد ذلك بناء لم يرزء العمال؟ المحترفون فى ترينداد بالحماقة التى كانت تدفع نظراءهم فى البلاد الأخرى إلى الاعتداد بالذات والمباهاة بحرفتهم، لذا لم يتخصص أى منهم فى حرفة بعينها.

ظهر فى فناء منزلنا ذات يوم لأداء عمل ما.

وقفت على كثب منه أرقبه، لم نتبادل كلمة واحدة. لاحظت أنه يستخدم قدميه بدلا من (المسطرين) وقد طفق يقول بصوت تمزقه الشكوى: هذا العمل الشاق سوف يقصم ظهرى وسوف يعلوني بدون شك أحد يداب بسبب انحنائى الدائم.

إلا أنه أدى العمل على نحو جيد، فلم تكن قدماه ضخمتين دون طائل.

انتهى من عمله حوالى الساعة الرابعة ثم خاطبنى قائلا: فلنخرج نتريض بالسير. أنا حران وأريد أن يلفحنى الهواء البارد فى الخارج ليرطب جبينى الساخن.

لم أكن أرغب فى الخروج معه ولكن الرفض انحبس فى حلقى. ذهبنا إلى الكورنيش عند دوكسايت ووقفنا نسرح البصر فى مياه البحر تظلها سماء موردة الوجنات بحمرة الشفق وسرعان ما أطبق الليل ناشرًا جناحيه وتوهج الميناء بالنور، هبط الصمت علينا كصخرة ووقفنا وسط الهدوء الشامل ننظر إلى الظلمة الشاملة المشعشعة بأضواء النجوم الخافتة.

فجأة مزق السكون عواء كلب يقف وراءنا مباشرة عصف العواء الذى اخترق أذنى بغتة بجذور قلبى ولبثت لحظة ذاهلاً وقد تجمد الدم فى عروقى وتصلب شعر رأسى من الهول إلا أننى عندما تلفت إلى الوراء فى ذعر رأيت كلبا صغير الجسم بشعر أبيض يخالطه السواد، وأذنين عريضتين كمروحة منبسطة يكاد يغرق فى الماء الذى تشربه شعره ويهز ذيله هزات متصلة آية على ما يفيض به قلبه من أحاسيس المودة الغامرة.

اهتز صدرى حنانًا وفتحت له ذراعى بحرارة وشوق داعيًا إياه إلى الاقتراب كى أرفعه بين يدى حتى أقره فى حضنى إلا أنه تخلص من الماء بهزة قوية من جسده فأصابنى الرشاش المتطاير، ثم وثب علَّى كمن يثب إلى الماء وتطامن فى حضنى تطامن الفرخ فى حضن أبيه وهو يتذاوب خجلا وامتنانًا.

كنت قد نسيت فى غمرة الانفعال ذا القدم الضخمة وعندما جلت ببصرى فى أنحاء المكان لمحته على مبعدة حوالى عشرين ياردة وهو يعدو بسرعة الريح.

هتفت بأعلى حنجرتى: عد يا ذا القدم الضخمة. ليس ثمة ما تخشاه هنا.

بيد أنه كان قد توقف عن الركض قبل أن يبلغ مسمعه صياحى. صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم: يا إلهى.. سوف أموت. لقد تعثرت قدمى بزجاجة مكسورة وها هى الدماء تسيل دفاقة من قدمى الجريحة.

ركضت صوبه والكلب يجرى على أثرى.

بيد أنه عندما دنا منه الكلب خيل إلى أنه قد نسى جرحه والدماء التى خضبت قدمه. إذ أخذ الكلب فى حضنه وجعل يربت له بكفه وقد تفجر صدره عن ضحكات بلهاء الرنين.

رأيته فى اليوم التالى، وقد عصب جرحه بشاش دمشقى، بيد أنه لم يسعه أن يأتى لإنهاء العمل الذى قد بدأه فى فناء منزلنا.

تطايرت برأسى الهواجس إذ شعرت أننى أكثر قاطنى شارع ميجل اطلاعا على خبايا ذى القدم الضخمة وتراءت لعينى أعماق الهاوية التى سأتردى فيها نتيجة هذه المعرفة الدقيقة بالحقيقة وقد انجلت عارية، أحسست كأننى أحد هؤلاء الرجال الضئيلى الشأن الذين يظهرون فى أفلام العصابات ويلقون مصرعهم لاطلاعهم على خبايا الأحداث.

حدس قلبى أمورًا جعل يفرق لها رعبًا إذ ظلت تلح على ذهنى فكرة قدرة ذى القدم الضخمة على قراءة أعماقى بسهولة كما استشعرت خوفه من أن أستبيح سره.

ورغم أن السر كان يجثم على صدرى فإننى لم أفض إلى أى أحد به كنت أود لو كان بوسعى أن أهدئ من روعه بيد أنه لم يكن ثمة وسيلة لمخاطبته بهذا الشأن.

كان تسكعه فى شارع ميجل يشيع فى نفسى المهزولة الخوف والقلق وجعلت أردد على مسمع

هات: إننى لا أخشى ذا القدم الضخمة، بيد أن ما يحيرنى هو تقبض قلبك فرقًا فى محضره، وذلك كى أعقل لسانى عن إفشاء السر.

ذات يوم كنت أقتعد أديم الطوار مع إرول وبويى وتطرق الحديث بيننا إلى الحرب.

قال إرول مجتاحًا بدفقة حماس: ما عليهم سوى أن ينتخبوا لورد أنتونى إيدن رئيسًا للوزارة وعندها سوف نخسف بالألمان الأرض ليكونوا موطئ نعال.

تساءل بويى بصوت لا يخلو من رنة الأسف: وما الذى يسع لورد إيدن فعله؟

ندت عن فم إرول صيحة إنكار خالطها غير قليل من أحاسيس الفخر والمباهاة بغزارة علمه.

قلت بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم: لا يساورنى شك فى أن الحرب سوف تنتهى بسرعة إذا عين لورد أنتونى إيدن رئيسًا للوزراء.

فقال بويى وهو يتمادى فى الاهتمام: إنكما تستخفان بقوة الألمان وبأسهم الشديد. لقد كاشفنى أحد الصبية منذ أيام قلائل بسر خطير. قال لى إن أفواههم بوسعها أن تلوك المسامير كما تلوك الحلوى والنعناع، فهم أقوياء شديدو البطش، بوسع أى منهم أن يلوى العمود الحديد حتى يصير طوقًا.

قال إرول وهو يستشعر شيئًا من القلق: ولكن. الأمريكان يؤيدوننا ويشدون أزرنا.

فقال بويى بلهجة من يرغب فى الإجهاز على الحديث: لكنهم لا يمتازون بضخامة فى الجسم مثل الألمان، إن جميع الألمان يحظون بضخامة فى الجسم ومتانة البنيان مثلهم فى ذلك مثل ذى القدم الضخمة ولكنهم يفوقونه شجاعة وجراءة.

همس إرول قائلا: اصمت إنه قادم صوبنا.

كان ذو القدم الضخمة واقفًا عن كثب وخامرنى إحساس بأنه كان يرهف السمع فى اهتمام كان يرنو إلى بعينين لاحت فيهما نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين.

قال بويى عابسًا، وهو يبث حنقة فى نبرات صوته: لماذا تأمرنى بالصمت. إننى لا أتقول على أحد بسوء، لقد كنت أقول فحسب إن الألمان لا يقلون شجاعة عن ذى القدم الضخمة، رفعت بصرى إلى ذى القدم الضخمة فرأيته يرنو إلىَّ بعين ناطقة بالاستعطاف والتوسل، فاستردت بصرى موليًا رأسى عنه.

بعد أن ذهب ذو القدم الضخم خاطبنى إرول قائلا: يبدو أن هناك شيئًا بينك وبين ذى القدم الضخمة.

كان هات يجالسنا بعد ظهر أحد الأيام وهو يطالع جريدة الصباح، فرت من فيه بغتة صيحة اخترقت آذاننا: أنصتوا إلى هذا النبأ العجيب.

سألناه: ماذا حدث؟

فأجاب هات: الأمر يتعلق بذى القدم الضخمة.

فتساءل بويى: هل زجوا به فى السجن مجددًا؟

زفر هات زفرة غيظ وتمتم: لقد ولج مجال الملاكمة، أمسكت لسانى بالصمت أن يكاشفهم بالحقيقة المريرة، واصل هات قائلا بصوت متهدج من شدة الغضب:

سوف يقبره منافسه بضربة واحدة، فإن كان يعتقد أن الملاكمة ليست سوى التلويح بقبضة يدك فى وجه خصمك والرقص على الحلبة فسوف يدفع الثمن غاليًا.

أحاطت الجرائد الحدث المرتقب بالهالات الساطعة وطلعت على الناس بعنوان رئيس من الإثارة والجاذبية فى غاية: محترف تدبير المقالب للعبث ينقلب ملاكمًا بين عشية وضحاها.

لم أعد أخشاه وصار بمقدورى النظر فى عينيه عندما أصادفه فى الشارع، ووجدتنى أشفق عليه من مغبة هذا القرار الجرىء، بيد أن هذه الهواجس التى كانت تتطاير برأسى سرعان ما انقشعت.

إذ أنه كان يصرع خصومه واحدًا أثر الآخر بلكماته الضارية مما دعا محررى صفحات الرياضة بالجرائد إلى الإشادة بما أحرزه من إنجازات تعز على التصديق.

اهتز شارع ميجل فخارًا ووجلا من هذا البطل الذى غدا ملء الأسماع صيتًا بعيدًا وسمعة طيبة.

قال هات مستعر العينين من الغضب: بوسعنا أن نعلل هذه الانتصارات المتواصلة إلى تهافت وغباء من ينازلهم على الحلبة، فلننتظر حتى يواجه ملاكما ذا منزلة رفيعة فى هذا الفن.

بدا لى أن ذا القدم الضخمة قد نسينى، لم يعد يسعى إلى صيد عينى كلما تقابلنا أو يتوقف ليحادثنى.

كان مظهره قمينا ببعث الرعشة فى المفاصل، إلا أننى استروحت العزاء فى مقاسمة جميع أهل الشارع مشاعر الذعر والفزع.

جعل فى هذه الفترة يغالى فى اصطناع السحنة التى تشع رعبًا، كنا نلمحه وهو يقطع شارع ميجل ركضًا فى بنطلونه القصير ذى اللون الأحمر الأرجوانى البادى السخافة، وكنا نكاد نلمس الغرور متورمًا فى أوداجه وهو يمرق من جانبنا وقد حول عنا عينيه فى تجاهل بين.

ارتعب هات وحامت حوله المخاوف كالذباب، جعل يقول:

«لقد ارتكبوا خطأ فادحًا بالسماح لطليق السجون بأن يعتلى حلبة الملاكمة».

هبط على ترينداد ذات يوم رجل إنجليزى قصد من فوره مقار بعض الصحف لعقد لقاءات معها، أدلى فيها بأحاديث عن امتهانه الملاكمة وحصوله على لقب بطل القوات الجوية الملكية.

وفى صباح اليوم التالى نشرت الصحف صورة له، بعد ذلك بيومين طالعت إحدى الصحف قراءها بصورة أخرى له بصدره العارى، وقد ارتدى بنطلونًا أسود قصيرًا وهو يقف متصديًا للكاميرا فى تحد ملوحًا بيديه اللتين يكسوهما زوج من القفازات جذب

الأنظار عنوان ضخم يتساءل: من يجرؤ على التصدى لهذا الرجل على الحلبة؟ وأجابت تريندداد دون تردد: ذو القدم الضخمة.

وعندما وافق ذو القدم الضخمة على قبول التحدى توهجت فى القلوب شعلة الحماس، وورد اسم شارع ميجل فى الصحف لأول مرة وداخل الجميع حتى هات شعور بالسعادة والتفوق عجيب.

قال هات بحماس هائل: أعتقد أنكم سوف تلمسون الحماقة فى قولى هذا إلا أننى أصارحكم أن قلبى يخفق بالأمل فى أن يوقع به ذو القدم الضخمة هزيمة مريرة، ثم جعل يجول بجنبات الحى يخاطب كل من تنازعه نفسه على بعشرة نقوده على الرهان على فوز ذى القدم الضخمة.

قصدنا جميعًا الأستاد وقد أسدل الليل ستاره. اندفع هات وقد تسلط الجنون تمامًا على وعيه وهو يلوح بعملة ورقية من ذات العشرين دولارًا فى يده صائحًا: عشرون فى مقابل دولارات خمسة أن ذا القدم الضخمة سوف يهزمه.

راهن بويى بستة سنتات أن ذا القدم الضخمة سوف يبوء بالهزيمة. إلا أننا فى حقيقة الأمر غمرنا فيض من الارتياح والفرح عندما رأينا ذا القدم الضخمة يصعد إلى الحلبة ويرقص بحركات رشيقة وقد لوى شفتيه امتعاضًا دون أن يعير الجمع المحتشد التفاتة.

هدر صوت هات الخشن صائحًا: هذه هى الرجولة الحقة!

تجنبت النظر إلى الحلبة فى جزع، وحصرت بصرى طوال الوقت فى المرأة الوحيدة الجالسة وسط الحشد، حزرت أنها أمريكية أو كندية وجعلت أرقبها وهى تعصف فى أكل الفول السودانى عصف الريح كأنها فى سباق كانت امرأة شقراء ذات شعر ثائر غليظ كأن شعيراته قدت من أسلاك حديدية.

وعندما كان يوجه أحد الخصمين إلى بطن الآخر أو وجهه لكمة ضارية كانت الجماهير تهتف له من الأعماق، وكانت المرأة تزم شفتيها إعجابًا باللكمة الصادقة كما لو كانت هى التى وجهتها إلى جسد الخصم، ثم سرعان ما تعاود التهام الفول السودانى كنسر جائع، لم تنهض هذه المرأة من مقعدها ولم تفر من فيها صرخة واحدة ولم يبلغ بها الانفعال لحد التلويح بذراعيها، شعرت نحوها بمقت لم أشعر بمثله لإنسان من قبل.

جعجع دوى الهتافات فى أذنى بيد أنه قرع سمعى صياح هات بصوت مرتعش النبرات ممزق بوحشية الانفعال «هيا يا رجل انقض عليه فبوسعك أن تطحنه بضربة واحدة» ثم قال بصوت سائب لا ضابط له ند عن حلق جاف من الرعب والفزع: تذكر شجاعة الدك وإقدامه.

إلا أن صيحاته سرعان ما ذابت فى بحر الضجيج والعجيج خسر ذو القدم الضخمة المباراة بالنقاط واضطر هات إلى دفع مبلغ الرهان الذى قارب حوالى المائة دولار فى مباراة لم يتعد زمنها خمس دقائق.

قال وهو يغلى بأحزانه: إننى مضطر إلى بيع البقرة ذات اللونين البنى والأبيض التى اشتريتها من جورج.

علق إدوارد قائلا فى تشف لم يفلح فى مداراته: «لقد نلت جزاءك الحق».

مال بويى على أذنى وهمس قائلا: سوف أدفع لك السنتات الستة غدًا.

وقع كلامه من نفسى موقع اليد القابضة من العنق فتساءلت ساخطًا: ستة سنتات غدًا؟! ماذا تظننى؟ أتظننى أتقلب فى نعيم لا يتصوره الخيال؟ هيا يا رجل أعطنى نقودى الآن.

دفع بويى المبلغ صاغرًا.

بيد أن الضحكات التى كانت تلعلع فى الجو كدرت على صفوى، شخصت ببصرى إلى الحلبة، رأيت ذا القدم الضخمة وقد استسلم لموجة عاتية من النحيب بعينين محمرتين من البكاء وذقن مرتعش من التأثر. شعرت بألم يقرض فى شغاف قلبى.

أدركت الآن أن السر الذى طويت عليه صدرى قد هتك وفاحت رائحته حتى زكمت الأنوف.

قال هات فى لهجة لا تخلو من سخرية: أعجب به من مشهد لا ينسى! إنه يبكى بكاء مرًا، ثم ضحك بقهقهة عالية، بدا لى كما لو أنه نسى كل ما يتعلق بالبقرة. قال مسترسلاً فى الضحك: انظروا إلى فارسنا الذى لا يشق له غبار! سرعان ما انطلق

الضحك من حناجر جميع سكان شارع ميجل فيما عداى إذ كان قلبى يتقطع حزنًا عليه رغم الفارق الهائل بينى وبينه فى السن والحجم، وتمنيت لو أننى لم أراهن بويى على هزيمته بالسنتات الستة.

طالعتنا صحف الصباح التالى بعنوان تفتت له قلبى رثاء: ملاكم يغرق فى الانتحاب فوق الحلبة.

خيل إلى جميع سكان ترينداد أن ذا القدم الضخمة، بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون، قد اصطنع فوق الحلبة هيئة الملاكم الذى يموت حزنًا وكمدًا على هزيمته بقصد تهييج ضحكات الجمع المحتشد.

بيد أننا كنا نعلم الحقيقة كما هى عارية عن كل تخفيف، غادر ذو القدم الضخمة شارع ميجل، وكان آخر ما تناهى إلىَّ من أنباء عنه أنه يشتغل عاملا باليومية فى أحد المحاجر فى لافنتيل .

وبعد مضى حوالى ستة أشهر انفجرت فضيحة دوت طبولها فى أركان ترينداد، وفاحت رائحتها حتى احترق الجميع حياء وخزيًا.

تكشفت لنا حقيقة بطل القوات الجوية الملكية الذى لم ينتم إليها قط بصلة ولم يكن سوى ملاكم مغمور .

قال هات بصوت تغلب على نبرته سمة الشكوى: لا عجب أن يشهد بلد مثل بلدنا مثل هذا الحدث الذى يندى له الجبين خزيًا.

(٨)
خبير الألعاب النارية

إن الغريب الذى ينعطف بسيارته نحو شارع ميجل ويقطعه حتى آخره لا يسعه إلا أن يهز رأسه بما يشبه الاحتقار قائلاً: إننى أعجب لقدرة هؤلاء الناس على العيش فى هذا الشارع الذى تآكل من القدم والمأهول لحد الاكتظاظ! وذلك لعجزه عن الاطلاع على خبايا الأحداث أو تعمق الأمور إلى لبابها. إذ إننا نحن سكان الشارع يتراءى الشارع لعيوننا عالمًا يزخر بصنوف من البشر بينهم ما بين السماء والأرض من تباين.

فمان - مان تبدو عليه علامات الخبل التى لا يخطئها النظر، وجورج غدا مضرب الأمثال بغبائه فى الشارع كله، وذو القدم الضخمة فتوة يسلط سوط الإرهاب على رءوس سكان الشارع جميعا وأما هات فتسكره دومًا نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول، وبوبو فيلسوف يتقطر حديثه خبرة ويتفجر حكمة، أما مورجان فقد اتخذ من المزاح شعارا له فى الحياة، أو ربما كانت هذه الرغبة فى المزاح التى كانت تتملكه هى الجانب الوحيد فى شخصيته الذى استلفت انتباهنا بيد أننى عندما أستخبر الذاكرة

والشواهد والأحداث أدرك أنه كان يستحق قدرًا أكبر من الاحترام، بيد أنه جر على نفسه سوء السمعة وجعل منها مضغة الأفواه. إذ كان يجد قرة عينه فى تدبير المقالب والقذف بنكاته وقفشاته ذات اليمين وذات الشمال حتى يقتل من حوله ضحكا.

فعندما تنجح إحدى محاولاته لتهييج ضحك الآخرين بأن يرشق مثلا عود ثقاب بين شفتيه ويحاول إشعاله بسيجارته، كان لا ينى عن تكرير المحاولة لحد الإملال، كان هات يعيد على مسامعنا قوله: إنه يستثير حنقنا وغيظنا بنكاته السمجة ومقالبه السخيفة واستكانته إلى وهمه بأنه فكه النفس، لطيف المحضر، حلو المعشر تأنس لقربه وتستوحش لبعده، رغم علمنا أن كآبة دائمة تغشيه مثل المرض المزمن.

كنت ألمح أحيانا الخيبة مسطورة على وجهه عندما تخفق نكاته فى تهييج ضحكنا، فكنا نستشعر الندم وتهفو فى ضمائرنا الوساوس عندما يغادرنا كاسف البال، مثقل القلب بالقنوط ليهيم على وجهه حاملا طعنة الغدر بين أضلعه، كان مورجان أول فنان أصادفه فى حياتى. إذ كان يقضى جل وقته، حتى عندما يكون منهمكًا فى تهيئة مقالب للعبث، فى التفكير فى ماهية الجمال، كان مغرمًا بصنع الألعاب النارية، كان ذهنه يتفتق دومًا عن نظريات تكشف عن جمعه النبوغ الشامخ فى العلم إلى الموهبة الشاهقة فى الفلسفة، فكان يتردد على لسانه ألفاظ مثل التناغم أو الانسجام بين الأجرام السماوية أو رقصة

الحياة، وهى ألفاظ كان يلتبس علينا فهمها كلية وعندما أدرك أن عباراته تستغلق على أفهامنا، شرع على سبيل المزاح فى استخدام ألفاظ يغلفها المزيد من الغموض والإبهام.

اتخذت من أحد الألفاظ الرنانة التى كان يتشدق بها عنوانا لهذه الصورة القلمية. بيد أن الحياة تصدت لمورجان بوجه عبوس إذ كان يتوقع لألعابه النارية سوقًا نافقة، ولذا منى بخيبة شاملة عندما علم أن عدد الذين استخدموا ما ابتدعته قريحته فى ترينداد كلها لم يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. ففى حين كان سكان الجزيرة يتألقون بنشوة لا يعتورها أدنى خمول ويثملون بسعادة لا توصف وهم يرقصون على توقيع الطبول وقد دارت الخمر برءوسهم ولمعت أعينهم بوهجها، ويتصفحون النساء الجميلات بنظرات جريئة وهن يتبخترن فى زينتهن وبهجتهن على الشاطئ فى جميع الاحتفالات التى كانت تشهدها الجزيرة من مباريات فى السباق وكرنفالات أو إحياء لذكرى اكتشاف الجزيرة أو الذكرى المئوية لهبوط الهنود على أرض الجزيرة، كان مورجان يتململ فى جلسته كمن يجلس على مشواة يتلظى بالحقد الدفين، وتلفظ عيناه أوار الغيظ الكظيم.

اعتاد مورجان الذهاب إلى منطقة السافانا لمشاهدة الألعاب النارية التى صنعها منافسوه، وسماع الهتافات وهى تتعالى مدوية عندما تنطلق كالشهب فى السماء فتضىء صفحتها بالأنوار

المتلألأة البهيجة، كان يعود إلى البيت مهيض الجناح، يمضه الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة، تتجمع فى صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة. فكان يفرخ حنقه فى أطفاله العشرة، يكيل لهم الضربات الوحشية. أما زوجته التى كانت بدينة فارعة الطول، مترامية الأطراف طولا وعرضا، فكان يجفل حتى من التحرش بها. وعندما كان يعلو الصراخ فيمزق السكون تمزيقا كان هات يرنو إلينا بطرف واجم ثم يقول: لا مفر من استدعاء عربة المطافئ.

كان مورجان بعد أن يفرغ من ضرب أطفاله يخرج يتمشى فى فناء بيته الخلفى ساعتين أو ثلاث وهو يشعل ألعابه النارية دون تدبر أو احتراس فكان يخرق آذاننا صراخ زوجته وهى تصيح غاضبة بصوت كالرعد: متى تكف عن ارتكاب هذه الحماقات لا تنس أن لك زوجة وقطيعًا من الأطفال ولا يسعك الآن أن تتملص من تبعاتك بقتل نفسك! فكان ينقلب مجنونا ويثب الافتراس من سحنته ويصيح بها بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير وهو يضرب السور الحديدى بقبضة يده: إن أهل الشارع يتوعدوننى بالانتقام ويتحينون الفرصة كى ينهالوا علىَّ ضربًا.

كان هات يخاطبنا قائلا وهو يشكم رغبته فى السخرية: ها هو مورجان يكشف عن طبيعته المجنونة. ألم أقل لكم إن صاحبكم أصابه مس من الجنون، وإن جهازه العصبى لا يخلو من خلل بين؟ كنا عندما نراه فى فناء داره وقد تسلط الجنون تمامًا

على وعيه نرتعد فرقا منه وتحدس قلوبنا أمورًا تفرق لها رعبًا ويأسًا وخزيًا إذ كان تستأثر بعقله الوساوس، ويخيل إليه أن عمى بهاكسو الذى يتوهج ذهنه بالعبقرية والتفرد فى إصلاح السيارات قد صدقت نيته على ضربه، ولذا كنا نستشعر زهاء الحادية عشرة مساء نذر الانفجار الوشيك، فيقف شعر رءوسنا من ترقب الشر كمن ينتظر وكأنه يتوقع انفجار قنبلة وهو يتابع صفيرها. وسرعان ما كانت وساوسنا وهواجسنا تتمثل حقيقة ماثلة أمام الأعين.

فكنا نراه يضرب السور الحديدى بقبضة يده ثم يصيح وقد اشتد به الغضب فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر: بهاكسو! أيها البدين ذو الكرش الجسيمة! يا من تجرى فى عروقه دماء النذالة والضعة ويستنيم إلى أسباب عجزه وتخاذله... اخرج وقاتل كرجل!

كان مورجان يواصل صياحه حتى يلم بأوتار صوته الألم من الزعق بيد أن عمى بهاكسو كان يعير صياحه أذنا صماء فيظل مستلقيا فى فراشه على بطنه يدوم بنفسه صفاء روحى يسمو به إلى ذروة من البهجة فوق المنى وهو يرتل أشعار الرامايانا بصوت جهير وقد ذاب فى نغمة حزينة شاكية.

كان عمى بهاكسو عملاقًا مترامى الأطراف طولا وعرضًا، أما مورجان فكان قصير القامة، نحيل الجسم لدرجة تستثير الضحك ويستلفت الأنظار بيديه الرقيقتين ومعصمين غاية فى الهزال والنحول.

إلا أن السيدة بهاكسو كانت تثور ثورة جائحة فتصيح به متجهمة بنبرة صارمة: احبس لسانك القذر يا مورجان! لماذا لا تأوى إلى فراشك لتستريح وتريحنا من صياحك وصراخك؟!

وكنا نرى السيدة مورجان تخرج إلى الفناء تفور بالغضب فورًا وهى تصيح بصوت أجش تتطاير فظاظته مع نثار ريقها: كيف تجروئين أيتها المرأة بعودك النحيل لحد الازدراء على سب زوجى؟ دعى زوجى وشأنه. لماذا لا تنشغلين بأمور زوجك وتقومِّين من سلوكه؟

فترد عليها السيدة بهاكسو بكلمات كالرصاص المنصهر: حذار أن تتمادى فى غيك وامسكى لسانك بالصمت وإلا سوف أصعد إليك وألطمك لطمة تصعقك وتجعل عاليك سافلك.

كانت السيدة مورجان طويلة القامة، ذات بنيان متين يليق بمصارع. فكانت تصيح بالسيدة بهاكسو وصوتها يرعد من الغضب: لماذا لا تأمرين زوجك ذا الكرش الجسيمة بالنهوض من رقدته كى يصلح المزيد من السيارات من عيوبها، ويكف عن تلاوة هذه الأشعار اللعينة بصوته الذى تنفر منه الخنافس؟

عندما كان العراك يحتدم وتتطاير الشتائم بينهن كان مورجان يقصد إلى مجلسنا فوق الطوار وهو يضحك ضحكاته المجلجلة ثم يقول وقد تمطت شياطين العبث فى نفسه: إننى أعجب لسفاهة النساء وطيشهن. ثم يستخرج من جيب بنطلونه الخلفى

زجاجة روم صغيرة ويرفع سدادتها ويعبّ منها ثم يواصل: انظروا وتعجبوا ..... هل تعرفون كلمات الأغنية الشعبية التى تقول:

كلما حاولوا أن يسيئوا إلىَّ

كلما ظفرت لنفسى بأمتع العيش وأنعمه فى ترينداد!

ثم يفرغ بقية الزجاجة فى جوفه ويقول وقد عانقته فرحة شاملة فاهتز طربا! فى هذا اليوم من العام القادم سوف يدفع لى ملك إنجلترا وملك أمريكا ملايين الدولارات كى أصنع ألعابا نارية لهما...... أكثر الألعاب النارية جمالا وبهاء التى وقعت عليها عينا بشر حتى الآن.

وعندها يبتدره هات أو شخص آخر متسائلا: هل ستصنع ألعابا نارية لهما؟فكان يجيب وقد أخذت أنغام السكر ترن فى أوتار صوته: أصنع ماذا؟ سوف لا أصنع شيئًا. ثم يواصل وهو يزفر أنفاسًا ثقيلة مخمورة فى هذا اليوم من العام القادم سوف يدفع لى ملك إنجلترا وملك أمريكا ملايين الدولارات كى أصنع ألعابا ناريه لهما. أكثر الألعاب النارية جمالا وبهاء التى وقعت عليها عينا بشر حتى الآن!.

ترامى إلينا صياح السيدة بهاكسو من الفناء الخلفى: تقولين إنه ذو كرش مترامية! لكن ما الذى يمتلكه زوجك؟ إن زوجك يبدو عليه هزال وخور بالغان كأنه خارج من مجاعة: إنه نحيل لدرجة مخيفة كأنه محض عظام... فلا عجب أن تلاشت عجيزته وعجز عن الجلوس على مقعد مثل بقية الخلق.

بيد أن مورجان كان يطالعنا فى صباح اليوم التالى بوجه ينطق بالجدية والصراحة والعزم، ثم يشرع فى الحديث عن تجاربه بصوت متئد متزن النبرات يختلف كلية عن هذيانه كالمجانين فى الليلة الفائتة عندما كانت الخمر تدغدغ رأسه فيتمايل سكرًا.

كان مورجان يشابه فى هيئته الطائر، ولم أكن أجد شبهًا بينهما فقط فى النحافة المفرطة لحد الازدراء إذ كان ذا عود نحيل لدرجة تستدر الرثاء: بل كان يشبه الطائر أيضًا بعنقه الطويل النحيل الذى كان يلويه إلى الوراء كالطائر عندما يعطف بصره من فوق كتفه إلى مجلسنا فوق الطوار، كانت عيناه تلتمعان دومًا بنظرة حائرة قلقة. كما كان يخيل إلى من يحادثه أنه يلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثًا تعافه النفس أو كطائر يسدد منقاره لالتقاط فتات الخبز، وكان يسير بخطى رشيقة سريعة وهو يعطف بصره من فوق كتفه من حين إلى آخر ناظرًا إلى شبح شخصى الذى كان يخيل إليه أنه يتبعه على الأثر.

ازدرد هات ريقه بامتعاض وتساءل: أتعلمون السبب وراء خبله؟ إنها الوساوس التى تستأثر بعقله. حقا إن الشك مس من الجنون. فهو يساوره شك من ناحية عفة زوجه. فهى امرأة إسبانية كما تعلمون تموج برحيق الحياة وفتنتها، تستأسرها الشهوة وتستذلها، وتستعر نيران الجنس بين جوانحها.

قال بويى وقد تملكته نزوة مزاح: هل تعتقد أن هذا هو السبب فى أنه مغمور بحب الألعاب النارية

وصنعها؟ فقال هات متفلسفًا: إن دواعى السلوك البشرى تستغلق على الأفهام وتعز على التأمل أو التصديق.

اعتاد مورجان أن يسخر حتى من هيئته، فعندما كان يرى الناس يشخصون إليه بأبصارهم كان يطوح بذراعيه وساقيه فى الهواء حتى يقتلهم ضحكا.

كما كان يسخر أيضًا من زوجه وأطفاله العشرة. فكان يقول لنا متكلفًا لهجة التهكم: إن الأمر أشبه بمعجزة! كيف تسنى لرجل فى ضعفى وهزالى إنجاب عشرة أطفال؟ فكان إدوارد يحك ذقنه بيده متفكرًا. ثم يتساءل: ما الذى يجعلك توقن أن هؤلاء الأطفال من صلبك؟

وكان مورجان يضحك ضحكته الرنانة ويقول: إننى بطبيعة الحال لا تزال تتطاير برأسى الهواجس، وأبذل قصارى جهدى لغربلة نفسى منها.

لم يكن هات يحب مورجان، فكان يردد دومًا: إنه يستثير امتعاضى واستيائى، إننى أشعر أن كل ما يند عنه يتسم بالإفراط والمبالغة، فالأكاذيب تنبعث فى نفسه بوحى البديهة حتى أضحى هو نفسه فريسة هذه الأكاذيب فراح يقيم ميزان حياته على الأوهام.

لم نفقه فى هذا الوقت قول هات بيد أن مورجان كان يستثير حنقنا ويكدر علينا صفونا لدرجة تعز على الاحتمال، ولذا كنا نحاول انتزاع ابتسامات مغتصبة من الشفاه لنرضيه بها كلما طالعنا بسحنته المنفرة.

واصل مورجان تجاربه فى صناعة الألعاب النارية، كان يخترق آذاننا بغتة من حين إلى آخر صوت انفجار شديد يرج الجدران يتبعه تصاعد سحائب من الدخان تتماوج وتتأود فى الجو نافثة الهناءة والفرح فى أرجاء الشارع فتجرى البشاشة فى الوجوه، وتنتعش الأفئدة بالفرح والسرور.

بيد أنه مع ارتطامه بالخيبة وتبدد حلمه فى أن يجد لألعابه النارية سوقا رائجة قنع بأن يدرج آماله فى الأكفان ويقبر مواهبه، وثار به نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها فاستحل لنفسه توجيه لذعات جارحة إلى إبداعاته الفنية من ألعاب نارية. ولذا لم يكن يهزه الفرح أو الفخار عندما يبلغ مسمعه رنين الضحكات تتجاوب فى أرجاء الشارع عندما يقع المحذور ويجلجل وراء الباب المغلق دوى انفجارات ألعابه النارية.

قال هات بنبرة العالم ببواطن الأمور: عندما يسخر شخص من عمله الذى يكرس له كل قلبه، فإن المرء تستحوذ عليه حيرة بالغة إذ يجد نفسه بين اثنتين: الاسترسال فى الضحك حتى يشق الضحك جنبيه أو البكاء حتى ينفطر قلبه.

ولذا فإن هات بعد أن قلب أوجه الرأى فى المسألة توصل إلى وجهة فى النظر ترى فى مورجان انسانا خرج عن وعيه أو حصل له لطف، فلاحت عليه علامات البلاهة التى لا يخطئها النظر.

بيد أننى أعتقد أن هذه الوجهة فى النظر التى

كاشفنا بها هات هى التى جعلتنا نقرر الكف عن السخرية من مورجان أو الهزء به. بيد أن هات كان لا ينى عن تحريضنا: إن السخرية منه سوف تجعله يحجم عن التهريج بلا حساب.

بيد أن تعرضه للسخرية المريرة لم يفلح فى إثنائه عن الإيغال فى ضلاله. إذ أن ولعه بالتهريج تمطى حتى شمل كل شىء وراح يلقى قفازه فى وجه بهاكسو مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع، معلنً عليه حربًا لا ترحم، كما راح يصب جام غضبه وإحباطه على أطفاله، فكان ينهال عليهم ضربًا وصفعًا حتى يشق صراخهم الجدران: ندت عنه محاولة أخيرة لاستثارة ضحكنا، سمعت عن هذه المحاولة من كريس، ابن مورجان الرابع، كنت أجالسه على مقهى يقع عند ناصية شارع ميجل. قال بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته: إننى أعلم أن الشروع فى مبادلتك الحديث يُعد جريمة شنيعة لا تغتفر.

تساءلت بنبرة محرضة على مواصلة الحديث: لعل الأمر يتعلق بوالدك؟ احنى رأسه بالإيجاب واستخرج من جيبه ورقة مطوية بعناية بسطها فى عجلة ولهوجة فقرأت فى رأسها عبارة «الجريمة والعقاب».

قال بفخر لم يفلح فى مداراته: اقرأ هذا الثبت. كانت الورقة مشطورة نصفين بخط رأسى، لكل شطر عنوان مثل:

عقاب الشجار أو العراك

(١) بالمنزل — خمس ضربات

(٢) فى الشارع سبع ضربات

(٣) بالمدرسة ثمانى ضربات

رنا إلى كريس بعينين حارت فيهما نظرة قلقة تنذر بالشقاء، ثم قال: إنه أمر يعز على التصديق. أليس كذلك؟ أن تتخذ من الضرب وسيلة لاستثارة الضحك.

أمنتُ على قوله باحناءة من رأسى ثم سألته: لكن لماذا تعد مجاذبتى الحديث جريمة، أين البنود التى تنص على ذلك؟ أومأ بيده إلى أحد البنود، فطالعت:

عقاب محادثة المتسكعين على النواصى: أربع ضربات

عقاب اللعب مع المتسكعين على النواصى: ثمانى ضربات

تساءلت وقد اتسعت عيناى من الدهشة: ولكن أباك لا يجد غضاضة فى محادثتنا. فما الجريمة التى ترتكبها عندما تجاذبنا أطراف الحديث؟

فقال كريس: بيد أن هذا أمر لا يشكل أهمية على الإطلاق. عليك أن تأتى يوم الأحد القادم كى تشهد بنفسك ما يحدث. عندما التفت نحوه قرأت فى عينيه نظرة تتألق بالفرح والغبطة.

ذهبت فى اليوم الموعود مع ستة من الرفاق إلى منزل مورجان. استقبلنا بترحاب وقادنا إلى حجرة الجلوس، ثم غادرنا بغتة دون أن ينطق بكلمة واحدة. اصطفت بأركان الحجرة وجنباتها الكراسى والأرائك كما لو كانت قاعة معدة لحفل موسيقى. لمحنا الابن الأكبر لمورجان واقفًا أمام منضدة صغيرة فى أحد

أركان الحجرة منتصب القامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنه عسكرى فى طابور. صكت آذاننا بغتة صيحة عصفت بجذور قلوبنا. التفتنا بعنف نحو الصوت كأنما نستجيب للسعة سوط عندما خرق الصمت صيحة الصبى بلهجة آمرة: فلينهض جميع من بالقاعة. نهضنا جميعًا. عاود مورجان الظهور وهو ينقل عينيه بين الحاضرين وقد افتر ثغره عن ابتسامة فاترة، التفت صوب هات وسألته وأنا أستشعر شيئًا من القلق: لماذا يطالعنا بهذه الابتسامة الفاترة؟ فرد هات بصوت مبحوح: هذه هى الابتسامة التى ترف على شفاه القضاة عندما يدلفون إلى داخل قاعة المحكمة ساد بيننا صمت عميق تكاد تسمع فيه تردد الأنفاس حتى شقه الابن الأكبر لمورجان صائحًا بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس فى الحجر: أندرو مورجان!

دخل أندرو الحجرة وخطا خطوات ثقيلة إلى المنصة ومثل بين يدى والده ممتقع اللون، منكفئ الوجه وقد ركبته حال تعسة من القهر.

تلا الابن الأكبر الاتهامات من ورقة بيده بصوت جهير: اندرو مورجان! أنت متهم بإلقاء الحجارة على شجرة تمر حنة فى فناء بيت ميس دوروثى كما أنك متهم بانتزاع ثلاثة أزرار من قميصك وبيعها لشراء بعض البلى، ومتهم أيضا بالاشتباك فى عراك مع دوروثى مورجان، وكذلك سرقة ثلاث قطع من كعك السكر. هل أنت مذنب أم غير مذنب؟

فأجاب أندرو بوجه متقلص من العذاب: مذنب.

رفع مورجان بصره من ورقة كان منكبًا عليها يخط بقلمه بعض الكلمات عليها ثم سأله: هل ثمة ما تود أن تضيفه؟ ساد صمت كأنه بكاء أخرس حتى قطعه أندرو قائلا: إننى نادم على ما فعلت يا سيدى. فقال مورجان باقتضاب وبلهجة جافة آمرة: سوف ننفذ جميع الأحكام دفعة واحدة فور أن نفرغ من محاكمة الآخرين ثم واصل بلهجة لا تخلو من حزم: اثنتا عشرة ضربة.

حوكم أبناء مورجان واحدًا إثر الآخر وصدرت ضدهم الأحكام. حتى الابن الأكبر لم يسلم من حكم بالعقاب.

ثم نهض مورجان وهو يقول: ستُنفذ هذه الأحكام بعد ظهر اليوم. ثم ردد نظره بين الحاضرين وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ضعيفة ثم غادر الحجرة يداخله شعور بالثقة والزهو والخيلاء.

بيد أن هذه النكتة أو المزحة تردت فى هاوية الإخفاق والعجز، ولم تترك فى النفوس أثرا طيبا.

عبس هات فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية، ثم خاطب مورجان بنبرة تشى بغيظه المكتوم قائلا: كيف تستحل لنفسك السخرية من أطفالك والهزء بنفسك على هذا النحو السفيه على مسمع ومرأى من جميع أهل الشارع الذين دعوتهم لحضور هذه المحاكمة السخيفة؟

هيجت هذه المزحة أشجانى واستدعت ذكريات قاتمة موجعة الصدى، فتمثل لعينى صورة أمى وهى تتهال علىَّ سبًا وتعنيفًا.

وعندما هل مورجان علينا ونحن جلوس فوق الطوار فى مساء ذلك اليوم يطالعنا بوجه يتهلل بشرًا، لم يجد لمزحته صدى فى نفوسنا. لم يفتح له أحد منا ذراعيه بحرارة وشوق أو يربت على منكبه قائلا على سبيل التشجيع: إن هذا الرجل أصابه مس من الجنون.... هل سمعتم عن ضربه أطفاله؟ لم يقل أحد شيئا، بل صمتنا مستسلمين لوجوم كئيب.

غاض البشر من وجهه وفتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة. بدا مثالا صادقا لليأس والضياع.

وعندما عاد إلى بيته فى تلك الليلة شرب حتى دارت رأسه وسرت فى بدنه سكرة الهياج، فراح يصيح بلسان متعثر من الشراب: إننى أدعو جميع أهل الشارع لقتالى. ذكر لدهشتى البالغة اسمى فثبت لى أنه يعيش فى عالم تخلقه له أوهامه، انسلت السيدة مورجان إلى فناء البيت لتستوثق من رتاج البوابة الخارجية، لم يجد السيد مورجان لنفسه بدًا من الركض فى جنبات الفناء وقد لمعت عيناه بوهج الخمر، تضرمت فى نفسه ثورة كاسحة جامحة فبدا فى اندفاعه نحو السور كالثور الهائج، راح يصيح كالممسوس وهو يضرب السور بقبضته وقد انعقدت فى عينيه نظرة مخيفة: أتظنون أننى لست رجلا! لقد

انجب أبى ثمانية أطفال. فلا عجب أن ابنه ينسل عشرة أطفال. فأنا أفوقكم جميعًا رجولة وحيوية بما لا يقاس.

قال هات بلهجة آسفة: سوف يخبو لظى غضبه ويخمد توقده وسرعان ما ينخرط فى البكاء ثم يأوى إلى مخدعه وينام ملء جفنيه.

بيد أننى مسنى السهاد فى تلك الليلة وجثمت على قلبى الوحشة، كان قلبى يتقطع حزنًا عليه إذ بت موقنًا أن ثمة شيطانا أحمر صغيرًا يلبد داخله يوخزه بشوكته محرضًا إياه على إيقاع الأذى بالناس وهو يعض على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية، لم يعد مورجان يتردد علينا فى مجلسنا على الطوار، كانت تجاربه تستغرق جل نهاره، كانت تدوى فى الجو انفجارات طفيفة وتتلوى فى جو الشارع سحائب من الدخان كثيفة.

وإذا ما أغضينا الطرف عن هذه الأمور التى كانت تنغص علينا صفونا، فقد كانت الأفئدة تخفق بارتياح عميق، وحل الصفاء مكان الكدر فى ذلك الطرف من شارعنا.

رحت أتساءل وقد استولى علىّ حب استطلاع جنونى عما يفعله أو يفكر فيه فى تلك الوحدة التى كانت تطوقه كالقبر.

فى مساء يوم الأحد التالى زمجرت السماء بالرعود وانهل المطر انهَلالا مخيفًا فلم نتماد فى السهر وأوى كل منا إلى فراشه مبكرا، أسبلت

المساكن جفونها وأقفرت الطرقات، وكانت أرض الشارع تغمرها مياه المطر. وفى الساعة الحادية عشرة ساد الشارع صمت متقطع بتتابع إيقاع المطر فوق أسقف المنازل الحديدية كالدندنة.

اخترقت آذاننا بغتة صرخة مدوية مزقت السكون تمزيقًا فوثبت من الفراش كالملدوغ، طرقت مسمعى صفقات مصاريع نوافذ فتحت بعنف فلطمت الجدران، وترامت أصوات من الخارج وهى تصيح مذعورة: ماذا حدث؟ فيرد أحدهم إنه مورجان لقد سمعت الصرخة تجلجل وراء باب بيته !.

اندفعت إلى الشارع بلا تبصر أو احتراس وصدرى يجيش بانفعال عاصف وقصدت منزل مورجان رأسًا. كنت مرتدياً زى الخروج إذ لم يكن من عادتى - بسبب انتمائى الطبقى - ارتداء البيجامة أثناء النوم.

تراءى لناظرى شبح امرأة لم أتبين معالمها لشدة الظلمة وهى تهرول صوب البوابة الخلفية للدار التى تفتح على قناة للمجارى تفصل بين شارعى ميجل وألفونسو.

خفت حدة المطر وهبت نسائم مرطبة ببرودة حنونة منعشة وسرعان ما تجمع أمام الدار جمهرة من المشاهدين.

كان الأمر متلفعًا بغلالة كثيفة من الغموض: الصرخة المدوية، انطلاق المرأة فى الظلام كالشهاب، والدار التى تبدو غارقة فى النوم متدثرة بالظلام، تعالى صياح السيدة مورجان: تيريزا بليك!

تيريزا بليك! ما الذى كانت تفعله هنا؟ كانت صيحة ممزقة بوحشية الألم والحنق.

التفتت السيدة بهاكسو صوبى وقالت وقد ارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة: لقد كنت أعلم دومًا خبيئة طبيعة هذه المرأة المستهترة، ولكنى آثرت أن أمسك لسانى بالصمت.

فقال بهاكسو بنبرة لم تخل من سخرية: نعم إنك تعلمين كل شىء مثل أمك.

أضىء مصباح كهربائى فى إحدى الحجرات فرأينا النور يوصوص من خلال خصاص النافذة المغلقة ثم انطفأ النور فشمل البيت ظلام مخيف.

ترامى إلينا صوت السيدة مورجان وهى تقول بسخرية مريرة: لماذا تخشى النور؟ ألست رجلا؟ اضغط الزر الكهربائى لتضىء الحجرة كى أتأكد من صحتك التى تتفاخر بها؟

أضىء المصباح ثم انطفأ ثانية.

ترامى إلينا صوته وهو يرطن بكلام لم يميزه أحد.

ثم سمعناها تقول: نعم.. أنت بطل مغوار لا يشق له غبار، لا تخش شيئا. ثم رأينا خصاص النافذة ينضح بضوء خافت ثم ترامى إلينا صوته ثانية وهو يرطن بكلام لم نميزه.

واصلت الزوجة حديثها بعد انقطاعة قصيرة: كلا.. يا بطل.

ثم انطفأ النور لوهلة ثم عاود وصوصته من خلال خصاص النافذة.

ثم صك مسمعى صياحها: لا تطفئ النور... هيا برهن للحشد من الخلق الذى ينتظر أمام الدار رجولتك الحقة. فأنت لم تنجب عشرة أطفال منى فحسب، بل أنت قادر على إنجاب المزيد من المرأة الأخرى.

بلغ مسمعى صوت مورجان وهو يهمهم دون أن يبين بصوت يختنق بالعبرات، خففت السيدة مورجان من خشونة لهجتها وهى تقول: ما الذى تخشاه الآن؟ ألا تدعى أنك فكه النفس، لطيف المحضر؟ ألست تفخر بأن منظرك يوحى بما طبعت عليه من ميل للمزاح والمجون؟ فلتخرج إليهم عاريًا كما ولدتك أمك لينهالوا عليك قفشًا وتنكيتًا، فى حين تنثال المزح والنكات المكشوفة من فيك بلا حساب حتى تقتلهم ضحكا ويشهدوا لك بالرجولة الحقة!

جعل مورجان ينتحب انتحابا متواصلا ليرقق قلبها بيد أنها أعارت عويله أذنا صماء.

ترامى إلينا صوتها وهى تهدر قائلة بنبرات فظيعة: حذار أن تطفئ النور، فلن أتردد عن أن أجعل منك مثالا صادقًا لليأس والضياع وأدفع بك إلى الخارج عاجزًا مهيض الجناح منتوف الريش بعد أن أسلبك رجولتك.

سمعنا خشخشة المزلاج وهو يرفع ثم صك سمعنا صفقة مصراعى الباب وهو يفتح بعنف فلطمتا الجدران، تحولت إليهما الأعين كأنها بوصلات تنجذب إلى قطب، كانت تحمله بين ذراعيها عاريًا

سوى ما يستر العورة وقد بدا كصبى صغير فى هزاله ونحافته، وإن تجلت شيخوخته فى انتفاخ جفنيه وتجعدات وجهه، وذبول نظرته: كان يحصر بصره فى وجه زوجه وهو ينتحب ويشهق كالأطفال وظهره يتماوج كالدودة فى انكماش وانبساط محاولا الإفلات من قبضتها الحديدية، بيد أنها كانت قوية الجسم كمصارع محترف، لم تكن تنظر إلينا بل ظلت تحملق فى وجهه كأنها عجزت عن استرداد بصرها.

قالت بنبرة معتصرة بالحسرة والحزن: هذا هو الرجل الذى وقع حبه فى قلبى، وبذلت له الحنان محضًا صافيًا، ورهنت نفسى لخدمته. ثم قعقعت بضحكة غليظة. استرسلت فى الضحك حتى احتقن وجهها الوردى بالدم.

وقفت تقلب عينيها فى الوجوه متحدية: اضحكوا ضحكاتكم المجلجلة، إن هذا يسعده بلا شك.

كان مشهدًا فى غاية من الفكاهة: كانت المرأة البدينة كالبرميل تنتصب أمامنا بكرشها الضخم تقر فى حضنها زوجها بعوده النحيل وهو يطالعنا بوجه شاحب بارز العظام، وعينين ذابلتين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين.

حاولنا أن نتكتم الضحكات بالعض على باطن الشفاه. لمحت بعض الرفاق ترتعش أجسامهم تحت ضغط الضحك المكتوم.

سرعان ما ارتفع هدير من القهقهات فاسترسلنا فى الضحك حتى أشرفنا على التهلكة.

نجح مورجان لأول مرة منذ أن جاء إلى شارع ميجل فى تهييج ضحك الناس.

ركبت مورجان حال تعسة من القهر وغشيته كآبة دائمة مثل المرض المزمن.

أنفقنا سحابة نهار اليوم التالى فى انتظاره على الطوار كى نهنئه على ما حالفه من توفيق فى إثارة ضحكنا بيد أنه لم يحضر، هز هات رأسه بكآبة ثم قال عابسًا: اعتادت أمى أن تقول لى وأنا طفل صغير: يا بنى عندما تغرق فى الضحك فى صبيحة أحد الأيام فإن مساء نفس اليوم سوف يشهد انهمار فيض من الدموع على خدك المكتنز.

لم يطرق عينى نوم فى تلك الليلة، رحت أتقلب على فراشى ذات اليمين وذات الشمال وأنا أتناوم وأرخى أعضائى وأتوهم الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة. تعالى صراخ عند الفجر فمزق السكون تمزيقًا طرق سمعى بعد ذلك عجيج وضجيج وجلبة وصياح مختلط بأزيز عربة مطافئ تصرخ بسرينتها وثبت من الفراش كالملدوغ وهرعت إلى النافذة وفتحتها فرأيت السماء ملتهبة الوجنات بحمرة قانية يغطى أديمها سحائب دخان كثيف. كان دار مورجان يحترق، اعتلى المصورون الصحفيون أسطح البيوت المجاورة لالتقاط صور الحريق. انجذبت الأنظار نحوهم فى اهتمام. فى اليوم التالى صافحت عينى صورة للجمع المحتشد نشرتها إحدى الصحف وقد احتل وجهى الطرف الأيمن فى أعلى

الصورة وأنا أطالع الكاميرا بعينين تتألقان بنور ظافر.

ياللبهجة المنعشة! كان أبهى الحرائق وأشدها تألقًا فى بورت أوف سبين منذ عام ١٩٢٣ عندما اندلع حريق فى مبنى مصلحة الخزانة ورددت الألسنة وقتها كلمات الأغنية الشعبية:

كان مشهدًا فى غاية الروعة والبهاء

مشهد احتراق مصلحة الخزانة!

أضفى عرض الألعاب النارية على الحريق تألقا وبهاء، فثبت لأهل الشارع لأول مرة جمال هذه الألعاب وروعتها، أضنى الحياء والارتباك أناسًا كثيرين كانوا يهزءون بمورجان فتسمروا فى أماكنهم يتلعثمون بالخجل تحت نظراتنا. لقد سافرت إلى بلدان كثيرة منذ هذا الحادث بيد أننى لم أشاهد عرضًا للألعاب النارية فى بهاء وروعة ذلك العرض الذى شهدته بمنزل مورجان فى تلك الليلة. إلا أن حماس مورجان وهيامه بصنع الألعاب النارية انطفأ بغتة كما ينطفئ المصباح لانقطاع التيار.

قال هات بنبرة العالم ببواطن الأمور: عندما كنت صبيًا صغيرًا كانت أمى تردد دومًا على مسمعى: عندما يحترق المرء توقًا إلى شىء ويفوز به، فإن شعورًا عميقًا بالأسى يداخله ويفتر حماسه حتى ينطفئ كما تنطفئ شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة.

مصمصت الشفاه من وطأة العبرة. فقد أصاب هات بقوله مفصل الحق. إذ تحققت آمال مورجان

دفعة واحدة، فأثار ضحك الناس، وأبدع أجمل الألعاب النارية فى العالم ولكن المرء - كما قال هات - يغص بخيبة ترابية عندما يحقق ما يصبو إليه.

وكما توقعنا رفُع الأمر إلى ساحة القضاء، واستُدعى مورجان للمثول أمام المحكمة، واتهم بجريمة الحرق العمد، انهال رجال الصحافة عليه قفشًا وتنكيتًا دون انتهاك لقوانين القذف أو التشهير. إننى أذكر الآن ذلك العنوان الرئيسى الذى تصدر الصفحة الأولى فى إحدى الصحف: رجل ذو خبرة فسيحة بصنع الألعاب النارية يتُهم بالوقوع فريسة لصرعة إشعال الحرائق.

إلا أن قلبى اهتز بسعادة طاغية عندما علمت بنبأ إفلاته من العقاب.

لاكت الحكاية ألسنة لا حصر لها، وتطايرت الإشاعات حتى ملأت الجو، أكد البعض أنه هرب إلى فنزويلا، فى حين قال آخرون إنه أصابه مس من الجنون، كما سرت شائعة بتعيشه من حرفة الفروسية فى حلبة سباق فى كولومبيا، لا عجب أن تنتفخ الشائعات كالمناطيد فى شارع ميجل، فالأكاذيب تنبعث فى نفوس أهل هذا الشارع بوحى البديهة فتجدهم يفترون الشائعات، وتلوك ألسنتهم حكايات مختلفه من جذورها ولا أساس لها فى الواقع.



(٩)

«تيتس هويت: الحائز على درجة العالمية فى الآداب

ولد هذا الرجل ليكون عضوًا نشطًا ذا خطورة فى أحد المجالس المحلية لإدارة الطرق فى الريف، بيد أن الأقدار تجهمت له فانزوى فى حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل فى المدينة، كان رجلاً طيب القلب لطيف المعشر جم المروءة تغلب عليه وداعة وهدوء الفلاسفة.

كان تيتس هويت أول رجل أقابله عندما أتيت إلى بورت أوف سبين قبل نشوب الحرب بعام أو عامين.

بعد وفاة والدى اصطحبتنى أمى من شاجوانس إلى بورت أوف سبين، استقللنا القطار ثم مضينا فى باص إلى شارع ميجل، كانت أول مرة استقل فيها حافلة عامة فى إحدى المدن.

تساءلت فى حيرة: لماذا لا يدقون الجرس يا أمى؟

فقالت أمى مجتاحة بدفقة غضب: إذا ضغطت على زر الجرس فسوف تضطر إلى الترجل من الباص وتقطع الطريق إلى البيت منفردًا سيرًا على الأقدام.

حل الصمت هنيهة حتى خرقته هاتفًا: «انظرى يا أمى إلى البحر».

انفجرت قهقهات الراكبين كالقنابل.

نظرت إلى أمى فوجدت وجهها ملتهبًا بحمرة الغضب.

قالت لى أمى فى صباح اليوم التالى بعد تردد وهى تعد فى يدى أربعة سنتات: اذهب إلى الدكان على ناصية شارع ميجل وابتع رغيفين بسنتين، وزبدًا بسنت، وعد بسرعة. مضيت إلى الدكان خفيف الخطى موفور النشاط واشتريت الخبز والزبد الأحمر المالح.

بيد أننى ضللت طريق العودة وجعلت أخبط فى الشوارع مشيًا كما اتفق، عرجت إلى ستة شوارع تشابه شارع ميجل إلا أننى لم أعثر على منزلى فى أحدها، جعلت أذرع أحد الشوارع محنى الرأس تحت هم ثقيل ثم جلست على الطوار وعيناى تسحان دمعًا مدرارًا وأنا أخضخض قدماى فى مجرى مياه المجارى الذى يشق الشارع بمحاذاة الرصيف.

ترامت إلىَّ أصوات من فناء أحد البيوت، عطفت بصرى من فوق كتفى فرأيت فتيات صغيرات ذوات بشرة بيضاء يلعبن ويمرحن، شخصت إليهن بعينين محمرتين من البكاء.

تقدمت نحوى فتاة ترتدى فستانًا أرجوانيًا وتساءلت: لماذا تبكى؟

فقلت بصوت سائب لا ضابط له: إننى تائه.

ربتت على منكبى بحنان وقالت وهى تسكن خاطرى بما وسعها من كلم طيب: هل تعرف أين يقع مسكنك؟

استخرجت من جيب قميصى ورقة مطوية وبسطتها ملوحًا بيدى فى أسى. دنا منا رجل دون أن نشعر به، طالعنا ببنطلونه الأبيض القصير وقميصه الأبيض. بدا لى شخصًا غريب الأطوار يوحى منظره بما طبع عليه من شذوذ.

قطب باهتمام وسأل الفتاة بخشونة وهو يومئ إلىَّ بذقنه: لماذا يبكى؟

أفضت الفتاة إليه بسر بكائى.

دعك الرجل ذقنه بيده متفكرًا ثم قال: سأوصله إلى منزله.

طلبت إليها أن تصحبنا.

هز الرجل رأسه دلالة الإيجاب ومال على أذن الفتاة قائلاً: نعم من الأفضل أن تأتى معنا لتفسرى لأمه السبب وراء طول غيبته.

فقالت الفتاة بحماس: أننى طوع أمرك يا سيد تيتس هويت.

وقع الاسم من أذنى موقع الاهتمام إذ إن الفتاة لم تخاطبه قائلة تيتس أو السيد هويت بل «السيد تيتس

هويت» إلا أنه تبين لى فيما بعد أن جميع معارفه وأصدقاءه كانوا ينادونه بهذا اللقب.

سايرتهما صامتًا مطرقًا رأسى نحو الأرض حتى الدار، وعندما اطلعت الفتاة أمى على سر غيبتى الطويلة، نكست أمى رأسها ولاذت بالصمت، إلا أننى طالعت فى عينيها ما يضطرم فى ذاتها من الخجل وخيبة الأمل.

بعد أن غادرتنا الفتاة تفرس السيد تيتس هويت فى وجهى بمودة قائلاً: إن هذا الصبى تلوح عليه مخايل نبوغ مبكر لا تخطئه عين.

زفرت أمى زفرة المتحسر وقالت بسخرية مريرة: لقد اقتبس من أبيه الذكاء اللماح والذهن المتوهج بالتفرد والعبقرية!.

اشتعل تيتس هويت باهتمام داهم حاد وسألنى: إذا كان ثمن سمكة ونصف بنسا واحدًا ونصف بنس فما ثمن ثلاث سمكات؟

رن هذا السؤال فى أذنى رنين المعهود والمألوف، إذ أنه حتى فى أعماق الريف، فى شاجواناس، كان هذا السؤال يلقى علينا دومًا.

ولذا قلت بصوت ملىء بالثقة دون تفكير: ثلاثة بنسات.

أشاعت تلك الإجابة مزيجًا فى نفسه من الإعجاب والإكبار.

قال لأمى بلهجة الناصح وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام الشديد: إن هذا الصبى متوقد الخاطر، على غاية من الذكاء، ولذا عليك أن ترعى موهبته الفذة بعين اليقظة وتعهدى بتعليمه إلى مدرسة ذات سمعة أنقى من الماس كى ينهل من منابع المعارف بحماس وأشواق، كما أننى أنصح لك بإعداد ألوان من الطعام شهية تتحلب لها الأفواه كى يقبل على الطعام بشهوة صادقة مما يعينه على الاستبسال فى مذاكرة دروسه.

صمت حتى تستقر كلماته فى مستقرها من نفس أمى.

بيد أنه خُيل إلى أن كلماته انزلقت فوق عقل أمى فلم تترك أثرًا، إذ لاذت بجحر الصمت، وتجلى الوجوم فى صفحة وجهها العريض.

وقبل أن يغادرنا تيتس هويت هتف بعذوبة: أستودعكم الله.

وقعت هذه التحية من نفسى موقع السحر.

انهالت على أمى ضربًا بسبب ماء المجارى الذى تشربه حذائى، بيد أنها بشرتنى بإعفائى من العلقة اللازمة جزاء تخبطى فى الطرقات على غير هدى رغم الورقة المطوية التى كانت مندسة فى جيب قميصى.

قضيت سحابة نهار هذا اليوم وأنا أركض فى جنبات الفناء وقد استخفنى طرب أخرجنى من قيود

الاتزان فرحت أترنم بتحية الوداع المحبوبة «أستودعكم الله» على نغمة راقصة من تأليفى.

وعندما عاود تيتس هويت زيارتنا فى مساء نفس اليوم لم ترفع أمى حاجبيها انكارًا كعادتها حدجنى بنظرة نافذة متسائلاً: هل تعرف القراءة؟ أحنيت رأسى بالإيجاب.

- هل تعرف الكتابة؟ أحنيت رأسى احناءة خفيفة دلالة الإيجاب.

فقال بصوت هادئ جاد كالقاضى ينطق بالحكم: أحضر ورقة وقلمًا واكتب ما أمليه عليك.

تساءلت بريق جاف: ورقة وقلم؟!.

أومأ برأسه موافقًا.

مرقت إلى المطبخ كالرصاصة وقلت بصوت متقطع الأنفاس:

ألديك يا أمى ورقة وقلم؟

صاحت أمى بى بصوت غليظ وهى تعض على أسنانها من الغيظ: أتحسبنى بائعة فى دكان؟!

تعالى صياح تيتس هويت من الصالة: أنا الذى أريد ورقة وقلما.

تمتمت أمى فى نبرات تشى بخيبة أملها: أوه!

ثم خاطبتنى قائلة: سوف تجد كيس نقودى فى الدرج التحتانى بمكتبى، افتحه واستخرج منه قلم رصاص.

ثم تناولت من رف مثبت فى جدار المطبخ كراسًا وسلمته إلى دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

قال لى السيد تيتس هويت مدفوعًا بدفقة حماس: اكتب عنوان هذا الدار فى رأس الصفحة على الجانب الأيمن، ثم اكتب تاريخ اليوم أسفله، ثم اعتدل فى جلسته وسألنى:

هل تعرف لمن تحرر هذا الخطاب يا فتى؟.

هززت رأسى سلبًا.

واصل وهو يفرك راحتيه فى سرور: إننا نحرره إلى الجارديان.

صرخ الذهول فى عينى فقلت كاظمًا انفعالاتى: صحيفة ترينداد جارديان! لكن الكبار فقط هم الذين يكتبون فى هذه الصحيفة.

فقال وشبه ابتسامة تلوح فى عينيه: ولذا فإننى أطلب إليك أن تحرر هذا الخطاب. فسوف يأخذ منهم العجب كل مأخذ.

تساءلت وأنا أستشعر شيئًا من القلق: ما الذى تريد أن تمليه علىَّ؟

فقال فورًا كأنه نادل يقرأ ثبتًا: إلى رئيس تحرير صحيفة ترينداد جارديان: سيدى العزيز أنا لست سوى طفل فى الثامنة (ثم مقاطعًا إملاءه: ما عمرك؟، ثم مستدركًا: إلا أنه أمر لا يستحق الاهتمام) ثم واصل: بالأمس طلبت إلى أمى أن أشترى الحوائج

من السـوق بالمـدينة التى نقطنهـا. عـزيزى رئيس التحـرير كانت هذه أول تجـربة لى أخرج فيها للتجوال (ثم تهجى الكلمـة) فى هذه المدينة المترامية بيد أن الحظ تصـدى لى بوجه عبوس، فوجدتنى أحـيد عن الطريق الذى رسـمـتـه لى أمى، فـرحت أضـرب فى الشوارع على غير هدى...

صفقت بيدى حبورًا فقلت وقد استخفنى طرب جنونى عذب:

ياللبهجـة المنعشـة! مـا هذه الدرر التى تنثال من فيك دون حساب!.

هل أنت واثق إنك تتهجاها دون أى خطأ؟

افتـر ثغره عن ابتسـامة حيية ثم قـال: لقد انفقت فترة بعد الظهيرة كلها فى تأليف هذا الخطاب.

ثم واصل الإمـلاء: ثقل على صـدرى ضـيق غليظ كأنمـا أهوى إلى أعمـاق بئـر سـحيقـة بيد أن الأقدار التى ابتسمت لى بعد عبوس أرسلت لى رجلاً اسمه السيد تيتس هويت أحد سكان شارع ميجل لينتشلنى من هوة اليأس ممـا يثبت لى، سيدى رئيس التحـرير، أن عاطفة الخير لا تزال تعمر القلوب».

بيد أن الصحيفة لم تنشر هذا الخطاب قط.

إلا أنه عندمـا زارنا بعد ذلك قـال لى بصوت ملىء بالثقة:

لا تكرب صدرك بهموم النشر، فسوف يجىء يوم تستبد فيه كل كلمة أكتبها بمشاعرهم استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح ما عليك سوى أن تستمسك بالصبر وسوف ينفسح أمامك مجال غير محدود للأمل. وحينما كنت أوصله إلى الباب تساءل استجابة لخاطرة طارئة: هل تواظب على شرب اللبن؟

كان قد أقنع أمى بوجود علاقة وثيقة بين شرب اللبن وتنمية ذكاء المرء، ولذا حرصت أمى كل الحرص على ابتياع ربع لتر من اللبن كل يوم لأشربه كى يتوهج ذهنى بالتفرد والعبقرية.

ولا يزال قلبى يستشعر وحشة ويحس بدبيب الخيبة؛ لأن السيد تيتس هويت لم يجد لأمله صدى فى نفسى إذ خيبت جميع توقعاته فى تقدمى فى الدرس بنجاح، ولا تزال هذه الذكرى تعيش فى أعماقى كخيبة لا دواء لها.

إلا أن ذلك الفيض من الاهتمام والمودة الذى غمرنى به استقر فى أعماق نفسى كذكرى مفعمة بالعذوبة أتفيأ ظلها فى هجير العمر. إلا أن آراءه كانت تتضارب أحيانًا مع آراء أمى، فعندما أستحضر من الماضى ما أودعته من ذكريات يثب من باطنى إلى مخيلتى صورة بيت العنكبوت الذى يستدعى ذكرى ذلك التضارب فى الآراء. فأجدنى أستحضر بخيالى صورة بويى الذى توثقت أسباب المودة بينى وبينه بسرعة تستثير العجب وهو يلقننى دروسًا فى ركوب

الخيل، وسقوطى من فوق ظهر الحصان والدماء تسيل دفاقة من ذقنى الجريح.

عندما رأى السيد تيتس هويت أمى وهى تكبس الجرح بخيوط عنكبوت من إحدى المداخن بلونها الضارب إلى السواد بعد أن غمستها فى شراب الروم، وقف مذهولاً وقد هرب قلبه فى أعماقه، صاح بصوت مخنوق النبرات:

إنك لا تدركين عواقب فعلتك.

فقالت أمى بنبرة تنم عن غيظ مكتوم: سيدى العزيز:

ألا يجدر بك أن تكف عن دس أنفك فى خاص شئون الآخرين. فأنت تعوزك الخبرة، ولذا فسوف أمتثل لنصيحتك عندما تنجب طفلاً من صلبك وتتعلم دروسًا فى فن تربية الأطفال عن معاناة وخبرة صادقة.

رغم السخرية اللاذعة التى تعرض لها، لم يتزحزح السيد تيتس هويت عن إصراره قيد حبة رمل، وجه خطابه إلى أحد الرجال المتحلقين حولنا قائلاً:

اذهب بالصبى إلى الطبيب.

وقفت أقلب عينى فى الوجوه دون مبالاة بيد أننى فى النهاية ذهبت إلى الطبيب.

طالعنا السيد تيتس هويت فى ثياب الطبيب. تمرد لسانه على تحفظه، فقال لأمى بلهجة تشى بالرضا

والارتياح: لقد لقنت دروسًا فى وسائل الإسعاف الأولى طوال الشهور الثلاثة الماضية فى هيئة الصليب الأحمر، وسوف أعصب قدمه بشاش دمشقى.

وقع هذا الكلام من نفسى موقع اليد القابضة من العنق فشعرت بيد ثلجية تقبض على قلبى.

كان سكان شارعنا يعرفون عن السيد تيتس هويت دقة التوقيت، ولذا تيسر لهم طوال شهر أو ما قارب ضبط ساعاتهم على التاسعة صباحًا عندما يتعالى صراخى فيمزق السكون تمزيقًا، إلا أنه كان يهيم بعمله هيامًا، مما يكشف النقاب عن طبيعة شخصيته التى تتسم بالتفانى والاستبسال فى العمل.

كانت الخطوة التالية - بطبيعة الحال - هى قيامه بالتدريس.

ولج هذا الميدان على استحياء شأن أى أمرئ ينشط لولوج سوق تثمل بسكرة الرواج.

قر منه العزم على أن يقدم فى امتحان للحصول على درجة البكالوريوس فى الآداب من الخارج من جامعة لندن، ولذا شرع فى تعلم اللاتينية بنفسه، وكلما ذاكر أحد الدروس سارع بتلقيننا إياه مضحيًا بجهده ووقته، كنا نتحلق حوله ننصت إلى دروسه التى يلقيها علينا فى فراندة منزله، تزكم أنوفنا، رائحة تراب وقذارة تسطع فى الفناء الذى تغص جنباته بالدجاج.

بيد أن هذا الشوط الدراسى لم يستمر طويلاً، إذ أننا عندما شرعنا فى دراسة التصريف الرابع للأسماء فى اللاتينية بدأت أنا وبويى وإرول فى طرح الأسئلة التى أثارت استياءه وبالغ ضيقه؛ لأنها لم تكن تطرق مدخراته من المعارف.

حدجه بويى بنظرة متفحصة كأنما يحقق معه، وقال بصوت كالرصاص برودة وحدة: إننى أعتقد يا سيد تيتس هويت أنك تختلق هذا الدرس من جذوره، وأن هذا الموضوع لا أساس له من الواقع.

فقال وهو يقطب تقطيبة باسمة: إننى لا أختلق شيئًا أفتح الكتاب عن فصل تصريف الأسماء، فلن تجد شيئًا يلتبس على الأفهام.

فقال إرول متفلسفًا وهو يهيم فى وادى الفروض والاحتمالات:

إننى أظن يا سيد تيتس هويت أن شخصًا يصارح الصدق العداء قد شمر عن ساعديه ذات يوم وانهمك فى تدوين هذه القواعد التى لا أساس لها فى الواقع، والتى رغم ذلك لا يجد أحد لنفسه بدا من حفظها عن ظهر قلب.

صوب السيد تيتس هويت وجهه نحوى وتساءل متجاهلاً انفعالاتنا الجياشة: ما مفرد كلمة bellum فى حالة النصب؟.

فتساءلت بدورى برقة متوددة وقد كدر صفوى تأنيب الضمير والشعور بالذنب لتعريضه لألسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء:

ما الإحساس الذى كنت ستعانيه يا سيد تيتس هويت لو أنك كنت فى سنى وطُرح عليك مثل هذا السؤال؟

ساد صمت يغلفه الأسى حتى شقه بويى متسائلاً:

ما الذى يعنيه العلماء بالحالة الإعرابية ablative.

فترت نشوة السيد تيتس هويت وحل محلها شعور بالغ بالشقاء والخيبة، وتلاشت آماله فى تلقيننا قواعد اللاتينية كقبضة من غبار.

ورغم أننا كنا نستحل لأنفسنا توجيه لذعات جارحة إليه إلا أننا كنا نقر بيننا وبين أنفسنا بأستاذيته وتميزه ببصيرة نافذة وقدرة فذة على أن يتعمق الأمور إلى لبابها.

كان هات يردد دومًا: إن حديث هذا الرجل يتقطر خبرة ويتفجر حكمة.

كان تيتس هويت يقلب أوجه الرأى فى جميع المسائل بيد أن أفكارًا خطيرة كانت تلتمع أحيانًا فى رأسه فيطرحها علينا دون تردد؛ لأن عقله كان يرى دائمًا وراء الأحداث، وإن لم تخل من مصادفات، حكمة تدق على الألباب.قال هات بنبرة العالم ببواطن الأمور: أنكم تحكمون بالظاهر، بيد أننى لا أعتقد أن

تيتس هويت يملك حقًا بصيرة نافذة تهتك حجب الغيب.

كان تيتس هويت يغطى وجهه براحتيه متفكرًا ثم يقول لنا بصوته المتزن النبرات: لا شىء يعلو فوق الإيمان، إننى أعتقد إننى إذا استخرجت مصباح الدراجة الأمامى من جيبى ووضعته فوق هذا الخوان أمامى، وغمغمت بالدعاء وأنا مؤمن بقدرة هذا المصباح على تحقيق جميع آمالى دفعة واحدة فسوف أجدنى أظفر من الدنيا بالحظ السنى، فأطيب نفسا ويرف قلبى رفيف الغبطة، وفور أن يفرغ من قوله كان ينهض مستأذنًا فى الانصراف بمشاغله الكثيرة، ثم يودعنا قائلاً: أستودعكم الله.

كان من عادته أن ينطلق صوبنا ونحن جلوس على الرصيف كالإعصار ثم يقول لنا بصوت مبحوح كأنه سعل دهرًا:

عليكم التزام الصمت، فسوف أطلعكم على فكرة هبطت على من السماء.

هرول إلى مجلسنا ذات يوم وقال فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: بعد أن قلبت الأفكار على شتى وجوهها واستعرضت كافة الاحتمالات خطرت لى فكرة ببالى لوضع نهاية للحرب، فإذا غاصت أوروبا فى المحيط لمدة خمس دقائق فحسب، فإن الألمان سوف يغرقون عن بكرة أبيهم.

خيم الصمت حتى شقه أدوس متسائلاً: ولكن إنجلترا سوف تهلك غرقًا أيضًا!.

هز تيتس هويت رأسه على مضض دلالة الموافقة، وأطرق هنيهة غارقًا فى الكآبة ثم قال: لقد أصابنى مس من الجنون بلا شك.، ثم غادرنا وهو يهز رأسه فى أسى، وقد راح يفتح شفتيه، ويهمهم دون أن يبين.

مضى ذات يوم بدراجته صوبنا بينما كنا منهمكين فى الحديث عن مباراة الكريكيت بين باربادوس وترينداد، وقد علت الوجوه علامات القلق لمعاندة الحظ فريق ترينداد.

اندفع تيتس هويت صوبنا قائلاً بلهجة لاهثة: لقد تكشفت لى حقيقة مذهلة، ألم تخطر ببالكم فكرة أن الحياة ليست سوى مجرد وهم فى الأذهان ولا أساس لها فى الواقع، ألم يخطر ببالكم أن أحدًا سوانا لا يملك عقلاً، وأننا نختلق بعقولنا الأشياء والكائنات من حولنا ثم نؤمن بوجودها، ولأضرب لكم مثلاً بنفسى:

فأننى أقف أمامكم الآن برأسى التى تحوى العقل الوحيد فى الكون، والذى يجسد أمام ناظرى أخيلة وأشباحًا مثلكم أو أوهامًا تعز على التأمل أو التصديق مثل الحرب والبيوت والسفن الراسية فى الميناء، ألم يخطر لكم مثل هذا الخاطر؟.

بيد أن ولعه بالتدريس لم ينطفئ، فكنا نلمحه كثيرًا وهو يمضى إلى بيته ناقلاً خطاه على مهل وهو يحمل بين ذراعيه كومة هائلة من الكتب التى تدل عناوينها على اهتمامه بوسائل التدريس وفنونه، كان يوجه إلينا الخطاب قائلاً: إن التدريس علم له قواعد

مثل أى علم آخر، إن السبب وراء عجز ترينداد عن اللحاق بركاب العصر هو أن معلميها يجهلون هذا العلم، ثم يصمت ريثما يتغلغل قوله فى الأعماق قبل أن يواصل قائلاً:

إن التدريس أجل المهن شأنًا فى العالم، فالمعلم يتعهد تدريب عقول الصغار على التفكير، ويلقنهم آداب السلوك القويم.

سرعان ما تبين لنا أن تيتس هويت قر منه العزم على تلقيننا طرق التفكير وأساليبه رغم ما كنا نبديه من اعتراض أو جفول.

أنهى إلينا ذات يوم قراره بإنشاء النادى الاجتماعى والأدبى لشبان شارع ميجل واطلعنا على ونجاح مسعاه فى إقناع رابطة شباب ترينداد وتوباجو فى ضمه إليها والإشراف على أنشطته.

اعتدنا أن نعقد لقاءاتنا فى منزله الذى كان مجهزًا بأطايب الطعام والشراب، كان يغطى الجدران لافتات وملصقات تطالعنا بجوامع الحكم واستشهادات ترمى إلى تقويم السلوك والتزام سبيل الرشاد، بعضها مكتوب بحروف الطباعة بينما اقتطعت الأمثال والحكم الأخرى من المجلات وألصقت على قصاصات من الكرتون.

كما لفت نظرى بشدة كهربية جدول زمنى يزين أحد الجدران كشف عن استمساك تيتس هويت بنظام

صارم دقيق لا يحيد عنه، فهو ينهض من نومه فى الخامسة والنصف، ثم يطالع حتى السادسة آراء بعض الفلاسفة الإغريق، ثم يصرف خمسًا وعشرين دقيقة فى الاستحمام وأداء بعض التمرينات الرياضية، وخمس دقائق أخرى فى مطالعة جريدة الصباح، وعشر دقائق فى تناول طعام الإفطار.

عجبت لشأنه، وإن أنزلته من نفسى منزلة سامية، ورحت أرمقه بعين الإعجاب المقرون بالحسد.

قال تيتس هويت بحماس وهو يقلب عينيه فى وجوه الحاضرين:

إن استطعت أن ألتزم هذا الجدول الزمنى بدقة، فسأجدنى أثقف شتى المعارف فى ظرف ثلاث أو أربع سنوات.

لم يقيض لنادى شارع ميجل أن يعمر طويلاً، ولا يسعنا بهذا الصدد إلا أن ننحى باللائمة على تيتس هويت، إذ أن أحدًا راجح العقل لم يكن ليستخدم بويى سكرتيرًا للنادى، فمعظم محاضر الجلسات التى دونها لم تتضمن شيئًا سوى أسماء الحاضرين.

وفضلاً عن ذلك كنا مضطرين إلى القراءة والكتابة فى أحد الموضوعات الثقافية، إلا أن أنشطة النادى الاجتماعى والأدبى لشبان شارع ميجل اقتصرت على نقد الأفلام السينمائية، فحشرنا أنفسنا فى زمرة النقاد السينمائيين حشرًا بغير دعوة منهم ولا قبول.

قال تيتس هويت بصوت لا يخلو من رنة الأسف: كلا يا فتيان إننى لا أستسيغ انخراطكم فى ثرثرة لا تنقطع ولا ضابط لها عن الأفلام السينمائية ولذا قر منى العزم على السعى كى تحيطكم وسائل الإعلام بالهالات الساطعة.

تساءل بويى بلهجة لا تخلو من احتجاج: ما فائدة الدعاية لنا، فهو فن ابتدعه الألمان!.

انسابت ابتسامة خفيفة لحظة بين شفتى تيتس هويت، ثم تحدث حديث الواثق بنفسه، تسرى فى كلماته رنة العظماء حين يتحدثون إلى من يصغرونهم منزلة وقدرًا: ليس هذا هو المعنى الحقيقى للكلمة، بيد أننا لا نستطيع أن نغفل دور التعليم فى الوقوف على المعنى الحقيقى لمصطلح أو تعبير.

أناب عنا بويى فى حضور المؤتمر السنوى لرابطة الشباب. بعد انتهاء أعمال المؤتمر عاد إلينا يفور بالغضب فورًا.

هتف وهو يعبس فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية:

لقد انقلب المؤتمر سيركا تغص جنباته بالبهلوانات، لا عجب فجميع المشاركين فى أعمال المؤتمر ممن جف عودهم واشتعلت رءوسهم شيبًا.

فتر حماسنا للكوكاكولا والكعك والآيس كريم حتى كاد ينطفئ كما تنطفئ شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة.

ولذا اعتل البعض على التهرب من الاجتماعات بشتى العلل.

بيد أن شعلة حماس تيتس هويت للنادى لم تذبل، فجعل يبحث فى الرماد الخابى ولو عن قبس، وفى الليل الحالك ولو عن شعاع، هبطت عليه فكرة من السماء فعششت فى رأسه اندفع ذات يوم يقول بحماس وكأنه وجد بريق أمل:

سوف يقوم النادى بزيارة الأحد القادم لحصن جورج.

تطايرت زعقات الغضب والسخط.

ضيق تيتس هويت عينيه امتعاضًا وقال بسخط واضح:

إنكم لا تكترثون لمصير بلدكم، إننى أعلم أنكم تجهلون هذا الأثر التاريخى كلية، رغم أنه يشكل جزءًا من تاريخ بلادكم، عليكم أن تتذكروا أن شبان وشابات اليوم هم رجال الغد ونساؤه، وأننى أتذكر الآن مثلاً أطلقه الرومان القدماء:

العقل السليم فى الجسد السليم (ألقاه علينا باللاتينية)، ولذا فسوف نقطع الطريق إلى قلعة جورج سيرا على الأقدام.

ورغم هذا لم نتزحزح عن إصرارنا قيد حبة رمل.

قال مستمسكًا بآخر خيط للأمل: بوسعكم عندما تصعدون إلى قمة التل الاستحمام فى جدول، مياهه

فى صفاء الورد، بينما يهفو على وجوهكم نسيم رطيب بارد والشمس تريق عليكم شعاعها الدافئ.

سرت كلماته فى أنفسنا مسرى السحر، وطارت بنا النشوة فوق الهواجس.

فى صبيحة يوم الأحد التالى استقللنا جميعًا التروللى باص المتجه إلى موكورابو.

وعندما جاء الكمسارى ليجبى منا الأجور، قال له تيتس هويت بنبرة لا تخلو من امتعاض: عد إلينا فيما بعد لا تخش شيئًا فلن نزوغ من دفع الأجرة إلا أننا لم ندفع الأجرة للكمسارى إلا عندما ترجلنا من السيارة، كانت قيمة الأجرة حوالى شلنين لكل فرد منا، لكن تيتس هويت أعطى الكمسارى شلنا واحدًا قائلاً وهو يغمز بعينه اليسرى:

إننا لا نريد تذاكر.

التصقت شفاهنا فى توتر من يغالب ضحكة تغالبه، فى حين تفجر صدر الرجلين عن ضحكات بلهاء الرنين.

رقينا الطريق الملتوى الصاعد إلى التل الذى كان يختفى أديمه تحت ركام الأتربة الحمراء تلفحنا الشمس بوقدتها الكاوية.

ابتسم تيتس هويت ابتسامة العالم بكل شىء وقال فى حماس مظفر: لقد شيد هذا الحصن لصد هجمات الغزاة الفرنسيين وغيرهم من الطامعين.

دهشنا دهشة لم نكد نصدق معها آذاننا، إذ لم يخيل إلينا قط إن بلادنا يمكن أن تكون موضع حظوة ومعقد آمال البلاد الأخرى.

ثم واصل هات مغمغمًا وكأنما يهامس نفسه: حدث هذا فى عام ١٨٠٣ عندما كنا نحارب نابليون.

رأينا عددًا قليلاً من المدافع القديمة وقد استقرت على جانبى الممر يعلوها الصدأ، وأكوامًا من القنابل الصدئة.

سألت تيتس هويت بصوت تشى نبراته بانفعالى وتأثرى:

هل غزا الفرنسيون ترينداد يا سيد تيتس هويت؟

فهز رأسه فى أسى وقال بصوت تقطعه حشرجة اليأس وخيبة الأمل، ويقطر أسفًا وحزنًا: لا لم يشنوا هجومهم المتوقع، بيد أننا كنا على أتم استعداد كى نخسف بهم الأرض ليكونوا موطئ نعال.

تساءل بويى وقد غلبه القنوط: هل أنت واثق أن ثمة جدولا يعلو هذا التل كما أخبرتنا يا سيد تيتس هويت؟

أغمض تيتس هويت عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده.

ثم قال: أتظننى كذابًا يا رجل؟

فقال بويى متوددًا بحلق جاف: إننى لم أقصد شيئًا بتساؤلى هذا.

سرنا بخطوات ثقيلة والعرق يتصبب من أجسادنا حتى بلل ملابسنا. تفشى فى الجو ضيق وكدر فخلع بويى حذاءه إذ كان يؤثر أن ينتعل التراب توفيرًا لحذائه أو ربما ضيقًا بارتدائه.

صاح إرول وقد ارتسمت فى أساريره صورة كالحة للشر:

لو تمخض هذا الجدول عن أكذوبة عفنة، فإننا سوف ننهال على من افترى هذه الكذبة ضربًا حتى يسقط مغشيًا عليه.

صعدنا إلى قمة التل، وجعلنا نقلب الأعين فى الجبانة التى تناثر فى جنباتها مقابر الجنود البريطانيين الذين لقوا حتفهم منذ زمن بعيد.

تراءت مدينة بورت أوف سبين لعيوننا من خلال المنظار المقرب مدينة ضخمة مترامية الأطراف طولاً وعرضًا، بطرقها التى تغص بالغادين والرائحين.

ثم غادرنا موقفنا تتنازعنا مشاعر الأمل واليأس، ورحنا نبحث عن الجدول دون جدوى.

قال تيتس هويت ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: إننى واثق أن الجدول فى هذه البقعة، إذ اعتدت أن أستحم فى مياهه عندما كنت صبيًا.

بادره بويى مروحًا عن غيظه الذى عز عليه المتنفس:

وما الذى حدث له؟ هل تبخرت مياهه؟

فأجاب تيتس هويت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل:

نعم.. أظن أنه جف.

لا عجب أن اهتاج بويى الغيظ وغشى وجهه ضباب الغضب، فقد تجشمنا عناء يفوق احتمال البشر فى صعود التل، وكنا نحس بحرارة العطش تكاد تحرق حلوقنا، ونشعر بوطأة الحر الذى كاد يزهق الأنفاس، نفس بويى عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر، وراح يقذف تيتس هويت بسيل من السباب المقذع.

قال تيتس هويت وهو يتمالك أنفاسه المضطربة: لا تنس يا بويى أنك سكرتير النادى الأدبى والاجتماعى لشبان شارع ميجل، وتذكر أيضًا أنك عائد لتوك من اجتماع رابطة الشباب بصفتك مندوبًا عن نادينا، تذكر هذه الأمور جيدًا.

فصاح به بويى بوجه مصفر من الغضب: غر فى داهية!

تسمرنا فى أماكننا مذهولين وقد هربت قلوبنا فى أعماقنا.

لم يسعنا بعد هذا الحدث الأليم سوى أن نعلن عن وفاة نادينا الأدبى.

حصل تيتس هويت بعد هذا الحدث بفترة قصيرة على درجة العالمية فى الآداب، وأنشأ مدرسة. علقت

فى أعلى مدخل بيته لافتة كبيرة تحمل الإعلان التالى:

«تيتس هويت ـ حامل لدرجة العالمية فى الآداب

(لندن ـ من منازلهم)

شهادات معتمدة من مدرسة كمبردج»

تفتق ذهن محررى جريدة الجارديان فى أحد الأعوام عن فكرة غاية فى الذكاء. إذ أسسوا صندوق لجنة الخيرات بغية العطف على البائس والحنو على المحروم فى أعياد الكريسماس.

تردد اسم هذا الصندوق على الألسنة كأنشودة لعاطفة الخير التى لاتزال تعمر القلوب، وبعد سنوات قلائل أطلق على هذا الصندوق اسم صندوق لجنة الخيرات لمساعدة من بلغوا من العوز أدناه وفى مطلع شهر نوفمبر أعلنت الجريدة قيمة التبرعات التى تستهدف جمعها لصالح الصندوق، رحنا نتابع أنباء الصندوق بانتباه منصهر حتى حلول ليلة الكريسماس من كل عام، تصدر نبأ التبرعات واسماء المتبرعين الصفحة الأولى فى الصحف.

وفى منتصف شهر ديسمبر من أحد الأعوام عندما ارتفعت حرارة الاهتمام لدرجة الغليان ظهر اسم شارع ميجل فى إحدى الصحف اطلعنا هات على الخبر فى الجريدة.

قارئى الكريم نشدتك الله أن تتهج على مثال هذا الرجل الذى تعمر عاطفة الخير صدره وتترسم خطاه!.

تلقينا خطابًا يحمل إمضاء: السيد تيتس هويت: شهادة العالمية فى الآداب ناظر مدرسة فى شارع ميجل، بورت أوف سبين، سررنا بهذا الخطاب سرورًا لا مزيد عليه.

حرر هذا الخطاب الغفل من الإمضاء أحد تلاميذ تيتس هويت، وافق هويت على نشر الخطاب كاملاً غير منقوص فى الجريدة: عزيزى السيد هويت إن سنى لا يتجاوز الثامنة، وكما تعلم فإننى عضو فى جمعية لجنة الخيرات التابعة لصحيفة الجارديان.

وإننى أواظب على قراءة مقال العمة جوانيتا كل يوم أحد، إنك سيدى العزيز لا تنى عن الإشادة بعاطفة الخير التى تعمر القلوب، وبالدور الرائع الذى تنهض به لجنة مساعدة البؤساء تحت إشراف صحيفة الجارديان لإزاحة الهموم عن صدورهم دفعة واحدة حتى يتبخر ذل القهر وانكسار القلب، وتهزج النفوس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون، ولذا قر منى العزم على الامتثال لنصيحتك بأن ينصرف المرء بجهده بحثًا عن مصباح يزيح به هذا الظلام، إننى لا يسعنى سوى التبرع بمبلغ ضئيل... ستة سنتات فقط... خذها يا سيد هويت وأودعها فى صندوق مساعدة البؤساء، إننى أغمغم بالدعاء أن

يتملى البؤساء الذين بلغوا من العوز أدناه الحياة صفاء خالصًا، إننى أعلم أنه مبلغ ضئيل، بيد أننى أنهج على مثال الأرملة العمة جوانيتا، التى تعطف على البائس وتحنو على المحروم، يعمر قلبى عاطفة الخير.

أرجو أن تتقبل سيدى العزيز أصدق تحيات أحد تلاميذك المخلصين.

كما ازدانت الصحيفة بصورة ضخمة لتيتس هويت، وقد تألق ثغره بابتسامة وضيئة وهو يحملق فى الكاميرا التى بهرت عينيه بضوئها القوى.

(١٠)
«غريزة الأمومة»

يخيل إلى أن لورا قد حققت رقمًا قياسيًا. إذ أنجبت ثمانية أطفال، هذه الحقيقة لا تشيع فى النفس الدهشة أو العجب. إلا أن ما تتفغر له الأفواه من عجب هو أن هؤلاء الأطفال الثمانية أنجبتهم من سبعة رجال، أعجب بها من حقيقة تعز على التصديق! لقد لقنت على يدى لورا أول درس فى علم الأحياء. كانت تقيم فى بيت ملاصق لمنزلنا، ولذا وجدتنى أراقبها عن كثب، فكنت ألحظ بطنها لشهور طوال وهى تتكور ثم تنداح وهى تمشى منفرجة الساقين كأنها ذات داء، ثم يتبع ذلك غيابها عن ناظرى لفترة قصيرة، وسرعان ما تعاود الظهور وقد استرد عودها هيئته الأصلية، بيد أنه لا تنقضى شهور قلائل حتى يبرز بطنها أمامها مجددًا، أشاعت تلك الأحداث فى نفسى مزيجًا من العجب والحيرة ووجدتنى أراقبها بهمة لا تعرف الكلال، وقد تهللت بالبشر أساريرها وتألقت عيناها بالفرح والغبطة. كانت تقول بصراحة معهودة فيها: هأنا أخبر نفس الحدث مجددًا. بيد أنك تعتاد الأمر بعد فترات الحمل الثلاث أو الأربع

الأولى، وإن لم يخل الحدث من تكدير لصفوك عندما تحس بدبيب آلام الحمل.

اعتادت أن تنحى باللائمة على الأقدار، وتفيض فى الحديث عن رغبات الرجال الجامحة، وسلوكهم سبيل الضلال، أنجبت أطفالها الست الأول من معاشرة ستة رجال مختلفين، اعتاد هات أن يعلق على هذا الأمر قائلاً: ثمة أناس يصعب إرضاؤهم. بيد أننى لا أريد أن أرسب فى ذهنك انطباعًا بان لورا كانت تقضى جل وقتها فى إنجاب الأطفال وقذف الرجال بسيل من اللعنات الفاحشة. أو السكر بنقيع الأحزان حتى تغرق فإن كان بوجارت من أكثر سكان شارعنا إحساسًا بالملل الذى تسلل إلى صميم روحه ومازج نفسه كما تمازج مرارة المرض اللعاب، فإن لورا كان يرقص بين ضلوعها حماس بهيج، وكانت تتبدى دومًا بوجه يطفح بشرًا، وقد شاع فى نفسها سرور كالخمر، كما كانت تشغف بى أيما شغف.

كانت تهبنى ثمار البرقوق والمانجو وبعض الكعك الذى تصنعه بالمنزل حتى أمى التى كانت تضمر كراهة نحو من تفر منه ضحكة، خاصة إن بدرت منى، اعتادت أن تضحك ملء شدقيها من نوادرها، كانت تقول بسخرية خفية فى الأعماق: إننى لا أدرى لماذا تغمرك لورا بفيض من التدليل والإعجاب كما لو كانت يعوزها أطفال تبذل لهم الحنان محضًا صافيًا.

أعتقد أن أمى أصابت بقولها مفصل الحق. إذ لم يخيل إلىَّ قط أن امرأة مثل لورا يمكن أن تنجب مثل هذه القبيلة من الأطفال.

كان قلبها يفيض بحب جميع أطفالها رغم أن هذا الحب كان يعز على تصديق كل من يتناهى إلى سمعه ألفاظ السباب المقذع التى كانت تقذف بها أطفالها الذين تهيم بهم هيامًا، كانت زعقات الغضب والويل التى تند عن فيها تتضمن سيلاً من اللعنات الفاحشة لم تقرع أذنى مثيلها قط، ولذا فإن ذاكرتى تحتفظ بها حتى الآن، وكأنها احتفرت فيها بمسمار من نار.

قال لى هات بلهجة تشى بالدهشة وإن لم تخل من إعجاب: إن بلاغة ما تتفوه به من ألفاظ ليسلكها فى نطاق بلغاء العصور الماضية من الشعراء المحترفين مثل شكسبير، كانت لا تتقطع عن الصياح حتى ألم بأوتار صوتها، الألم من الزعق: الوين! يا حيوان كف عن الثرثرة، وتعال هنا أو تصيح بجافين بوجه مصفر من الغضب: جافين! إن لم تأت إلى هنا فى الحال، فسوف أعجنك حتى لا يعرف لك رأس من قدم. هل تسمعنى؟ أو تهتف بصوت مخنوق النبرات: لورنا! أنت يا قذرة يا مكشوفة العفة! لماذا تتكاسلين عن أداء عملك؟

إلا أن المقارنة بين لورا بأطفالها الثمانية، ومارى المرأة الصينية وهى أم لثمانية أطفال أيضًا تنطوى على ظلم بين فإن كانت مارى تغمر أطفالها بفيض من

الرعـاية ولا تغلظ لهم فى القـول أبدًا، فـإنهـا كـانت تحظى بزوج يملك حـانوتًا لبـيع الحلوى، ولذا كـان بوسعها أن تغدق عليهم أعذب ألحان المودة والتشجيع بعـد أن تحـشـو جـيـوبهم بصنوف من الحلوى تحـمل أسـماء يخطئها الحصـر، بيد أننا نتسـاءل عن المرء الذى يسع لورا اللجـوء إليـه ليقيم أود أطفالهـا؟ أمـا الدراجـات التى تتبـاطأ فـى سيـرهـا عندمـا تمـر أمـام منزل لورا فى المساء، فإن راكبيها الذى لا يكفون عن الصفير بأفواههم يقبضون أيديهم عن أطفالها، إذ أن لورا هى مـوضع الحظوة ومعـقد الآمـال. سـألت أمى: كيف تتعيش لورا؟

رفعت يدها وهوت بكفها على قفاى بكل ما أوتيت من قوة قائلة: أنك تعلم رغم صغر سنك يا ماكر.

شـردت فى خـواطر انقـبض لهـا قلبى خـوفًا، وداعبتنى آمال فى تبدد ظنونى وتلاشى هواجسى.

ولذا سـألت هات فأجاب: «إن لها أصدقاء يبيعون فى الأسواق يعطونها سلعًا دون مقابل، كما أن زوجين أو ثلاثة من أزواجهـا السابقين يهبونهـا أحيانًا بعض المال أما الأمر الذى يثير بالغ الدهشة والحيرة فهو قبح وجهها لحد الازدراء، الذى وصفه بويى ذات يوم بأنه يشابه سطح بطارية سيارة كما كانت بدينة لحد الإفراط، إلا أن ما قلت يصف مظهرها بعد إنجاب ستة أطفال فقط.

قال هات ذات يوم باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل: لقد اتخذت لورا عشيقًا جديدًا. ضج الجميع بالضحك.

قال أحدهم وقد لاحت فى عينيه نظرة ماكرة: ليس هذا بالنبأ الذى يثير دهشة أو عجب. فإن لورا إذا ما أتيح لها أن تترك زمامها لدفعات الهوى، لاشتبكت فى علاقة غرامية مع جميع رجال الحى لا نستثنى منهم أحدًا، لكن هات قال وهو يرسم على شفتيه الممتعضتين شبه ابتسامة: «إن الأمر جاد هذه المرة. لقد انتقل إلى منزلها بغرض الإقامة الدائمة معها، رأيته صباح اليوم وأنا أسوق الأبقار إلى الحقل» انفعلنا بالنبأ لحد الهذيان وجعلنا نتابع تحركاته بانتباه منصهر بيد أنا علمنا فيما بعد أنه كان يرقبنا أيضًا عن كثب، وينتظر أول بادرة منا لضمه إلى العصابة.

وسرعان ما سلك ناثانيل نفسه فى زمرة عصابة شارع ميجل. إلا أنه اتضح لنا بجلاء صعوبة اندماجه فى زمرتنا. إذ أنه كان وافدًا من أحد أحياء الطرف الشرقى لبورت أوف سبين الذى كان يعد قياسًا حتى إلى شارعنا، حيًا موحلاً فى القذارة، كما كان لسانه يسيل بأقوال بذيئة.

قال لنا بعبارة بينة إن الناس فى شارع بيكاديللى فى الحى الشرقى كانت تتفكك مفاصلهم من الرعب الذى لا يوصف عند ذكر اسمه كما قص علينا قصصًا

عديدة عن المعارك التى كانت تنشب بين عصابات الحى، كما صارحنا بأنه سبق له أن نكل تنكيلاً مروعًا برجلين أو ثلاثة مخلفًا ندبات فى وجوههم لا تمحى.

قال هات ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: إن الأكاذيب تنبعث فى نفسه بوحى البديهة.

وجدتنى أرجف الظن بهذا الرجل وأسىء الرأى فيه، فقد كان قصير القامة صغير الجسم، وكان يساورنى دومًا شعور بأن مثل هؤلاء الرجال تفور جراثيم العدوان فى دمائهم ويتلذذون بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكم فى مصائرهم.

بيد أن موقفه حيال النساء هو الذى أثار فى نفوسنا امتعاضًا كدر علينا صفونا ورغم أن أحدًا منا لم يكن لطيف المعشر أو جم المروءة إلا أن ناثانيل كان يضمر للنساء ازدراء أثار استهجاننا واستياءنا إذ كان يلذع كل امرأة تمر أمامنا بنكاته القاسية فكان يقول: إن النساء كالأبقار دون مراء وعندما كانت ميس ريكود تمر أمامنا وهى تتبختر كالمحمل، كان يقول وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة: انظروا إلى هذه المرأة التى تشبه البقرة، وهى ملاحظة تجافى الذوق السليم وتنوء عنه، إذ كنا نعتقد أن ميس ريكود بدينة لحد يثير الإشفاق لا الضحك، حاول ناثانيل فى أول عهده بمعاشرة لورا أن يرسب فى أذهاننا قدرته على استئناسها فكان يضمن أحاديثه إلينا إيماءات تنبئ عن تسليطه سوط الإرهاب عليها وانهياله عليها ضربًا وصفعًا. فكان يقول:

إن النساء يستمرأن اللكلمات والصفعات وهو ما تشير إليه كلمات الأغنية الشعبية التى تعد من جوامع الحكم:

«ابتدرها بلطمة من حين إلى آخر يظلم لها الجو فى عينيها،

وجه إليها الضربات من حين لآخر حتى تسقط مغشيًا عليها

وجه لطمة صادقة إلى عينها تخلف هالة سوداء تطوقها

وأركلها بقدمك فى ركبتها بكل قوتك حتى تصيبها بكدمات

وعندها سوف يفيض من قلبها نبع حنان متدفق».

قال هات متفلسفًا: إن المرأة لغز يستغلق على الأفهام إننى أعجب من امرأة مثل لورا تقع فى هوى رجل مثل ناثانيل!

قال أدوس بلهجة تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم: إننى فسيح الخبرة بأحوال النساء. أعتقد أن ناثانيل يصوم عن الصدق، ويفطر على الكذب ولذا أرى أن قلبه يخفق مذعورًا وترتعد مفاصله لرؤيتها فهى لا تهابه كما يدعى.

كان الصراخ يعلو مختلطًا بصوت هادر مصحوبًا بعويل الأطفال، وعندما كنا نرى ناثانيل أثر انتهاء كل شجار كان يقول بلهجة مقتضبة: كنت ألقنها درسًا كى تثوب إلى رشدها.

وكان هات يقول: إن الأمر الذى يدعو إلى العجب والحيرة أن وجهها يطفح بالفرح.

فيجيبه ناثانيل: أنها تستمرئ الصفعات واللكمات نشدانا للسعادة الحقة.

كان يكذب بطبيعة الحال. إذا كانت لورا تنهال عليه ضربًا وصفعًا، وقد اتضح هذا الأمر على نحو جلى عندما ارتدى ناثانيل قبعة أمالها على جبهته ليخفى عينه المتورمة.

قال أدوس فى لهجة لا تخلو من سخرية: يخيل إلى أن هذه الأغنية الشعبية تصف حال الرجل بصدق وليس حال لورا. ندت عن ناثانيل حركة تنذر برغبته فى الانقضاض على أدوس الذى كان صغير الجسم ونحيلا لدرجة مخيفة كأنه محض عظام صاح، هات وقد بلغ به الغضب منتهاه: فلتغدق هذا الزجر والتأديب على لورا، فإننى أعلم أن بمقدورها أن تهصرك كما تهصر وردة بين أصابعها، ولكنها تغالب غيظها وسخطها أن يجرفها غضب مفاجئ فتقبرك بضربة واحدة، ولذا لن تجد لنفسك بدا من أن تطلق ساقيك للريح فرارا بحياتك عندما تشعر أنك تبعث فى نفسها الملل.

بتنا نحترق توقًا إلى حدث يدفع ناثانيل إلى مغادرة شارع ميجل.

قال هات فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: لن ننتظر طويلاً، فلورا الآن فى الشهر الثامن

من حملها، ولذا لن ينقضى شهر حتى يذهب ناثانيل دون رجعة.

قال أدوس وشبه ابتسامة تلوح فى عينيه: لقد حققت لورا إنجازًا يعز على التصديق بإنجابها سبعة أطفال من سبعة رجال مختلفين.

شعرت لورا بدبيب آلام الوضع فى يوم السبت. كنت قد لمحتها فى الليلة الفائتة واقفة فى فناء منزلها وقد اعتمدت سوره بساعديها.

جاءها المخاض فى الثامنة صباحًا، بيد أن ما يدعو إلى العجب لحد الذهول أنها شوهدت بعد الوضع بساعتين وقد اعتمدت حافة النافذة بمرفقيها تنادى على أمى. تواريت تحت سقيفة الياسمين وتطلعت باهتمام وشغف إلى المشهد العجيب، كانت تلتهم ثمرة مانجو بنهم وقد غشى وجهها وبشرتها طبقة غليظة من عصير المانجو الأصفر اللون.

سمعتها تقول لأمى برقة متوددة: لقد رزقت بمولود جديد صباح اليوم.

تساءلت أمى باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل: ولد أم بنت؟ فأجابت: هل تعتقدين أن الحظ يمكن أن يتقدمنى؟ إننى منكودة الحظ لامراء فقد أنجبت فتاة أخرى. لقد هفت نفسى فحسب إلى مطالعتك بهذا الخبر. إلا أننى يجب أن أنصرف الآن لحياكة بعض الثياب.

خيل إلىَّ فى هذا المساء أن نبوءة هات سوف تتحقق إذ أننى رأيتها تغادر المنزل وتتخذ موقفها من الطوار وهى تصيح بوجه مكفهر: ناثانيل! تعال هنا!.

قال هات ساخطًا: اللعنة! ما هذا الذى يحدث؟ ألم تلد هذا الصباح؟

حاول ناثانيل أن يصطنع هيئة تشع صرامة ووقارًا، فخاطبها قائلاً: ثمة مشاغل تستغرقنى الآن. دعينى وشأنى.

خطت لورا بضع خطوات صوبنا وقد انعقدت فى عينيها نظرة مخيفة، صاحت بصوت يهدر بالغضب: كيف تجرؤ؟ ما هذا الهراء الذى تتفوه به؟.

تصلب ناثانيل فى وقفته وقد تولاه شعور بالخوف لا يستطيع منه فكاكًا، حاول أن يبادلنا الحديث مصطنعًا عدم الاكتراث بالمخاوف التى حامت حوله كالذباب، إلا أن بصره زاغ فى رعب، وتعثرت الألفاظ على شفتيه مقاطع ممزقة مبتورة.

صاحت والغضب يشتعل تحت قبضة إرادتها: أتتحدانى؟ هل تظن أنك رجل؟ لا تحاول أن تتصنع الإقدام والشجاعة اللائقين بالرجال... نعم يا ناثانيل إننى أوجه الحديث إليك بردفيك المترهلين كامرأة عجوز.

كان هذا خير ما سمعنا من ألفاظ سباب مقذع يند عن فيها، ولذا لعلعت فى الجو ضحكاتنا. وعندما

رأتنا لورا نغرق فى هذا الضحك الهستيرى، انبسطت أساريرها فاسترسلت ضاحكة حتى دمعت عيناها.

قال هات وسط ضحكاته: إن هذه المرأة مثال فى البراعة والذكاء المصحوب بالحزم.

إلا أنه لسوء حظنا لم يغادر ناثانيل شارع ميجل حتى بعد إنجابها طفلة منه، ولذا استحوذ علينا القلق والجزع.

قال هات مغلفًا قوله بنبرة نذير: إن لم تستمسك لورا بالحذر الشديد فسوف تنجب لهذا الرجل طفلاً آخر.

لا يمكن أن ننحى على لورا باللائمة لبقائه فى شارعنا. فقد كانت تصليه إهانة تلو إهانة وسخرية بعد سخرية، أو تكيل له الضربات على رأسه ووجهه على مسمع ومشهد من الناس.

وأحيانًا كانت تغلق باب المنزل دونه وتصر على بقائه بالخارج فكان يترامى إلى أسماعنا صراخه الممزق بوحشية اليأس وإن كانت تند عن فيه أحيانًا الوعود المعسولة من فوق الطوار: «لورا يا حبيبتى يا حبة قلبى وقرة عينى، ومنبع حبى، افتحى الباب لأبيت هذه الليلة فقط فى منزلك».

كف عن التظاهر الآن بتسليط سوط الإرهاب عليها، ولم يعد ينشد صحبتنا، فغمرت الأفئدة طمأنينة سعيدة، وأضاءت الوجوه بنور بهيج.

كان هات يقول ـ كعادته ـ وهو ساخط: إننى لا أدرى السبب وراء إحجامه عن العودة إلى دراى ريفر التى أتى منها فأهل دراى ريفر يفتقرون إلى رهافة الحس والشعور، ولذا فإن حياته هناك سوف تصفو من شوائب الكدر التى تنغص عليه صفوه هنا.

استغلق علىّ فهم الدافع وراء بقائه فى شارع ميجل.

قال هات بلهجة الانتقاد المر: ثمة رجال يجدون قرة أعينهم فى ارتماء النساء على سواعدهم وغرس أسنانهن فيها،أو تلقى الصفعات المدوية على الأقفية.

تراكم غضب لورا كزوبعة فى الأفق، وتطاير فى الجو نذر شر مستطير.

صاحت فيه ذات يوم وقد التهب الغضب بقلبها: هل تعتقد أنك قد ملكتنى لأننى أنجبت منك طفلاً. أننى لم أرغب فى مجىء هذا الطفل هل تستوعب ما أقول؟

كما هددته باللجوء إلى الشرطة، فتساءل ناثانيل ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: ومن يحنو على أطفالك ويسهر بنفسه على رعايتهم؟

فأجابت مجتاحة بدفقة غضب: إن أطفالى منبع همى. بيد أننى لا أريد أحدًا هنا، إن الجوع يرصدنا كأنما لا يجد فريسة سوانا ووجودك بيننا يزيد الأفواه الجائعة فاها آخر، فإذا لم ترحل من فورك، فسوف

أستدعى الرقيب تشارلز ليسوقك من قفاك إلى القسم.

شعر بيد ثلجية تقبض على قلبه، وأوشك أن يتلاشى من الرعب فانعقد لسانه، ولم يجد لنفسه بدا من الرحيل، فارق شارعنا وعيناه تسحان دمعًا مدرارًا. إلا أن بطن لورا انداحت بعد تكور منذرة بمجىء طفل جديد.

قال هات والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته: يا إلهى سوف تنجب من نفس الرجل طفلين.

من عجائب الحياة التى لا تنقطع فى شارعنا أن أحدًا من سكانه لم يتضور جوعًا.

يخيل إلىَّ أنك إذا جلست إلى منضدة وبسطت على سطحها ورقة بيضاء وشرعت تخط فى عمودين يقسمانها إلى نصفين متساويين منصرف كل فرد فى شارعنا ودخله، لأدركت استحالة توازن ميزانيته المحدودة، بيد أننى كأحد سكان هذا الشارع كنت على معرفة واسعة بأحوال قاطنيه، ولذا فإنه يسعنى أن أؤكد لك أن أحدًا لم يتضور جوعًا، ربما كانوا يبيتون على الطوى، ولكنهم كانوا يسدلون على معاناتهم ستارًا كثيفًا من السرية.

عندما استوت لورنا، ابنتها الكبرى، شابة ناضجة، عملت خادمة محترفة فى منزل فى سانت كلير، ودرست فى نفس الوقت الكتابة على الآلة الكاتبة عند مدرس خصوصى فى شارع ساكفيل .

كم كانت لورا تقول: إن شيئًا فى هذا العالم لا يعدل العلم وسيلة لتحقيق الرفعة للمرء، وتهذيب الحس منه،إننى أنشد لأطفالى أن يترامى المستقبل أمامهم فسيحًا باهرًا.

ثم أنجبت لورا طفلها الثامن - كعادتها - دون أن تتجشم عناء أو تكابد آلام الوضع.

كان هذا الطفل آخر من أنجبت، لم يكن انقطاعها عن الإنجاب لأن الحمل المتكرر أنهك قواها وهدها هدًا، أو لأن معين حبها للجنس البشرى قد غاض وانقطع عنها مدده، أو فتر حماسها لإطلاق المدى لذريتها.

فهى فى حقيقة الأمر كانت تتألق دومًا بنور الشباب، ولم تنطفئ فى نفسها جذوة السعادة قط لذا لم يفارقنى إحساسى بأنها لم تكن لتكف عن الإنجاب لو أتيحت لها الفرصة مجددا.

فى ذات ليلة عادت ابنتها الكبرى لورنا إلى البيت من درس الآلة الكاتبة وقد هجع الشارع تحت ستار الليل، وكاشفت أمها الحقيقة عارية عن كل تخفيف: إننى حبلى يا أمى.

هزت الشارع صرخة مدوية انطلقت من حلق لورا كالعواء.

كانت هذه أول مرة يصك أذنى عويل لورا، انخرطت فى بكاء عصبى طويل كى تروح عن نفسها

الملتاعة التى كانت تتوارى وراء قناع من الضحكات، كان يتناهى إلى سمعى أحيانا صراخ وعويل المشيعين وهم يمضون وراء النعوش، بيد أنهم كانوا يتلثمون بقناع زائف من الحزن واللوعة إلا أن صراخ لورا فى تلك الليلة دوى فى أذنى دوى تصويت ونواح أحسست بتفجرهما من أضلعها، احتقن قلبى بالتعاسة، ودهمنى حزن شديد الضراوة حتى راودتنى الرغبة فى الصياح والعويل.

تعالى صراخ لورا فى هدأة الليل فمزق السكون تمزيقًا.

فى صباح اليوم التالى بث بويى حنقه فى نبرات صوته وهو يقول عابسًا: إننى لا أدرى السبب وراء ثورتها الجامحة وغضبتها الكاسرة، فهى تذعن لشهواتها كلية مثل ابنتها.

انفجر فى رأس هات بركان من الغضب وقام هائجًا كالأسد المتوثب، وفك حزام بنطلونه، وانهال عليه بالضربات حتى سوى به الأرض.

غشينى حزن صادق لم أتبين إن كان مصدره رثائى للورا أم لابنتها.

أحسست أن لورا يضنيها الحياء والارتباك وأن إحساسها بالخزى يحول دون خروجها إلى الشارع بيد أننى عندما رأيتها بعد ذلك فى الشارع غمرتنى موجة عالية من الذهول وساورنى شك فى أننى التبس علىَّ شبهها إذ لم أصدق أنها نفس المرأة التى اعتادت أن

تداعبنى وتهبنى قطع الكعك جف عودها وتغضن وجهها وأدركتها شيخوخة مبكرة لم يعد دوى صراخها يجعجع فى الآذان، ولم تعد تكيل الضربات الوحشية لأطفالها، وبت لا أدرى إن كانت لاتزال توقف حياتها على تربيتهم أم ذبلت شعلة اهتمامها بهم.

بيد أننا لم نسمع لورا تلقى على ابنتها لورنا باللائمة أو تكيل لها التهم، انعقدت فوق الرءوس تساؤلات مبهمة عادت لورنا بطفلها إلى البيت. لم نعد ننثر فى غضون أحاديثنا النكات أو نتناول لورنا بألسنة الهزء والسخرية.

تسربل البيت فى هدوء مريب وحط عليه الصمت كصخرة قال هات بصوت تمزقه الشكوى: «ها هى التعاسة تتمطى بلا حدود ويتفشى فى الجو أسى عميق. فالمرء يستشعر نذر الكدر تحدق به وإن كان لا يسعه مدافعتها إذ ليس بمقدورك سوى أن تزامل الصبر، وتسلم نفسك إلى المقادير».

سرعان ما طالعتنا الصحف أثناء عطلة نهاية الأسبوع بمأساة من بين مآس عدة يخطئها الحصر ابتلى بها شارعنا. لقيت لورنا حتفها غرقًا فى كارتيدج قال هات بلهجة آسفة: إن هذا ما يفعله الناس دومًا فهم يسبحون حتى تنبهر أنفاسهم وتخور قواهم فيعجزون عن السباحة.

وعندما جاءت الشرطة لإحاطة لورا بالخبر الأليم. تبادلت معهم كلمات قليلة ثم غلب الصمت لسانها.

وفى اليوم التالى قالت بلهجة تنم عن رغبتها فى قفل باب الحديث: إن ما حدث أمر طيب، فهو يطمس آثار الفضيحة.

* * *



(١١)

العربة الزرقاء

ثمة أسباب عدة وراء عزمي على أن أنهج على مثال أدوس كي أفوز بمركز كمركزه عندما استوى رجلا، فهو كان يعد أحد الأرستقراطيين في شارعنا إذ كان يقود عربة القمامة، ولذا كان يعمل في الصباح فقط.

كما أن أدوس - كما أشيع عنه - «فتى ملاحم البطولة»، بيد أن هذا لم يكن يعني أنه ينظم الشعر الملحمي، بل كان يعني أنه دمث الأخلاق، لين الجانب، رقيق الحاشية، يركن إلى الدعة والراحة، أنيق الملبس والهندام، يجري وراء نوازعه، ويجد قرة عينه في النساء.

وكم كان هات يردد بلهجة ناطقة بالإعجاب: بالقياس إلى رجل يقود عربة قمامة، فإن نظافة أدوس وجدة ثيابه يستحقان عظيم الاطراء.

كان أدوس مهجوسًا بالنظافة لحد الجنون. إذ اعتاد أن ينظف أسنانه بالفرشاة لساعات طوال دون انقطاع، ولذا فإنك عندما تصف أدوس لشخص

غريب، فيكفيك أن تقول: «ذلك الرجل صغير الجسم الذى لا تفارق فرشاة الأسنان فاه «كنت أنظر إليه منبهرًا وقد رشق بين شفتيه الفرشاة المهملة ولذا ترسمت خطاه فى ظهيرة أحد الأيام ورشقت بين شفتى فرشاة ومضيت أتسكع بين جنبات فناء منزلنا. وقد داخلنى شعور بالثقة والزهو والخيلاء.

قالت أمى بلهجة الانتقاد المر: ألا تستحى من محاكاة الرجال وأنت تبول - كعادتك - على نفسك؟ استكنت الإهانة فى جوفى كالخنجر، وظللت لأيام طوال أتجرع الذل والمهانة حتى الثمالة، بيد أن ارتطامى بالخيبة لم يحل دون دس الفرشاة فى فمى فى فناء المدرسة وداخل الفصل، انتشرت الحكاية كاللهب فى وكالة خشب، وغدوت ملء الأسماع صيتاً بعيدا، وسطع ضوئى فخطف بريقه الأبصار. بيد أننى سرعان ما أدركت أن رجلا فى حجم ومكانة أدوس هو الذى يسعه فقط أن يمضى بفرشاة تتدلى من فمه محاطا بهالة من الإعجاب.

تبدى أدوس دومًا أنيق الملبس والهندام ببنطلونه الكاكى الذى نظمته المكواة وامتدت ثنيتاه كحد السيف، وحذائه اللامع، كان يمضى فى قميصه وقد فك ثلاثة من أزراره وذلك كى يتيح لنا مطالعة زغب صدره وقد بدا من فتحة القميص فاحمًا، كما كان لا ينى عن حسر كم القميص عن معصمه اليسرى كاشفاً عن ساعته الذهبية.

كان بوسعك أن تتملى نفاسة ساعته حتى عندما كان يرتدى معطفا، كان يخيل إلى من طريقة ارتدائه معطفه أنه كان غافلا دوما عن اشتباك كم معطفه فى سوار الساعة الذى يطوق معصمه، ولم أدرك أن أدوس كان صغير الجسم حقًا، ذا عود نحيل لدرجة تستثير الضحك إلا بعد انقضاء عدة سنوات.

سألت هات: هل تصدق حقًا حكايات أدوس التى يرويها عن عشق النساء إياه لحد الوله؟ فأجاب هات وهو يزفر زفرة المتحسر: إن المرء ليأخذ منه العجب كل مأخذ عندما يولى سلوك النسوة فى أيامنا هذه تفكيرًا أعمق فهن ينشطن لرمى الأحابيل حول قزم تلوح عليه سمة اللصوصية ووصمة الخسة والدناءة كى ينعمن فى ظله بالعيش الرغيد أو يزدن فى المال وحسن الحال، بسطت ذراعى فى أسى قائلا: إن ما تقول يعز على التصديق.

كنت ما أزل طفلا لم تتفتح عيناى بعد على حقائق الحياة البشعة. إلا أنه كان يخيل إلى دائمًا أنه إن كان ثمة رجل جديرًا حقًا بعشق النساء فهذا الرجل هو أدوس.

كان يجلس على مقعده فى العربة الزرقاء يعلوه الوقار، ويوحى منظره بالجدية والثقة بالنفس التى تلازم حركاته وسكناته، ويا لروعة ثغره وقد تدلت منه تلك الفرشاة فى إهمال يثير حسد الحاقدين!.. بيد أنك لم تكن لتجرؤ على مجاذبته الحديث وقد اطمأن

إلى مقعده فى العربة، إذ يبدو ساعتئذ مختلفًا عن أدوس الذى نعرفه وهو يسعى فوق أديم الشارع مثلنا. فقد كان فوق مقعده يحجم عن إطلاق الضحكات، ويغلب عليه الهدوء الصامت فى جهامة وعبوس. وعندما كنا نحاول أن نثب إلى مؤخرة عربته كما اعتدنا أن نفعل مع عربة الآيس كريم، كان يقرع آذاننا فرقعة سوطه، وهو يلهب به أحدنا بحقد وغل، صائحًا بصوت يهدر بالغضب: أتظنون أنها عربة رش؟ إن والد أى منكم ليعجز عن شراء واحدة مثلها.

كان أدوس يفوز دون انقطاع بجائزة مجلس المدينة التى تمنح كل عام لأكثر عربة قمامة نظافة وبهاء.

وكان حديث أدوس عن عمله يرسب فى نفس المرء إحساسًا بالحزن والضعة.

كان لا ينى عن الحديث عن معارفه من وجهاء القوم فى بورت أوف سبين وعلى رأسهم المحافظ نفسه. فكان يقول: جمعت أمس النفايات من أمام منزل مدير الخدمات الطبية. فثمة ألفة قوية - كما تعرفون - نشأت بيننا ووثقت الأيام عراها. فقد ظللت أرفع نفاياته لسنوات طوال خلت منذ أن كان طبيبًا صغيرًا فى وودبروك، يشقى بشظف العيش وعسر الحياة ونكد الأيام.

ولذا عندما رآنى بالأمس قال لى برجاء مشبع بالتودد: أدوس (هذا هو الاسم الذى يؤثر - كما

تعلمــون - أن ينادينى به) «أدوس ... إننى أ علم أن نفسك تتازعك إلى جرعة كونياك .. هيا تعال ..» بيد أننى - كمــا تعلمــون - أجـفل من الشــراب أثناء انخـراطى فى العمل لأنه يشـتت تركـيـزى، بيـد أنه لم يتزعزع أنملة عن موقفه، وتمادى فى العناد، وقبض بيده على منكبى، وجذبنى جذبة شديدة كادت تطيح بى من فوق مقعدى، رضخت لدعوته إلى الشـراب فى النهاية، جلست أنصت إليه وهو يبثنى همه، ويفضى إلى بحزنه.

كما كان يقص علينا حكايات تهز الأفئدة وتشعل الأخـيلة عن نسـاء فى بحـبـوحـة من الغنى والجـاه ينتظرنه خلف صناديق القـمـامـة يتـرقـرق الأمل فى عيونهن ويتذاوبن خجلاً وامتنانًا لخدماته المأمولة فى جـمع النفـايات من فـوق الأرض، وكى تدرك بهـاء الهالة المبهمة من المهابة التى كانت تتحلق حوله، ما عليك إلا أن تراه فى تلك الأيام التى أعلن فيها جامعو النفايات الإضراب.

كان جامعو القمامة - كما ذكرت لك من قبل - يزهون بأنفسهم عن امتلاء داخلى، ولم يكن يسعهم الاستمساك بالصبر أو ملاطفته، ولذا كانوا يثورون كالبراكين لأتفه الأسباب.

لم يكن زهوهم بأنفسهم ينبعث عن شعور بالخواء إذ كانوا يدركون عظم سطوتهم ونفوذهم. ففى حال

إضرابهم لمدة أربع وعشرين ساعة كانت بورت أوف سبين يتهددها الغرق فى مستنقع من القذارة، وتتخايل للعيون أكوام القمامة تترامى كالتلال فى أركان شوارعها وحاراتها.

فى تلك الأيام خطيرة الشأن كان أدوس يقطع شارع ميجل جيئة وذهابا بخطاه الثقيلة منقبض الصدر متجهم الوجه شاردًا بخياله، وقد تجمعت فى صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة لا يبادل أحدًا الحديث، لائذًا بجحر الصمت، كان يطالعنا فى تلك الأيام مطوق العنق بمنديل أحمر تتدلى فرشاة أسنان ذات لون أحمر قان من فيه.

كنا نمضى أحيانا إلى ميدان وود فورد كى نشهد اجتماع المضربين تتوهج أفئدتنا بالحماس، وقد ركبنا استطلاع نهم لاجتلاء الوجوه التى تتضح عزمًا وحماسًا.

ارتسم الذهول فى وجهى عندما رأيت أدوس يغنى وهو يذوب فى نغمة حزينة شاكية رغم أن كلمات الأغنية كانت تتلظى بنيران الحنق والغضب.

مال هات على أذنى هامسًا: ثمة مخبرون هنا يدونون كل كلمة يتفوه بها أدوس والآخرون، لم يكن بالأمر العسير التعرف على المخبرين بلباسهم الرسمى الذى يتكون من قبعة بنية اللون، وقميص أبيض وبنطلون بنى. هذا إلى أنهم كانوا منهمكين فى تدوين ملاحظاتهم فى كراسات المذكرات الضخمة

بأقلام الرصاص الحمراء. ورغم هذا بدا أدوس رابط الجأش، تلوح فى عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة كنا نعلم أن أدوس ليس بالشخص الذى ينكص حيال الإرهاب الذى تسلط الشرطة سوطه على رءوس المواطنين جميعًا؛ ولذا لم يسعنا أن ننحى باللائمة على أدوس لتطاوله علينا بالفخر والمباهاة إذ لم يكن زهوه بنفسه ينبعث عن شعور بالخواء.

عاد أدوس ذات يوم إلى البيت حاملا حذاء. قال لنا باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل وهو يدعك أسنانه بالفرشاة ملقيا على ما حوله نظرة مستكبرة متأففة: لقد عثر بصرى بهذا الحذاء صباح اليوم وسط أكوام القمامة فى لاباس مسقط القمامة، الذى تعرفونه، فلم أجد لنفسى بدا من الانحناء والتقاطه».

انفغرت الأفواه عجبًا وإعجابًا، كان سعيد الحظ لا مراء، فعض الحسد قلوب من حوله من الرفاق.

قال أدوس فى سرور لم يفلح فى مداراته: سوف يأخذ منكم العجب كل مأخذ عندما ترون الأشياء التى تحويها صناديق القمامة. ثم واصل وقد داخله شعور بالسعادة والتفوق عجيب: إن من يمارس هذه المهنة يظفر لنفسه بأمتع العيش وأنعمه، فثمة أشياء نفيسة تعز على التصديق تجدها ملقاة وسط تلال القمامة كما اتفق لا يظفر بها سوى من يقلب النظر فى أكوام القمامة بالمساقط متفحصًا إياها بنظرات فاحصة ناقدة، إننى أعرف شخصًا عثر منذ أيام

قلائل على فراش كامل بحشية ووسادة، كما أننى عندما كنت أرفع بعض النفايات من أحد الشوارع فى سانت كلير لمحت هذه المرأة مهزوزة العقل تنطلق خارج منزلها كالإعصار وقد اشتعلت باهتمام داهم حاد داعية إياى برجاء مشبع بالتودد إلى الدخول لتهبنى جهاز راديو.

قال بويى بصوت تشى نبراته بانفعاله وتأثره: أتعنى حقا أن هؤلاء الأثرياء يعبثون بمتاعهم بمثل هذه السفاهة"؟

ندت عن أدوس ضحكة باردة كفرقعة السوط فى الهواء، ثم أشاح عنا بوجهه الذى اكتسى بحزن عميق، وقد دهمه شعور قاس بالقنوط من ذكائنا وقدرتنا على الاستيعاب.

اجتاح خبر الحذاء شارع ميجل كالنار المستطيرة، وغدت حكايته نادرة المتندرين، ومفزع المتخيلين. احتدم الغيظ فى قلب أمى، فقالت وقد أخذ رأسها يحمى بالحدة: «ها هى الحياة تسفر عن وجهها بعد أن تلثمت بقناع زائف من العدل والقسطاس فرغم أننى أعمل بطاقة تفوق احتمال البشر، فإن أحدًا لم يهبنى قطٌّ حذاء مثل الحذاء الذى حظى به أدوس ذلك الفتى قاعد الهمة، رخو العزيمة، الذى تلوح عليه سمة اللصوصية ووصمة الخسة والدناءة».

لم يكف الحظ عن مغازلة أدوس وخطب وده، طالعنا ذات يوم بعينين تلوح فيهما نظرة متعالية تنطق

بالسيادة والقوة وهو يحمل سريرًا فوق رأسه، ورأيناه يدلف إلى داخل بيته فى يوم آخر ينفخ أوداجه الغرور وهو يحمل بين يديه أعدادًا هائلة من الأكواب وأطباق فنجال تشقَّقت فى خطوط متوازية ومتقاطعة كالتجاعيد التى تخدد جانبى فى حسناء ذبلت نضرة شبابها، وعاجلتها كهولة مبكرة، أو تجاوزت طراوة الشباب. كما كنا نلمحه أحيانا يحمل كوما من الخشب وجميع أنواع المسامير اللولبية، وبعض النقود التى عثر عليها ملقاة وسط أكوام القمامة.

قال أدوس بنبرة الناصح: لقد كشف لى أحد الرفاق القدامى صباح اليوم النقاب عن اللغز، إذ أن أحدًا ذا طبيعة عملية لا يلقى بحذائه فى صندوق القمامة، ولذا نصح لى بأن أحدج بنظرة فاحصة موضع إلقاء الأحذية التى ينبذها أصحابها، فإن أشياء ثمينة تعز على التصديق سوف يجدها المرء ملقاة كما اتفق فى نفس الموضع.

جاء علينا حين من الزمان شملتنا فيه حيرة إذ جعلنا نتساءل إن كان شعوره بالثقة والزهو والخيلاء ينبع من عمله أم مجموعة الأشياء التى اقتنصها من مساقط القمامة، كان ينفق نصف ساعة يوميًا فى تفريغ شحنة عربته من المنوعات القديمة والتى نطلق عليها خردة، فإن أراد أحدنا بعض المسامير أو لوحًا من الحديد يتخذ منه سياجًا لفناء منزله فإنه يتجه رأسًا إلى منزل أدوس ليظفر ببغيته، كانت تجتاحه

موجة عاتية من الهياج عندما يطرق بابه أحدهم، بيد أنه لم يفلح فى مداراة شعوره بالثقة والزهو والخيلاء، كان يقول وهو ممزق بين انفعالاته المتضاربة: «إننى أشقى طوال اليوم لأظفر بهذه الأشياء، ورغم ذلك يعتقد الناس أن بمقدورهم أن يهرعوا فحسب إلى عتبة باب بيتى يستوهبوننى فراشا أو قضيبًا حديديًا دون خجل أوحياء».

ومع مر الأيام والسنين أطلق سكان شارعنا على هذه الخردة التى جمعها أدوس بكده وتعبه «الكنز النفيس» وفى ذات يوم أفضى إلينا تيتس هويت بعد افتتاح مدرسته الجديدة بهمه، إذ أن شراء الكتب كان يكلفه أموالا طائلة. قال بصوت تغلب على نبرته سمة الشكوى: سوف يكلفنى هذا ستين دولارًا على الأقل.

رماه أدوس بنظرة متعالية متسائلاً بلهجة الانتقاد المر: كم كتابا سوف تبتاعه بهذا المبلغ؟

أجاب تيتس هويت فى نبرة كلها مرارة: حوالى سبعة كتب أو ثمانية.

أطلق أدوس ضحكة هازئة، ثم كتمها فخرجت من أنفه ريح كالفحيح. قال وقد تقلص وجهه فى تقزز ونفور: بمقدورك أن تبتاع منى كومة من الكتب باثنى عشر سنتًا فقط. إننى أعجب غاية العجب لبعثرة نقودك لابتياع ثمانية كتب فحسب.

استطاع أدوس أن يبيع أكداسًا من الكتب فى أيام قلائل. ابتاع هات منه كتبًا بعشرين سنتًا، مما يشى

بقدرة تيتس هويت الفائقة على استثارة حماس أهل شارعنا وأشواقهم للنهل من منابع المعارف. كما أن هناك أمرًا أخر يتعلق باللوحات أود أن أتحدث عنه.

خاطبنا أدوس ذات يوم والبشر يتألق فى وجهه: لقد التقطت اليوم من بين أكوام القمامة لوحتين من روائع فن تصوير المناظر الطبيعية فى أطر مموهة بالذهب.

قفلت إلى الدار راجعًا، وقلت لأمى برجاء مشبع بالتودد: ماما إن أدوس يود أن يبيعنا لوحتين تمثلان مناظر طبيعية باثنى عشر سنتا.

عجبت غاية العجب للحماس الذى اشتعل فى عروقها نارًا إذ جعلت يديها ترتعشان من شدة الانفعال، ثم مسحت راحتيها فى ردائها، وخطت خطوًا سريعًا مباغتًا صوب الباب سرعان ما جاء أدوس حاملا لوحاته.

قطب فى اهتمام وقال: إن الزجاج يغشى أديمه طبقة رقيقة من غبار وقذارة، بيد أنه بمقدورك محوها بسهولة. هذا إلى جانب أنها مشاهد طبيعية فى غاية الروعة .

كانت اللوحتان تصوران سفنًا تصارع الأمواج العاتية تحت سماء ملبدة بغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر. اكتسحت أمى فرحة اقتلعتها من دنيا الأحزان، ولمحت عبرات الفرح تتماوج فى عينيها، خاطبته والبشر يسجع فى صدرها :«لقد كنت أحترق

توقا إلى امتلاك مثل هذه اللوحات التى تصور مناظر طبيعية».

ثم لوحت بذراعها صوبى وخاطبت أدوس ورأسها يدور تيها: إن والد هذاالصبى كان يعشق رسم المناظر الطبيعية لحد الوله .

طرب أدوس لقولها وأخذته نشوة حماس، فتساءل: وهل كان يرسم مناظر طبيعية تضارع روعة وجمال ما تصوره هاتان اللوحتان؟

هبط على أمى صمت واجم، ولمحت شفتيها تنطبقان كأنهما أُلصقتا بالغراء.

نقدت أمى أدوس عشرة سنتات أثر مساومة تعد مثالا للرفق ولين الجانب ودماثة الطباع، وعندما كان أدوس يعرض شيئا للبيع ولا يجد له سوقا نافقة، كان يتجه رأسًا إلى منزل عمى بهاكسو الذى كان يعرب دائما عن استعداده لا بتياع أى شىء، فكان يقول بنبرة الناصح وفى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: إننى لا أدعى أن لى بصيرة نافذة تهتك حجب الغيب ولكننى عندما أتدبر الأمر فى روية وهدوء يتبين لى أن هذه الأشياء التى نطلق عليها خردة ربما لا تخلو من نفع أو فائدة عندما تتقلب الحظوظ وتطالعنا الدنيا بأنكد وجوهها.

ضيق هات عينيه امتعاضًا وقال بسخط واضح: إن التجارة فى الخردة استبدت بمشاعره استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح، وهو ليس بالأمر الذى يثير العجب فى شارعنا.

ظللت أكتم وساوسى حتى ارتجف باطنى برعدة قاسية ذات يوم عندما لمحته من النافذة يحث الخطى صوب منزلى وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام الشديد، وعندما جلسنا حول مائدة متواجهين حد البصر فى وجهى، ثم تساءل بلهجة دب فيها الحماس: ألم تتاوشك قط فكرة جمع تذاكر الباصات القديمة؟

فقلت وقلبى يخفق بالخوف: لم تخطر ببالى هذه الفكرة.

واصل مستوهبًا تأييدى: إننى أعرض عليك فرصة جديرة بأن تثمل خيال أى صبى مثلك بأحلام عراض فسوف أعطيك بنسًا ثمنًا لكل ألف تذكرة تجمعها.

سألته وأنا أستشعر شيئًا من القلق: وماذا ستفعل بهذه التذاكر؟ رفع حاجبيه فى إنكار ثم تفجر صدره عن ضحكات ساخرة، وهو يرمينى بنظرات كالأحجار المدببة.

لم أجمع تذاكر الباصات، بيد أنى لمحت العديد من الصبية يهيمون على وجوههم فى الطرقات والأزقة وهم يصوبون إلى أديم الأرض نظرات نارية لو عثرت فى طريقها بصوان لأذابته. كان أدوس قد وعدهم أن يستقلوا الباص مجانًا عندما يجمعون مائة تذكرة.

قال هات مستمسكًا بآخر خيط من الأمل: لن تسرب إلى جنبات النفس قلق وتوقعات مجهولة غير سارة إلا عندما يشرع فى جمع الدبابيس!

تجهمت الأقدار لأدوس فانقضت عليه داهية من عالم الغيب فتحت عينيه فجأة إلى الحقائق وجعلته يتدبر أمره بعين الحكمة. أفضى إلينا بحزنه: إننى فى ورطة عسيرة المخرج.

قال هات بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا: نشدتك الله لا تقل انك اختلست ما تبيع من الخردة.

هز أدوس رأسه بالنفى، ثم قال بوجه متقلص من الانفعال والحزن: ثمة فتاة تحمل فى جوفها حملا أنا والده.

تساءل هات عابسا: هل أنت واثق أنك والد الطفل؟

فأجاب أدوس بصوت يكاد ينحبس فى حلقه «لقد كاشفتنى هذه الحقيقة عارية عن كل تخفيف لفتنا حيرة شاملة حيال الوساوس التى استأثرت بعقله.

قال هات على سبيل التعزية: «لا تكن أبله يا رجل، فهذا أمر عادى لا يثير القلق». بيد أن أدوس أدار أذنًا صماء لكلمات العزاء التى انزلقت فوق قلبه فلم تترك أثرًا.

خيل إلى أنه فقد فى صميم روحه شيئا ثمينا لا يعوض، إذ ذبلت شعلة حماسه لجمع الخردة، حتى انطفأت كما ينطفئ المصباح بغتة لانقطاع التيار.

تمتم هات فى نبرات يائسة: عندما أراه يهيم على وجهه فى الطرقات كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذب

النفس يخيل إلى أن ضميره يلهبه بعذابات سوطه كما لو كان على يقين من أنه أول من ابتدع فكرة الإنجاب.

سأله هات والحيرة تنشب فيه أظافرها: هل أنت واثق أن الطفل الذى تحمله فى أحشائها هو من صلبك؟ فثمة كثيرات يتعيشين من هذه الحيل الدنيئة.

فأجاب أدوس بصوت سائب لا ضابط له: إننى لا أذكر أنها أنجبت طفلا من شخص آخر. إلا أننى أوقعت نفسى فى ورطة عسيرة المخرج.

تساءل هات بلهجة مزدرية: ألا تعتقد أنها تشابه لورا؟

فأجاب أدوس متحمسًا: كلا .. إن لورا تنجب طفلا واحدًا من كل رجل تعاشره فى حين أن هذه الفتاة تنجب طفلين أو ثلاث من كل رجل.

قال هات على سبيل التشجيع: غربل نفسك يا رجل من هذه الوساوس والهواجس، فأنت لست واثقا أنه طفلك فلننتظر حتى تتكشف لنا الحقائق.

فقال أدوس وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعابه وتعترض زوره: تقول إننى إذا أنكرت الطفل فسوق تحرمنى من عملى.

تصلبنا فى وقفتنا وقد انفغرت الأفواه دهشة وهلعًا. واصل أدوس وقد نشرت سحابة من الأسى جناحيها فوقه: إنها تعرف أناسا كثيرين من ذوى النفوذ الذين لا يعقلهم أدب أو خلق، وهى تقول إنها لن تتورع عن تحريضهم ضدى لنقلى من سانت كلير

إلى دراى ريفر التى يشقى أهلها بشظف العيش وعسر الحياة إلى الحد الذى يدفعهم إلى الضن بإلقاء أى شىء فى صناديق القمامة.

قلت بلهجة أسفة: هل تعنى أنك لن تجد شيئا ذا نفع فى مساقط قمامة هذه البلدة؟

هز أدوس رأسه علامة الإيجاب. تكشفت لنا حقيقة المأساة.

قال هات: «إن كلمات الأغنية الشعبية أصابت مفصل الحق: إن كان الرجل يناصب الفضيلة العداء.

فإن المرأة تصوم عن المعروف، وتفطر على الفحشاء.

إننى أعرف مثل هذا الصنف من النساء فهن ينجبن قبيلة من الأطفال، ثم يحرمن الرجال من رؤيتهم، ويجبرنهم على الإنفاق عليهم. وعندما يبلغن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين تجدهن يعشن فى بحبوحة من العيش، وفى رغد من الحياة بفضل ما يدفعه رجال عديدون من نفقة، وتخففهن من عبء رعاية الأطفال، لقد تكشفت لى حقيقة هاتيك النسوة.

قال بويى على سبيل التعزية: لا تقلق أو تحزن. فلننتظر حتى تتكشف لنا حقيقة نسب الطفل.

رمى هات بويى بنظرة وعيد عقدت لسانه: بويى!! ألا ترى أنك لم تبلغ بعد السن التى تؤهلك للإدلاء بدلوك فى أحاديث الكبار وشئونهم.

سارت الشهور بطيئة ثقيلة مسربلة بالكآبة.

أعلن أدوس ذات يوم على الملأ: لقد وضعت حملها أمس.

تساءل هات: ولد أم بنت؟

- بنت.

تقطعت قلوبنًا حزنا عليه

سأله هات: هل تعتقد أنها طفلتك؟

- نعم.

- هل سوف تحملها إلى منزلك؟

- بعد حوالى العام.

- لذا ليس ثمة داع للقلق أو تكدير الصفو، فإذا كانت طفلتك حقًا، فاحملها إلى بيتك، كما أنك لاتزال تحتفظ بعملك فى سانت كلير، وتعمل فى تجارة المنوعات القديمة «الخردة».

ورغم أن أدوس أحنى رأسه إعرابًا عن الموافقة، إلا أننى لمحت عليه ظلال الألم الدفين والأمل الخابى.

اختار هات للطفلة اسمًا للدلاعة قبل أن تأتى للعيش معنا فى شارع ميجل بفترة طويلة أطلق عليها اسم «متعة» وهو الاسم الذى ظلت تنادى به حتى استوت فتاة ناضجة.

أحضرت الأم «متعة» إلى شارعنا ذات ليلة، وسلمتها إلى أدوس، ولكنها لم تمكث طويلا، وغادرتنا دون أن تلقى تحية وراءها.

كبر أدوس فى نظرنا عندما لفتت المرأة نظرنا بشدة كهربية ببراعة حسنها، ورشاقة قدها، كانت تشابه النساء الإسبانيات، ولم يساورنا شك فى أنها امرأة مكشوفة العفة، تركت زمامها لدفعات الهوى.

بيد أننا عندما اختلسنا إلى «متعة» نظرات خاطفة لم يخامرنا شك فى أنها ليست من صلبه. جعل بويى يترنم بصوت خفيض بأغنية شعبية:

«ينادينى الأطفال الصينيون بابا!

أنا ذو البشرة العميقة السمرة.

وزوجتى ببشرتها التى تقطر سوادا

ورغم ذلك......

ينادينى الأطفال الصينيون بابا! يا إلهى ثمة امرؤ دس اللبن فى قهوتى!.

قرص هات بويى فى ذراعه وهو يعبس فى وجهه بجفاء، ثم التفت صوب أدوس وقال له برقة متوددة: «إنها طفلة جميلة المحيا حسنة القسمات، صورة متقنة لك يا أدوس».

تساءل أدوس متلقيًا طاقة النجاة ببراعة: هل تعتقد هذا حقًا يا هات؟

اعتدل هات فى جلسته وأجاب: نعم يا صديقى أنها تشبهك لحد التماثل. وعندما تكبر وتستوى فتاة ناضجة سوف تستأسر النفوس كأبيها بقلبها الكبير وخلقها القويم.

قلت جاذبًا نفسى عن تيار أفكارها: إن لابنتك وجه فى استدارة البدر، ووجنة موردة كالتفاح. كانت «متعة» تغط فى نومها تشع هالة من حسن ورواء.

تملكت إرول روح الدعابة فقال: بوسعى الانتظار ستة عشر عامًا حتى تستوى شابة بهية الطلعة بارعة الحسن.

أما أدوس فقد انبسطت أساريره ثم غلبه الضحك على أمره فاسترسل ضاحكًا حتى دمعت عيناه.

قال هات وهو ينذره بسبابته: اكتم ضحكاتك فسوف توقظ الطفلة!

سأله أدوس ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: هل تعتقد حقا أنها تشبهنى ياهات؟

أجاب هات بلهجة دب فيها الحماس: لا تحمل لهذا الأمر هما، أعتقد أنك رجل نافذ فى الأمور. فلو أننى تركت زمامى لدفعات الهوى مثلك وأنجبت لى امرأة طفلا غير شرعى فإننى سوف أحمله إلى بيتى ليعيش معى، ولذا فإننى أنصح لك يا رجل بحمل طفلتك إلى دارك. فليس ثمة داع لأن يندى جبينك خزيًا أو يتولاك الخجل.

فقال أدوس وهو يتذاوب خجلا وامتنانًا: ثمة قفص لطيور الزينة التقطته من زمن طويل من مسقط القمامة، سوف أحضره غدًا وأهديه إليك.

هز هات رأسه فى طرب مفاجئ قائلا: إننى أحترق توقًا منذ سنوات لامتلاك قفص لطيور الزينة.

سرعان ما عاود أدوس سيرته الأولى، وجعل يرمق مستقبله بعين الاستبشار، يتيه فخارًا بعمله وتجارته فى الخردة، وينفخ جمال «متعة» جناحيه بالفخر.

غدت الطفلة موضع زهو الشارع ومنبع حبه، وغمرها جميع النسوة فى شارعنا: زوجة السيد مورجان، وامرأة عمى بهاكسو ولورا، وأمى بفيض من التدليل والإعجاب، فإن كان ثمة رجل أو صبى فى شارع ميجل قد سولت له نفسه توجيه لذعات جارحة إلى أدوس، فإن الإساءة ذابت فى حلقه عندما فازت «متعة» بالجائزة الأولى فى مسابقة «البقرة وطفلة البوابة الحديدية»، ونشرت الصحف صورتها، فغدت موضع زهونا وقطب الرحى فى حياتنا.

(١٢)

«إنه الحب ولا شئ سواه»

حوالى الساعة التاسعة من صباح أحد الأيام توقفت عربة نقل الموتى وسيارة أمام منزل الآنسة هيلتون. خرج من السيارة رجل وامرأة فى وسط العمر مكللان بالسواد، وفى حين كان الرجل يميل على أذنى الرجلين يسر إليهما بحديث هامس وهما جالسان فى عربة الموتى، كانت المرأة تستعبر باكية وهى تحاول جاهدة أن تتكتم صرخة بالعض على باطن شفتها.

يخيل إلىَّ أن جنازة الآنسة هيلتون كانت أفقر جنازة شهدتها إذ شيعها نفر قليل فأثارت دهشة سكان شارع ميجل لقلة عدد المشيعين والسرعة المذهلة التى تمت بها إجراءاتها، ولذا فإن الفرق بعيد بعد ما بين الأرض والسماء بين جنازتها وجنازة الأرملة العجوز الأخرى ميس ريكو التى كرست جل حياتها للعمل فى خدمة المجتمع، والتى كانت تسكن الجانب الآخر من شارع ميجل بمنازله الأنيقة الفخمة إذ انتظمت الجنازة جموعًا غفيرة لم يشهد لها الشارع مثيلا من قبل فشيعها حتى الذين لم يصلهم بها سبب

من أسباب التعارف الشخصى، اذ سار فى جنازتها تسع وسبعون سيارة ودراجة هوائية واحدة.

فى ظهيرة نفس اليوم عاود الرجل والمرأة الظهور فى شارعنا وقصدا بيت ميس هيلتون رأسا وأضرما النار فى حشايا فراش ميس هيلتون والوسادات والملاءات وأغطية الفراش.

ثم رأينا نوافذ المنزل الرمادى المشيد من الخشب وهى تفتح على مصاريعها لأول مرة منذ أن جاءت ميس هيلتون إلى شارعنا.

وفى نهاية الأسبوع علقت لافتة تحمل عبارة منزل للبيع بمسمار منغرز فى شجرة المانجو.

لم يكن أحد فى شارعنا تصله بميس هيلتون سببًا من أسباب التعارف إذ فرضت على نفسها سياجا كثيفا من العزلة، وحبست نفسها دون العالم كله، مؤثرة العيش فى كنف الخيال، وحتى من كان يندى قلبه بالحنان والعطف لم يستدر وفاتها إشفاقه إذ أن أحدًا لم يفتقد ميس هيلتون.

عندما أستحضر فى ذاكرتى صورة منزلها تتجلى لعينى لونان فقط: اللون الأخضر لشجرة المانجو، وجدران بيتها الرمادى، والسور الحديدى الرمادى العالى الذى يحول بيننا وبين السطو على ثمار المانجو، أو استعادة كرة الكريكيت عندما تسقط فى فناء بيتها.

بيد أنه لسوء الحظ لم يكن الزمان صيفا عندما توفيت فلم نجد فوق شجرة المانجو ثمرة واحدة. إلا أننا استعدنا عشر أو اثنتى عشرة كرة من كرات الكريكيت التى خيل إلينا أنها ضاعت إلى الأبد.

كنا قد وطنا أنفسنا على كراهية السكان الجدد حتى قبل مجيئهم. إذ كانت تساورنا الهواجس وتزدحم رءوسنا بالفكر، فالمشكلة سوف تستعصى عن الحل مع قدوم هؤلاء السكان الجدد، كان هناك فى حقيقة الأمر رجل واحد ينغص علينا صفونا، ويجعلنا نضيق بالحياة لحد القرف، كان هذا الرجل لا ينى عن الشكوى وتحريض قسم الشرطة ضدنا، كان يجأر بالشكوى من انخراطنا فى لعب الكريكيت على الطوار، وعندما كنا نكف عن اللعب زهدا فيه أو خوفا من الشرطة، كان يجأر بالشكوى من أصواتنا المزعجة وهديرنا الذى يرج الجدران ويصم الآذان.

كان الرقيب تشارلز يتجه صوبنا قائلا وهو يقطب تقطيبة باسمة إن رئيس الشرطة أرسلنى للتحقيق فى شكوى هذا الرجل شرس الطباع صخرى القلب، ثم يلوذ بالصمت هنيهة قبل أن يواصل بنبرة الناصح:

بمقدوركم الاستمتاع باللعب دون إثارة مثل هذا الصخب والعجيج والضجيج.

عند عودتى من المدرسة بعد ظهر أحد الأيام قال لى هات حال انفراده بى: رجل وامرأة.. المرأة بارعة الحسن تقطر بهاء وجمالا، أما الرجل فقبيح الوجه كأن أصله فأر، يبدو لى أنهما من البرتغال.

لم يسعنى أن أسترق إليهما النظر عن كثب، فرغم أن البوابة الحديدية ظلت مفتوحة فإن النوافذ أغلقت ثانية.

ترامى إلىّ نباح كلب تراكم غضبه كزوبعة فى الأفق فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه.

بيد أنه تكشفت لنا حقيقة بعثت فى قلوبنا فرحة لا حدود لها، فهذان الزوجان ليسا من ذلك الصنف من الناس الذى يحادث الشرطة هاتفيًا كى يشكو من الصخب أو الضجيج الذى يطير النوم من عينى المرء فيروح يتقلب على فراشه ذات اليمين وذات الشمال يستدنى الكرى بكل ما يعرف من وسيلة.

ترامت إلينا أصوات مزعجة وصياح شق هدأة الليل، ظل المذياع مفتوحا على آخره حتى منتصف الليل عندما أنهت إذاعة تريnداد بث برامجها، كما لم ينقطع الكلب عن النباح.

وفى حين أن الرجل كان يصرخ بأعلى حنجرته، خيل إلى أن المرأة استوصت بالصبر، فلاذت بجحر الصمت.

بيد أننى وجدت البيت فى صباح اليوم التالى مسربلا فى هدوئه يجلله صمت وقور.

انتظرت فى الخارج حتى لمحت المرأة وهى تغادر الدار ثم مضيت إلى المدرسة منتشيًا مغرد الروح.

قال بويى لهات وهو يدعك ذقنه متفكرًا: يخيل إلىَّ أننى قد رأيت هذه المرأة من قبل فهى ليست غريبة

عن ناظرى ثم رفع صوته فجأة شأن من تذكر شيئا أعياه طلابه:

نعم أننى رأيتها عندما كنت أوزع زجاجات اللبن على المنازل فى حى موكورابو.

لم تكن هذه المرأة تشابه فى هيئتها سكان شارع ميجل الآخرين.

فقد كانت أنيقة الملبس والهندام، مثالاً فى الأدب، وضاحة الوجه زهراء اللون كالقمر الطالع، ولذا كان يرتسم على وجوهنا آى الدهشة عندما كنا نلمحها وقد انحشرت بين النسوة اللاتى ازدحمن على دكان مارى أو وهى تشق طريقها بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر بغية الحصول على سلع نادرة مثل الدقيق والأرز.

أعتقد أن بويى لم يجانبه الصواب، فهذه المرأة التى يبدو على سيماها الجلال والكبرياء يسهل على المرء تمثلها وهى تخطر كالغزال تموج برحيق الحياة وفتنتها فى بنطلونها القصير فى حديقة إحدى دور موكورابو الأنيقة، يتبعها على الأثر رجل فى لباس الخدم رهن إشارتها وطوع أمرها.

بعد انقضاء أيام قلائل من انتقالهما إلى شارعنا، تمكنت من تفحص وجه الرجل عن كثب، كان يستلفت الأنظار بطول قامته ونحول قده، كان قبيح الوجه لحد الازدراء منفر، همجى المنظر يتناثر فوق صفحة وجهه بقع حمراء.

هز هات رأسه هزة العارف العالم وقال: يا إلهى إن صفحة وجه هذا الرجل تتورد بحمرة الخمر، إنه من الراسخين فى السكر والعربدة.

لم ينقض وقت طويل حتى تبين لى أن هذا الرجل شريب سكير لا يفيق، تلمع عيناه دومًا بوهج الخمر، تنفث أنفاسه شذا أردأ أنواع الخمور، كان منظره يبث الخوف فى حناياى، فكنت أعبر الطريق تحاميًا من لقائه كلما رأيته سائرًا على الطوار فى الاتجاه المقابل.

وإذا كانت زوجه - أو رفيقته لست أدرى - أنيقة الملبس والهندام لدرجة تعز على التصديق قياسًا إلى النسوة فى شارعنا، فإن ملابسه كانت تضطرب اضطرابًا يستدر الرثاء، وكان مظهره يفصح عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات، كما كان يفوق حتى جورج فى إيغاله فى إهمال النظافة الشخصية، فكان يطالعنا دومًا بوجه تعلوه غلالة من قذارة لاصقة ببشرته.

لم يكن له حرفة أو عمل يتعيش منه، سألت هات بلهجةآسفة:

كيف تتحمل امرأة آية فى الجمال والوداعة مثلها معاشرة هذا الرجل شرس السحنة، همجى المنظر؟.

فهز رأسه بما يشبه الاحتقار وقال: إنك لا تزال صغيرًا، ولذا فلن أصارحك بحقائق تدق على الألباب.

أما الكلب فقد رحت أسترق إليه نظر المتهيب المرتاب كأننى طير وهو صائدى، كان ضخم الجسم ككبش وإن كان يبدو شرس السحنة كثور، وكان وجهه النحيل يذكر المرء بسيده، اعتدت أن أراهما يسيران جنبًا إلى جنب فى الحديقة وقد أغمق وجهاهما كآبة.

قال هات بصوت تغلب على نبرته سمة الشكوى:

إذا انسل هذا الكلب خفية إلى الشارع فسوف تقع حوادث تعز على التأمل أو التصديق.

بعد أيام قلائل قال لى هات وقد لاح فى عينيه السهوم والتفكير:

إننى أعجب غاية العجب لإقامتهما فى دار عارية من الأثاث يخيل إلى أن تأثيث منزلهما يقتصر على الراديو فقط.

فاندفع أدوس قائلاً بحماس وقد شام برق أمل: بوسعى أن أبيعهما أشياء كثيرة.

كانت تتلاطم فى رأسى عشرات الأفكار، وكان قلبى يتفتت رثاء لهذه المرأة التى كنت أتطلع إليها بحب وإعجاب وإجلال لصلابة شخصيتها ورباطة جأشها واندماجها فى تيار الحياة فى شارعنا كما لو كانت تشابه بقية النسوة فى شارعنا ثم أتى عليها حين «انهالت عليها الضربات كالمطر.

اعتادت أن تنطلق مثل رصاصة لائذة بالفرار، وهى تصرخ صرخة مدوية تمزق السكون تمزيقًا، ثم

سرعان ما يرتج جو الشارع بنباح الكلب، وصراخ الرجل قاذفًا إياها بسيل من السباب المقذع، الذى كان يصك آذاننا فكنا نطرق استحياء وخجلاً حتى أننا لو قدرنا أن نسيخ فى الأرض لفعلنا.

وجه هات الخطاب إلى الكبار فى شلتنا قائلاً: إن معرفة ما يحدث هناك أمر فى غاية اليسر .

قهقه إدوارد وأدوس بالضحك.

تساءلت وقد لجت بى الحيرة: ما الذى يحدث ياهات؟.

ضحك هات ضحكته الرنانة ثم قال: إنك لا تزال صبيًا صغيرًا، انتظر حتى تكبر وترتدى سروالاً طويلاً.

ولذا وجدتنى أتخبط فى دياجير الأفكار وتقطع قلبى حزنًا عليها.

أوغلت المرأة فى نزقها وطيشها، كانت تندفع كالإعصار صوب أى من تصادفه فى الشارع وهى تهتف بصوت مخنوق النبرات: أغثنى! أغثنى! لقد انقلب مجنونًا ويتوعدنى بالقتل.

ركضت ذات يوم صوب بيتنا ومرقت من الباب وهى تنتفض من الرأس إلى القدم، لم تنتحل لنفسها عذرًا لانقضاضها علينا كالطوفان رأيناها تطالعنا بوجه تعلوه صفرة الموت، وقد عقد الخوف لسانها.

كانت هذه أول مرة أرى فيها أمى تمد يد العون كى تنتشل إنسانًا يتردى فى هاوية العذاب، قدمت لها

أمى قدحًا من الشاى والبسكويت لتهدئ من روعها، خاطبت المرأة أمى قائلة بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته: أننى لا أرى ما الذى أصاب تونى فى الأيام القليلة الماضية، فالجنون يتسلط تمامًا على وعيه عندما يطبق الليل ناشرًا جناحيه، بيد أنه فى الصباح تسكن عواصف نفسه الهائجة فأجده تغلب عليه الوداعة والهدوء، إلا أنه عندما يتوسط النهار عمره تثب به دفعة مباغتة لضربى، فيكشر لى عن أنيابه، ويثب على كالنمر وينشب فى مخالبه.

توخت أمى فى بداية علاقتها بهذه المرأة الحذر الشديد، وجريت أن تقدر للسانها قبل النطق موضعه من اللباقة، فجعلت تنتقى كلماتها من قاموس مهذب حرصت على نطقها بلهجة أمريكية قحة، وراحت تطيب خاطرها وتسكن روعها، ثم جعلت تحادث المرأة عن شذوذ الرجال وغرابة طبائعهم موضحة أن أبى المتوفى كان يعد مثالاً فى الهمجية والشذوذ اللذين يتسم بهما جنس الرجال على الإجمال.

لوت أمى شفتها السفلى فى امتعاض وقالت وهى تعانى سكرات الخيبة:

إن بين زوجى وبين هذا الرجل ما بين السماء والأرض من تباين، فعندما كنت أدلف إلى حجرته كان يثب من فراشه كالملدوغ، ويمرق من الحجرة كالهارب وهو يصرخ صرخة مدوية تعصف بجذور قلبى.

بيد أنه بعد أن كررت المرأة الزيارة ثلاث أو أربع مرات ارتدت أمى إلى عاداتها المتأصلة وطبيعتها الشعبية وراحت تصارح المرأة بحقائق الحياة المرة كما لو كانت تخاطب لورا أو السيدة بهاكسو.

كانت أمى يشتد بها الغيظ فتتسائل بحدة: لماذا لا تهجرين هذا الرجل التافه قاعد الهمة، رخو العزيمة؟.

فتجيب المرأة بصوت منكسر: إننى أقر بغبائى وحماقتى ولكننى أحبه لحد العبادة.

- بيد أن هذا الحب سوف يغدو مضرب الأمثال بشذوذه فى شارعنا كله.

راحت السيدة هيريرا تتحدث عن تونى كما لو كان صبيًا صغيرًا رق له قلبها، فراح يستهويها برقته ووداعته.

فقالت وهى تذوب فى دفقة إحساس: إنه يتحلى بالكثير من الفضائل كما تعلمين، كما أنه وديع القلب، دمث الطباع رقيق الحاشية.

فقالت أمى بصراحة معهودة فيها: لا يهمنى طيبة القلب أو نقاء السريرة. لكننى أعلم أن ضربه كالسماد للزرع سوف يجعله يصلح من شأنه ويقوم سلوكه، إننى أعجب غاية العجب لوقوفك مكتوفة اليدين بعد أن جعل منك نادرة تلوكها الألسن فى شارعنا.

فقالت وهى تغالب انفعالها: إنك لا تعرفين تونى، لقد سهرت بنفسى على رعايته عندما كان مريضًا

إنها الحرب كما تعلمين لقد كان يشتغل بحارًا عندما تعرضت السفينة لهجمات بالطوربيد مرتين.

فتساءلت أمى بسخرية مرة: ألم يكن يجدر بهم تكرار المحاولة حتى يخلصونا من شروره؟

فقالت بنبرة عتاب لا تخلو من مسحة من مودة: إن كلامك هذا ينفذ إلى قلبى فيشقه شطرين.

فقالت أمى بعصبية: إننى أفصح لك عما يدور بخلدى فحسب وقد جئت إلى تستشيريننى.

- إننى لم أسألك النصيحة.

- لقد جئت إلى كى أنتشلك من ورطتك، وأنا أحاول مساعدتك، هذا هو كل ما فى الأمر!.

فقالت السيدة هيريرا كاظمة حنقها: إننى لا أبغى منك عونًا أو نصيحة.

تنفست أمى تنفسًا عميقًا لتخفف عن أعصابها وقالت: لا فائدة هيا عودى إلى رجلك الذى ينطق وجهه بالنبل والعزم، لقد ارتكبت خطأ فادحًا بدس أنفى فى الشئون الخاصة للبيض. ألا تعلمين كلمات الأغنية الشعبية:

إنه الحب.. الحب لا شئ سواه.

الذى جعل الملك إدوارد يهجر العرش

إلا أنك لست الملك إدوارد، ولذا فإن شارعنا لن يهتز بنبأ عودتك إلى من تحبينه ملء فؤادك.

قالت السيدة هيريرا وهى تمرق من الباب إلى فناء الدار: إننى لا أفكر فى تكرار الزيارة.

بيد أنها فى مساء اليوم التالى زارتنا دامعة العينين كسيرة الفؤاد.

سمعت أمى تقول لها ذات يوم: سيدة هيريرا إ ن جميع سكان شارعنا تتفكك مفاصلهم من رعب لا يوصف عندما يترامى إليهم نباح كلبك الذى يثب الافتراس من سحنته، ولا ينى عن التكشير عن أنيابه كلما لمح أحد المارة فى الشارع.

فردت قائلة بصوت مبحوح وهى تسبل جفنيها فى استياء :

إنه ليس كلبى .. إنه كلب تونى الأثير لديه. وحتى أنا لا يسعنى الاقتراب منه.

خالطنا نحو الرجل شعور بالاحتقار. ضغط هات على جناحى أنفه بإصبعيه متأملا ثم قال: إن يضرب الرجل زوجه من حين لآخر أمر طيب بلا شك، بيد أن تونى اتخذ من هذا السلوك عادة يومية، ولذا يخيل إلى أنه ألقى قفازه فى وجه المرأة، معلنا عليها حربًا لا ترحم.

كما كنا نرمقه بعين الاحتقار لأنه كان يسترسل فى الشرب حتى يفقد ذاته تمامًا، فكثيرًا ما كان يسكر حتى تلاطمه الجدران أو يغلبه سلطان النوم فيروح فى نوم عميق وهو جالس على الطوار راكنا ظهره إلي

السور الحديدى لأحد منازل شارعنا، وسرعان ما كان يتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع.

حاول فى مناسبات قليلة أن يظهر لنا المودة، فنغص علينا صفونا دون أن يدرى لنفورنا الدائم منه، كان يلقى علينا التحية، ويمضى لطيته دون أن يحاول مجاذبتنا الحديث، وعندما كان هات وبقية رجال شلتنا الكبار يوجهون إليه الخطاب تملصًا من الحرج ومراعاة لشعوره كان يخيل إلى أن تونى ينصت إليهم بعقل غائب إذ كنت ألمح فى عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله.

كان ينهض بغتة ويغادرنا دون أن يلقى تحية وراء ه، وقد لف من يخاطبه ولما يكمل حديثه إحساس بالدهشة والذهول.

شيعه هات بنظرة تنز مقتًا واحتقارًا قبل أن يغيبه منعطف الطريق ذات يوم، وقال وقد لوى شفته السفلى فى امتعاض:

ثمة شىء طيب آخر. فعندما أتفحص وجهه عن كثب يغلبنى إحساس بالغثيان، مما يجعلنى أوقن أن البشرة البيضاء يمكن أن تثير فى النفس أحيانا إحساسا بالنفور والاشمئزار عندما تغشيها طبقة غليظة من غبار وقذارة.

كانت بشرة وجهه خشنة منفرة ضاربة إلى الاحمرار يخالط بياضها لون أصفر وينتشر فوق أديمها بقع بنية وسوداء ، أما الجلد الذى يعلو عينه

اليسرى فكان ذا حمرة خفيفة كما لو كان غمس فى ماء يغلى.

بيد أن تونى كان يستلفت الانتباه برقة يديه ونحولهما واختفاء أديمهما تحت قناع من الأخاديد والتجاعيد لحد يثير الرثاء، وليس الاشمئزاز والنفور، ولذا كنت أحصر بصرى فى هاتين اليدين عندما كنت أجالسه مع هات وبقية الرفاق، كما أننى أعتقد أن السيدة هيريرا لم تر فيه سوى هاتين اليدين الرقيقتين.

تساءل هات وهو ينفخ مغيظًا محنقًا: متى ينتهى هذا الكابوس ويرحل دون رجعة؟

بيد أننا بتنا واثقين أن السيدة هيريرا مصممة على اللياذ بالسعادة المتاحة نافضة عن ذيلها رواسب الأكدار.

تأصلت بين أمى وهذه السيدة صداقة متينة، وكثيرًا ما كنت أسمع السيدة هيريرا تتحدث إلى أمى عن خططها، أخبرتها ذات يوم بحاجتها إلى بعض قطع الأثاث، وأظن أنها قد ابتاعت بعد ذلك بعض القطع.

بيد أنها كانت تكرس معظم أوقات الزيارة للحديث عن تونى، وكان بوسعى أن أستشف من لهجتها فى الحديث أن تونى لا يتسم بأى شذوذ يستلفت الانتباه.

تهادت إلى أذنى نبرتها الناعمة وهى تقول: إن تونى يفكر فى مغادرة ترينداد. فبوسعنا أن ننشئ

فندقا فى باربادوس، أو وهى تقول منشرحة الصدر: عندما يسترد تونى عافيته، فسوف نرحل للسياحة فى جنبات الأرض الواسعة، أو وهى تقول بحماس: أن تونى يتبع نظامًا دقيقًا لحد التقديس كما تعرفين، وفضلا عن ذلك فهو ثابت القلب صلب العزيمة، ولذا فإننا سوف نستقبل حياة ناعمة خالية من الكدر عندما يتماثل إلى الشفاء الكامل.

بيد أن السلوك الذى كان يند عن تونى كان يشى بجهله التام بهذه الخطط والأفكار التى اختمرت فى ذهن السيدة هيريرا. إذ أنه لم يتزحزح عن إصراره على الغلو فى النزق والبهيمية قيد حبة رمل، فغدا مضرب الأمثال بشذوذ. واستهتاره فى شارعنا كله.

قال هات وهو ينفخ غيظا وقهرًا: لقد كشف هذا الرجل عن خبيئة طبيعته المستهترة، فهو لا يرعوى عن فعل ولا يعقله أدب أو خلق، يخيل إلى أنه غافل كلية عن الحكمة وراء إقامة المراحيض العمومية.

وفضلا عن هذا وذاك كان تونى يفور بكراهية غريبة نحو البشر دون تمييز، كان دمه يغلى بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع عندما يلمح شخصًا غريبًا عن ناظريه يسير فى شارعنا فينفجر فى غضب قاذفًا بسيل من اللعنات الفاحشة.

قال هات بصوت هادئ جاد كالقاضى ينطق بالحكم: لقد صدقت عزيمتى على تأديبه. ما رأيكم؟

ظلت هذه الفكرة تختمر فى ذهن هات لفترة طويلة.

وقفت أرقب المشهد ذات مساء وقد تجمدت فى ذهولى فلم تند عنى حركة، كان هات وبقية الرفاق يتعاورونه ضربًا دون أن يلوح فى وجوههم أى أثر من عواطفهم المستعرة، كما أن تونى نفسه تلقى الضربات صابرًا متصبرًا، إذا لم تند عنه أية حركة تنذر برد الاعتداء، خيل إلى أن الضربات لم تخلف أى أثر فى نفسه كما لو كانت تنهال على شخص آخر، وقف يقلب عينيه فى الوجوه دون مبالاة، لم تصدر عنه زفرات بكاء ولم يخاطبهم باستعطاف أن يرحموه، بل تصلب فى وقفته وتجمدت أسارير وجهه واللكمات تنهال عليه كالمطر.

كان جبانا لدرجة تستثير الرثاء.

هز هات رأسه بما يشبه الاحتقار وقال: إن الرجل سكران لحد الموت، ثم واصل وهو يكتم فيضان غضبه:

إن الرجل قد أخذ الحيطة لجميع الاحتمالات فسكر حتى أوشك أن يفقد الوعى، ولذا فقد أخطأنا بضربه وهو فاقد لحواسه الخمس.

كان بوسعى أن أستشف من لهجة السيدة هيريرا وهى تتحدث إلى أمى أنها لم تحط علما بنبأ ضرب تونى.

قال هات، وهو يبسط أصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية:

اطلاعنا إياها على نبأ العلقة التى تلقاها يعزينا بلا شك عن خيبتنا الشاملة.

طوال هذه الأسابيع ظل سؤال واحد يتردد على أذهاننا بإصرار لا يعرف الهوادة: كيف تسنى لسيدة تعد مثلاً فى الجمال والأدب مثل السيدة هيريرا العيش تحت سقف واحد مع رجل لا يحتمل ولا يعاشر مثل تونى؟

قال هات إنه يعرف الإجابة عن هذا السؤال العويص، بيد أنه يريد أولا أن يفتح مغاليق شخصيتها ويكشف عن أسرارها.

جرفنا جميعًا حب استطلاع جنونى لمعرفة المزيد عنها. حتى أمى التى كانت تتقوقع فى شرنقة نفسها وثبت بها دفعة جامحة لكشف اللثام عن شخصية السيدة هيريرا.

التمعت فكرة فى رأس بويى، فقال فى حماس مظفر:

هل تعرف يا هات هذه الإعلانات فى الصحف السيارة التى يكتبها من هجرها زوجها أو هجرته زوجه؟

فخرج هات عن طوره وصاح به مغضبًا: إنك توغل فى ضلالك يا بويى دون هوادة، احبس لسانك القذر. كيف سولت لك نفسك الخوض فى مثل هذه الأمور، ولما تبلغ طور الرجولة؟

بيد أن هذه الكلمات التى ندت عن فيه كالرصاص المنصهر أوقعت من نفس بويى موقعًا حسنًا.

واصل هات بنبرة تنم عن غيظ مكتوم: أنى لك أن تعرف أن السيدة هيريرا هجرت زوجها أو أنها ليست متزوجة من تونى؟.

فقال بويى مجتاحًا بدفقة حماس: أؤكد لك يا هات أننى اعتددت أن أرى هذه المرأة فى حى موكورابو عندما كنت أوزع اللبن على السكان، أقسم لك على هذا بأغلظ الأيمان.

فقال هات فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: إن البيض يحجمون عن ارتكاب مثل هذا الفعل آأعنى كتابة إعلانات فى الصحف السيارة بحثًا عن شخص فقد دون رجعة.

احتد أدوس غاضبًا وقال مخاطبًا هات: إنك تهرف بما لا تعرف كم عدد البيض الذين تصلك بهم أسباب الصداقة؟ قطع هات على نفسه عهدًا فى نهاية الأ مر بأن يطالع الصحف بمزيد من الاهتمام.

ذات يوم اهتز شارعنا بصراخ ينفجر من الأعماق.

لمحت السيدة هيريرا وهى تمرق من باب منزلها مثل رصاصة لائذة بالفرار وهى تصيح بصوت متقطع من العذاب والفزع:

لقد جن الرجل.. لقد صدقت عزيمته على قتلى هذه المرة.

سمعتها بعد ذلك تقول لأمى وقد زاغ بصرها فى رعب، وتعثرت الألفاظ على شفتيها مقاطع ممزقة مبتورة: لقد أمسك بسكين .. كانت أساريره تشع شرًا .. وانقض على وقد تلبس وجهه صورة شيطانية وهو يتمتم قائلا بصوت خفيض: سوف أقتلك... سوف أنهال عليك طعنًا حتى أخمد أنفاسك.

تساءلت أمى بأسى لم تستطع إخفاءه: هل ند عنك قول أوفعل أثار غضبه؟

هزت السيدة هيريرا رأسها بالنفى، ثم قالت وهى تحدج أمى بنظرة ناطقة بالاستغاثة: هذه أول مرة يهددنى فيها بالقتل، لقد كان جادًا، ورأيته يختلس منى نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق.

لم أر السيدة هيريرا حتى هذه اللحظة تسفح الدمع إلا أننى عندما نظرت إليها قرأت فى تقلص جفنيها نذيرًا بالبكاء، وسرعان ما أفحمت فى بكاء عصبى طويل كطفلة.

بعد أن هدأت قليلا قالت بصوت مختنق بالعبرات: لقد نسى تونى ما فعلته من أجله .. لقد نسى سهرى على رعايته أثناء مرضه، لقد قابل صنيعى بالإنكار والجحود، لقد ضحيت بكل شىء... بمالى وأسرتى.. من أجله، فهل أستحق هذه المعاملة يا إلهى ما الأفعال التى ارتكبتها حتى سولت له نفسه أن يصلينى عذاب الجحيم؟

ثم راحت تنتحب انتحابا متواصلا، ثم ساد صمت تجلى فيه صوت الأنفاس المترددة. شقت أمى الصمت قائلة:

يخيل إلى أن تونى من هذا الصنف من الرجال الذى لا يرعوى عن القتل لأتفه الأسباب، فهو لا يعقله أدب أو خلق.

هل تريدين أن تبيتى هذه الليلة عندنا؟ يمكنك أن تنامى فى فراش الصبى.. وبوسع الصبى أن يستلقى على الأرض وينام.

لاح فى عينى السيدة هيريرا السهوم والتفكير، كانت تجالس أمى بعقل غائب، أعادت أمى على مسمعها دعوتها إلى المبيت وهى تهزها بشدة لتفيق من غفوتها السارحة..

غطت السيدة هيريرا وجهها براحتيها متفكرة ثم تمتمت: لقد عاودنى شعورى بالطمأنينة، وراحة النفس، وسأعود إلى منزلى وأتحدث إلى تونى، أننى أشعر أننى قد فعلت شيئا أثار استياءه حتمًا، ولذا سأعود إلى البيت لأستخبره السر وراء حنقه وغضبه.

بسطت أمى راحتيها فى يأس قائلة لها بصوت متشك ملىء بالمرارة: إن قلبى يتقطع حزنًا عليك، بيد أننى لا أجد لنفسى بدًا من أن أنفض يدى من الأمر كله، أعتقد أنك تتوغلين فى ضلالك بلا هوادة تاركة زمامك لدفعات الهوى.

عـادت السـيـدة هـيـريرا إلـى بيـتـهـا. رحنا نـرهف السمع فى قلق لفترة طويلة بيد أن صـرخة الاسـتغـاثة المتوقعة لم تخترق آذاننا.

فى صـبـاح اليـوم التـالى طالـعتنا السـيـدة هيـريرا كالمعتاد بوجه تسرى فى قسماته نضارة الزهر يتفتح من أكمامه، وينطق بالوداعة والهدوء.

بيد أننا لحظنا مع مـرور الأيام والشهور أن الذبول قد بادر إلى جمـالها قبل الآوان، فحالت نضـرة بشـرتها وغـاض من وجـهـهـا مـاء الحـيـاة، وخـددت التـجـاعـيد جانبى فيها، وغطى وجهها جلد داكن مـتغضن، ولاحت أمـارات الكبـر تحت عـينيـهـا، وعـاجلتـهـا كـهـولـة مـبـكرة تجلت فى انتفاخ جفنيها وذبول نظرتها.

عنـدمـا كـان هـات يجـالـسنـا ذات يوم لـفنا الـذهـول عندمـا لمـحناه ينتتر واثبًا كـالملدوغ وهو يقـول بصـوت مـتـهـدج وأنفـاس لاهـثـة: لقـد صـدق حـدسـى. ثم أشـار بإصبعه إلى عمود العلاقات الاجتماعية فى الإعلانات المبـوبة الذى كـان يحـوى أسـمـاء سـبـعـه رجـال ونسـاء قرروا هـجـران الزوج أو الزوجة.

حصـرنـا أبصـارنا فى إصبعه وهو يشير إلى العبـارة التـالية:

أعلن أنا هـنـرى هـربرت كـريـسـتـيـانـى أن زوجـتـى إنجـيـلا مـارى كـريسـتـيـانى لم تعـد فى ذمـتـى وتحـت حـمـايتى ورعـايتى وإننى لست مـسـئـولا عن أى دين أو ديون تراكمت عليها.

قال بويى فى حماس مظفر: إنه يقصد السيدة هيريرا دون شك.

فقال أدوس وهو يفرك راحتيه فى سرور: صدقت. إننى أعرف الطبيب كريستيانى ظاهرًا لباطن وباطنًا لظاهر، فهو أحد الزبائن الذين كنت أواظب على جمع القمامة من منازلهم بدقة فلكية.

تساءل هات وقد اشتعل باهتمام داهم حاد: لماذا تهجر امرأة رجلا مثل هذا الطبيب من أجل تونى الذى يذكرنى وجهه بالقرد؟

فواصل أدوس متجاهلاً انفعالات هات الجياشة: نعم إننى أعرف كريستيانى معرفة وطيدة، فهو طبيب يتقلب فى النعيم ويتمرغ فى أسباب الترف، ويمتلك سيارة ودارًا لا تقل فخامة ونفاسة عن السيارة، والمال يجرى بين يديه فى فيض ويسر، إننى لم أره منذ فترة جد طويلة، ولكننى رأيته أول عهدى بالعمل فى رفع النفايات من حى موكاربو.

سرى الخبر سرى الحريق بين الهشيم فى شارعنا، وانتفخت الشائعات كالمناطيد.

خاطبت أمى السيدة هيريرا قائلة وهى تسبل جفنيها فى استياء: إننى أنصح لك باستدعاء الشرطة.

فقالت وهى تنتفض كالمصعوقة: كلا ... هذه فكرة مخيفة.

تساءلت أمى فى هدوء ينذر بالعاصفة: ما خطبك؟ يخيل إلى أنك تخشين الشرطة لدرجة تفوق خوفك من تونى الذى يتوعدك بالانتقام.

فقالت فى شبه غمغمة: إننى أخشى الفضيحة.

فصاحت أمى مرعدة كالوحوش الضارية: أتخشين الفضيحة ولا تكترثين لمصيرك المفزع والكدر الخانق الذى يرين على نفسك، كما لو أن هذا الرجل لم يجعلك مضغة للأفواه ونادرة المتندرين، ساد صمت ثقيل مشحون بالندم حتى شقته أمى متسائلة:

لماذا لا تعودين إلى زوجك؟ ند عنها هذا التساؤل برقة لا عهد لها بها لتوقعها أن يقع من نفس السيدة هيريرا موقع الدهشة والاضطراب فيجعلها تثب من مجلسها كالملدوغة.

بيد أنها قبضت على زمام نفسها بيد قوية أن تفضحها شجونها وقالت بصوت متئد متزن النبرات: أننى لا أحس نحوه بأى حب أو إعجاب. كما أننى لا أطيق رائحة الدواء النفاذة التى تسطعنى من أعطافه.

استطعت أن أقرأ أعماقها بسهولة، ولذا لاحظت أمى بطرف خفى فى شبه رجاء أن تدرك حقيقة مشاعرها، وتتجنب الحدة فى محادثتها.

بيد أن تونى كان يوغل فى ضلاله ووحشيته دون هوادة، فكنا نراه فى مجلسه المعتاد على سلم بيته

وقد بلغ به السكر حد السلطنة قابضا بيده على زجاجة «روم» مملوءة إلى النصف، فى حين رقد الكلب عن كثب منه فى سكون أشبه بالموت.

خيل إلى أن الخيوط الواهية التى تصله بالواقع راحت تتقصف واحدًا أثر واحد، فكنا نراه فى جلسته كأنه صورة ناطقة لليأس الأعمى، يطالعنا بوجه نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنه سجل لقرف الزمان وعينين تتضحان بقسوة قلبه، كنا ندهش لوقوع السيدة هيريرا فى هوى رجل شرس الطباع صخرى القلب مثل تونى الذى كنا نجد شبهًا بينه وبين كلبه فى شراسة السحنة وجهارة الصوت وغلظته.

زارتنا السيدة هيريرا فى صبيحة أحد الأيام وقالت لأمى بهدوء:

لقد صدقت عزيمتى على هجران تونى. أفصحت عينا أمى عن دهش وانزعاج للنبرة الهادئة التى كاشفتها بها بقرارها.

رمقتها بنظرة ذاهلة وسألتها: ماذا حدث؟

فأجابت بنبرة مرتعشة من التأثر: لا شىء. إلا أنه ليلة أمس حرش كلبه على، وأصدر له أمرا بالانقضاض على سكتت ريثما استردت أنفاسها ثم واصلت:

خُيل إلىَّ أنه لم يكن يدرك ما يفعل. لم تفر منه ضحكة أو يند عنه قول يشى بروح الدعابة التى

تملكته، بل كان جادًا لدرجة تعز على التصديق، أعتقد أن الجنون تسلط تمامًا على وعيه.

إننى أؤكد لك أنه سيقتلنى إذا بقيت معه تحت سقف واحد.

سألتها أمى بانفعال لم تستطع كبحه: من الرجل الذى ستعودين إليه؟

فتمتمت بصوت منخفض: زوجى.

فتساءلت أمى بنبرات يائسة: حتى بعد علمك بما نشره فى الصحف؟

فقالت السيدة هيريرا ملتمسة الطمأنينة لنفسها: إن هنرى طفل صغير، ولم يكتب ذلك الإعلان فى الصحيفة إلا بغرض بث الرعب فى نفسى، فإذا عدت إليه اليوم فإنه سوف يطيب نفسا ويرف قلبه رفيف الغبطة.

بيد أننى نظرت إليها فوجدت وجهها متجهمًا، وهى تحد البصر فى وجه أمى، وقد انعقدت فوق جبينها تكشيرة كاللعنة.

تفكرت أمى مليا فى حيرة بالغة ثم خاطبتها قائلة: لا يجدر بك أن تستسلمى إلى أنامل الأحلام الناعمة. هل يعرف زوجك تونى؟

ضحكت السيدة هيريرا ضحكة عصبية تدارى بها تأثرها ثم قالت: كان تونى صديقًا لهنرى، ولم يكن صديقى. هنرى اصطحبه إلى منزلنا ذات يوم،

طالعنى الضيف بوجه تعلوه صفرة شديدة فثبت لى من هزاله وذبوله أن العلل تنتهكه، إننى لم أصادف فى حياتى قط رجلا مثل هنرى تعمر قلبه عاطفة الخير ويطابق بين إيمانه وسلوكه.

اشتد الغيظ بأمى فقالت بحدة: إننى أتمنى لو أنك نهجت على مثالى وتدبرت أمرك بعين الحكمة يا سيدة هيريرا، فلو كان أحد زوجك مثلى وأنت لاتزالين فى الخامسة عشرة، لم نكن لنسمع بمثل هذا الهراء، أو حديثك الفارغ عن لسعات الهيام التى تدغدغ قلبك أو نار الحب وعذابه الذى تصليه أو تكتوى به.

أجهشت السيدة هيريرا فى البكاء حتى انتحبت وشهقت كالأطفال.

فقالت أمى بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا، وقد رقق قلبها انتحاب صديقتها: إننى لم أقصد أن أدفعك إلى البكاء على هذا النحو. إننى آسفة.

فقالت بصوت يكاد ينحبس فى حلقها وهى ممزقة بين انفعالاتها المتضاربة:

لست أنت السبب! لست أنت السبب!

ارتسمت الخيبة فى وجه أمى، ومر بنظرتها رنوة فتور. جعلنا نرمقها بنظرات ذاهلة وقلوبنا تتقطع حزنًا عليها وقد انخرطت فى بكاء لا تملك له دفعًا.

قالت بصوت متهدج وعينين شارقتين بالدمع: لقد أعددت لتونى طعامًا يكفيه أسبوعًا كاملا.

فقالت أمى كاظمة انفعالاتها: إن تونى ليس طفلا صغيراً فلا يكدرن صفوك تأنيب الضمير والشعور بالذنب.

عندما علم تونى بأنها هجرته راح يصرخ حتى شق صوته الجدران..انطلقت من حلقه صرخات كالعواء، كما ظل ينتحب انتحابا متواصلا، ويذرف الدمع كالأطفال.

ثم راح يفرط فى الشراب فكان يشرب حتى تلطسه الخمر، وحتى يبلغ به السكر حد السلطنة، وتتأرجح به الكرة الأرضية، كان يدفع همومه بالشراب، ونسى كلبه الذى بات ليلة بعد ليلة يتلوى من عض أنياب الجوع.

انطلق كالمجنون يبحث عن السيدة هيريرا وهو فى غاية من السكر فكان يطرق أبواب البيوت وهو يبكى ويستغيث ويلطم على رأسه، بيد أنه عندما كان يعود إلى بيته مهيض الجناح، وقد تجمعت فى صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة، كان ينفس عن صدره المستعر بركلات حانقة غاضبة يوجهها إلى كلبه، كانت تخترق آذاننا أصوات عواء ممزقة بوحشية الألم تتبعها زمجرة تنذر بشر مستطير.

وفى نهاية الأمر ـ وكما توقعنا ـ انقلب الكلب عدوًا له.

تمكن ذات يوم من تمزيق القيد حول عنقه وانقض عليه مزمجرًا كأسد هصور يهم بفريسته.

هدهدت هذه التجربة الأليمة من جموحه، وفتحت النوافذ لنسمات الحكمة، بيد أن الكلب ركبته رغبة فى الهرب فأطلق للريح ساقيه، وتونى يعدو فى أثره كالمجنون، حتى انقطعت منه الأنفاس، ثم جلس القرفصاء وراح يصفر بفمه. توقف الكلب عن الجرى ونشر أذنيه مرهفًا السمع فى قلق، ثم استدار وحدجه بنظرة مستريبة، وقفنا ننظر إلى تونى ـ وقد أخذ منا العجب كل مأخذ ـ تلمع عيناه بوهج الخمر وقد افتر ثغره عن ابتسامة بلهاء وهو يصفر بفمه داعيًا إياه إلى العودة.

تسمر الكلب فى مكانه مذهولا تتجاذبه شتى العواطف، وهو يشخص بعينيه اللامعتين إلى تونى، ثم حياه بهز ذيله هزتين متتابعتين، موهمًا نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد، بيد أن حماسه فتر حتى انطفئ كما تنطفئ شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة، فتراجع أمامه وذيله منكس بين قدميه، نهض تونى وخطا خطوًا سريعًا مباغتًا صوب الكلب، إلا أن الكلب استدار بغتة وراح يعدو بسرعة الريح.

فى صباح اليوم التالى رأيناه متمددًا على حشية فى إحدى الحجرات التى اقتصر تجهيزها على هذه الحشية وانبسطت أرضها الخشبية بلا سجادة ولا كليم ولا حصيرة يغطى أديمها زجاجات "الروم" الفارغة، وأعقاب السجائر المطفأة.

كان يغط فى نومه ويُصعد أنفاسًا ناشزة من شخيره ونخيره وقد غشيت أساريره رضا عجيب.

لمحت يديه الرقيقتين النحيلتين يغطيهما قناع من الأخـاديد والتـجـاعـيـد فـرق قلبى له وغص حلقى بالحزن والدموع.

عُلقت لافتة أخرى تحمل عبارة "منزل للبيع" بنفس المسمار المنغرز فى شجرة المانجو، ابتاع رجل لديه حوالى خمسة أطفال المنزل. إلا أن تونى واظب على القـيـام بزيارة هذا المنزل لبث الرعب فى قلوب قاطنيه كان يطلب منهم نقودًا أو زجاجة روم، كما كان لا ينى عن المطالبة باسترداد جهاز الراديو، كان يقول مغلفًا قوله بنبرة نذير: لقد استوليتم على جهاز راديو إنجيلا. لذا فإننى أستأديكم دولارين كل شهر فى مقابل الانتفاع به، ادفعوا لى الآن دولارين.

كان المالك الجديد قصير القامة، رقيق الجسم، نحيلا لدرجة مخيفة كأنه محض عظام، فكان يرتعب وتحوم حوله المخاوف كالذباب كلما رأى تونى يحث الخطى صـوب منزله، كـان يوشك أن يتـلاشى من الرعب كلما خاطبه تونى فينعقد لسانه، وتعلو بشرته صفرة الموت.

كان تونى يخاطبنا بعد أن يقعقع بضحكة غليظة قائلا:

ألا تعلمون أن إنجيلا كانت تمتلك جهاز راديو؟ إننى أعـجب غـاية العـجب لمكر هذا الرجل الذى يتحرك الطمع فى صدره!

ضـرب هات كـفـا بكف وصــاح: إننى أعـجـب غـاية العـجب لقدرة البشـر على احتـمال رجل مثل تونى أو معاشرته.

إلا أنه بعــد شــهــرين أو ثلاثة كف عن زيارة شــارع ميجل..

تصــادف أن رأيت تونى بعـد سنوات عـديدة أثناء سفرى إلى أريما. لمحته يقود عربة لورى بالقرب من أحد المحاجر فى لافنتيل وهو يدخن سيجارة بتلذذ لا مزيد عليه.

مررت فى طريقى إلى كارينج فى صبيحة أحد أيام الآحاد ببيت كريستيانى الذى ظللت أقاطع الطريق الذى يوجد به أعواما متواصلة.

لمحت السيدة كريستيانى أو السيدة هيريرا فى بنطالها القصير جالسة فى استرخاء على كرسى فى حديقة منزلها تطالع الجريدة.

وعندمـا رنوت من خـلال الأبواب المـفـتـوحـة إلى الداخل صافح عينى منظر خادم فى زيه الرسمى يعد السفرة للغداء فى حين استقرت عربة سوداء يخطف بريقها الأبصار فى موضعها بجراج المنزل،

(١٣)
«ذو المعرفة الواسعة بإصلاح السيارات لحد الافتنان»

كان عمى بهاكسو ذا ذهن يتوهج بالعبقرية والتفرد فى إصلاح المركبات.

وعندما أعود بالذاكرة إلى سنى الطفولة الأولى، أجدنى وقد تمثلت لعينى دومًا صورته وهو يمتطى عربة أو دراجة بخارية يمتلكها، ويخيل إلى أنه كان يزدرى دومًا تصميمات المركبات إذ كان لا ينى عن تفكيك محركاتها إلى أجزائها. قال تيتس هويت يخاطبنا وقد سرت فى كلماته رنة الراسخين فى العلم حين يتحدثون إلى من يصغرونهم علمًا وقدرًا:

«إن هذه العادة هى إحدى العادات المتأصلة فى بلاد الإسكيمو» كان تيتس هويت يحب الموضوعات التى تطرق مدخراته من المعارف، وكان قد قرأ عن عادات الإسكيمو فى كتاب فى علم الجغرافيا.

عندما تستعيد لى الذاكرة حياتى طفلا، لا يتمثل لعينى صورة وجهه، بل صورة كعب حذائه، وهو يتحرك بخفة متزحزحًا إلى الأمام أسفل سيارة، وظهره يتماوج كالدودة فى انكماش وانبساط، كان

القلق يساور قلبى كلما لمحته مستلقيًا تحت سيارة إذ كان يتخايل لعينى دومًا مصيره المنتظر عندما تنزلق السيارة من فوق الرافعة ـ وهو أمر غير مستبعد ـ وتتحط عليه كصخرة فتسوى به الأرض، وهو ما حدث.

ففى أحد الأيام. بلغ مسمع زوجته صوت كالأنين يترامى إليها من الفناء.

هتفت بصوت مخنوق النبرات: يا إلهى، ثم أخذتها نوبة حادة من البكاء، قالت بصوت مختنق بالعبرات:

إننى أستشعر دومًا نذر شر مستطير تحدق به فأجدنى تحوم حولى المخاوف كالذباب.

هرعت إلى الفناء ثقب أذنيها صوت زوجها وهو يئن أنينًا موجعًا.

سألته بوجه متقلص من الانفعال والحزن: هل أنت بخير؟

صاح بها وهو يزفر أنات متواصلة: أعميت؟ ألا ترين العربة تجثم فوق عجيزتى تكاد تهصرها كما يهصر شخص شرس الطباع صخرى القلب الوردة بين أصابعه ووجهه ينضح بالدمامة والغل!

شرعت الزوجة، وقد ألح عليها شعورها بالواجب إزاء زوجها، فى البكاء مجددا.

ضربت بقبضة يدها السور الحديدى المجلفن، وصاحت بصوت مرتعش النبرات: هات! تعال بسرعة العربة بكاملها سقطت فوقه.

كان هات منهمكًا فى تنظيف حظيرة الأبقار عندما ترامى إليه صياحها، فرت من فيه ضحكة جافة كالسعلة ثم قال:

إنك تدركين الآن الحكمة التى أرددها دومًا، فعندما يتنكب المرء سبيل الرشاد ويركب رأسه فإنه يتردى فى الهاوية ويذهب فريسة لهواه الجامح، إن السيارة الملعونة مترعة بصحة الشباب وعافيته. فما الذى يدفعه إلى أن يستلقى على ظهره تحتها مكبًا على إصلاحها فى شبه سخرة؟

- إنه يقول إن ذراع إدارة السيارة أصابه عطب.

- وهل يلبد أسفل السيارة الآن بغية تفقده؟

وقع هذا التساؤل التهكمى من نفس بهاكسو موقع الضربة الطائشة من الدمل، فصاح بهات من موقعه أسفل السيارة وقد عبس وجهه، وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرة: سوف أسوى بك الأرض ببصقة واحدة فور أن ترفع عن صدرى هذه السيارة الملعونة.

قالت السيدة بهاكسو فى نبرة كلها مرارة: يا لك من إنسان صخرى القلب شرس الطباع إن هذا الرجل قد جاء لانتشالك من ورطتك إلا أنك تجر شكله وتكشر له عن أنيابك وتلفظ الشرر من عينيك دون سبب وجيه.

لاحت فى عينى هات نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين وتفيض غمًا.

قال هات وهو يرشق السيدة بهاكسو بنظرات ملؤها اللوم والتأنيب: إننى لا أعجب لسلوكه فهو ما أتوقعه دائمًا من الناس عندما أدس أنفى فى شئونهم الخاصة.

أنت تعلمين أننى أحترق توقًا لمغادرة هذا المكان والعودة إلى حظيرة أبقارى.

- كلا يا هات. أعر تذمره أذنا صماء، حدس شعورك وإحساسك وأنت منغرس مثله تحت سيارة جديدة ضخمة لا تدع لك فرصة للإفلات أو الحركة.

قال مداريًا ضيقه بابتسامة لا لون لها: لا تحملى للأمر همًا بيد أننى لا أجد لنفسى بدًا من استدعاء بعض الصبية لمساعدتى فى إزاحة السيارة عن جسده.

صكت أسماعنا صياح هات بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس فى الحجر: «بويى.. أرول».

أطبق على جنبات الشارع سكون عميق.

عاود الصياح بصوت يهدر بالغضب «بويى.. أرول»..

- نعم يا هات.

- اللعنة عليكما... هل تعتقدان أنكما بلغتما مبلغ الرجال وبوسعكما السير متسكعين فى الشارع بيدين مندستين فى جيوبكما.. لقد كنتما تدخنان؟ لا تنكرا

هذه الحقيقة إننى أرى سحابات التدخين الكثيفة تتلوى حول رأسيكما.

- هل تقول تدخنان يا هات؟

- ما الذى حدث؟ هل أصبتما بصمم فجائى؟

- إن بويى كان يدخن يا هات.

- إنه يكذب يا هات فإرول فى حقيقة الأمر هو الذى كان يدخن أما دورى فلم يتعد الوقوف جواره ومراقبته.

- إننى أعجب غاية العجب لاصطناعك دور الشرطى، اللعنة عليكما معًا اذهب يا أرول وجهز سوطا لألهب به ظهر بويى أما أنت يا بوبى فانصرف بسرعة، وأعد لى سوطا كى أصلى أرول عذاب الجحيم.

ترامت إلينا زفرات بكاء وعويل.

طرق مسمعنا صياح بهاكسو من محبسه أسفل السيارة:

لماذا لا تترك الصبيين وشأنهما؟ لا أستبعد أن تطبق بيديك على عنق أحدهما فى ذات يوم أو تلطم عينه فتفقأها فتزج الحكومة بك فى السجن لماذا لا تتركهما وشأنهما - لعنة الله عليك. لقد كبرا الآن ولا يحتاجان إلى وصايتك.

صاح به هات بوجه مصفر من الغضب: اخرس! لا تدس أنفك فى خاص شئونى، وقدر للسانك قبل

النطق موضعه من اللباقة. فأنا لا يردعنى خلق أو دين وسوف أتركك تحت هذه السيارة حتى تفارق الحياة ويعلو الصوات ويحتدم اللطم.

قالت السيدة بهاكسو لزوجها بريق جاف: تدبر أمرك بعين الحكمة، ولا تحكم بالظاهر.

بيد أن الحادث لم يكن فى حقيقة الأمر ينطوى على خطورة فرغم أن الرافعة انزلقت، إلا أن محور السيارة استقر على كومة من الخشب دون أن توقع به أذى وإن غرسته تحتها دون أن تدع له فرصة للإفلات أو الحركة.

وعندما خرج بهاكسو من محبسه الإجبارى اختلس إلى ملابسه نظرات خاطفة كان بنطلونه الكاكى وصداريه قد اصطبغا بالسواد من تلبد الشحم والأوساخ عليهما، واضطربا اضطرابًا يستدر الرثاء.

ضيق عينيه امتعاضًا وقال لزوجته بسخط واضح: إننى أوحل فى القذارة.

أمنت على قوله باحناءة من رأسها ثم حدجته بنظرة ملؤها الفخر والإكبار: نعم إن ملابسك متسخة لحد الازدراء ارتسمت على فم بهاكسو ابتسامة باهتة.

علا صوت هات وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

لقد استحوذ على الملل وتسرب الضجر إلى زوايا نفسى من اعتيادى إزاحة السيارة عن صدرك، ولذا

فإننى أنصح لك باستدعاء ميكانيكى على خبرة واسعة بإصلاح السيارات.

فتح بهاكسو شفتيه وهمهم دون أن يبين، ثم التفت صوب زوجه، وقال بصوت تمزقه الشكوى: ليس ثمة عيب فى ذراع الإدارة لابد أن الخلل فى جزء آخر من السيارة.

فقالت زوجه برجاء مشبع بالتودد: عليك أن تأكل أولا قبل أن تواصل بحثك عن موطن الداء، ثم التفتت صوب هات وقالت بصوت متشك ملىء بالمرارة: عندما يكون مستغرقًا بمهمة إصلاح سيارة، فإن نفسه تصدف عن الطعام ولذا فإن وجهه يبدو شديد الذبول والهزال فى هذه الأيام.

فقال هات وقد طفر الغيظ إلى قسمات وجهه: ما الذى ينبغى على أن أفعل حيال هذا الأمر؟ هل تتوقعين أن أدون على ورقة ملاحظاتى بالقلم الرصاص وأرسلها بالبريد إلى الصحف؟

كنت أريد أن أرقب بهاكسو فى تلك الليلة وهو مكب على إصلاح السيارة، فقلت ملاطفًا: إن ملابسك لا لون لها من تلبد الغبار والأوساخ عليها، أننى أعجب لارتدائك هذه الملابس، ومظهرك الذى يستدر الرثاء ويفصح فى نفس الوقت عن إهمال صريح نتيجة نسيان الذات.

افتر ثغره عن ابتسامة ارتياح وتساءل: وماذا تتوقع يا بنى من رجل مثلى كرس حياته لفن إصلاح

السيارات ولا يجد وقتًا كى يعنى بحسن هندامه وأناقته؟

خطر لى خاطر فتساءلت باسمًا: ما العطب الذى أصاب السيارة؟

اطرق مليًا لا يحير جوابًا.

تساءلت برقة خليقة بجذبه إلى رأيى سلفًا: هل يصدر عن الإصبع الغماز صوت كالزمجرة؟

من أقوال عمى بهاكسو التى كنت أستشهد بها كأنها جوامع الحكم قوله إن جميع السيارات تصدر عن أصابعها الغمازة أصوات كالزمجرة.

يخيل إلى أن أى امرئ كان يقدم إليه يستوهبه النصيحة فيما أصاب سيارته من عطب، كان يصغى إليه بكل جوارحه وهو يقول بلهجة تقريرية تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم: ثمة زمجرة تصدر عن الإصبع الغماز.

سألته مستوهبًا تأييده: ألا تصك أذنيك ضوضاء كالزمجرة؟

تقدم نحوى متسائلا بأنفاس مبهورة: هل تسمع حقًا صوتًا كالزمجرة؟

هممت أن أعيد على مسمعه ما قلته له بيد أن شفتىَّ انطبقتا كأنهما التصقتا بالغراء عندما رأيت السيدة بهاكسو تسحبه من يده قائلة: إن الجوع ينهش

بطنك، كما أن ملابسك لا لون لها من تلبد الغبار والأوساخ عليها.

لم تكن السيارة التى غرسته تحتها دون أن تدع له فرصة للإفلات أو الحركة تتسم بالجدة، وإن كان لا ينى عن الإشادة بحداثة عهدها بالطرق وبكارتها المزعومة.

كان يقول ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: «إنها لم تقطع سوى مائتى ميل»، إلا أن هات كان يضحك بجفاء ساخرًا: إننى أعلم أن ترينداد ليست شاسعة أو مترامية الأطراف بيد أن ادعاءك أنها مثل الحَّق يعز على التصديق.

عندما أرتد بذاكرتى إلى أيام الطفولة تتمثل لى صورة السيدة بهاكسو فى صباح يوم السبت الذى ابتاع فيه هذه السيارة.

قصدت إلى دارنا رأسًا وجلست تبادل أمى الحديث عن أسعار الأرز والدقيق والسوق السوداء، وقبل أن تنهض مستئذنة فى الانصراف قالت بارتياح ممزوج بزهو: «لقد ذهب اليوم إلى المدينة، وقبل أن يغادر الدار قال لى وهو يقطب بلطف قرن بين حاجبيه إنه لا يجد لنفسه بدًا من شراء سيارة جديدة».

انفعلنا بالنبأ لحد الهذيان وخرجنا إلى الشارع ننتظر السيارة الجديدة بصبر نافد وجزع لحوح.

انتصف النهار ونحن نشخص إلى الطريق بأعناق مشرئبة وحواس مرهفة دون أن نلمح لسيارته أثرًا.

قال هات بنبرة لم تخل من تهكم: لا يخامرنى شك فى أن بهاكسو مكب الآن على تفكيك المحرك إلى أجزائه فى شبه سخرة بغية إصلاحه.

وحوالى الساعة الرابعة قرع آذاننا دمدمة كأنها عزيف مارد من جان التفتنا بعنف صوب الصوت كأنما نستجيب للسعة سوط، ولمحنا سيارة شيفروليه زرقاء طراز عام ١٩٣٩ وهى تتجه صوبنا مزمجرة، وإن كانت ترفل فى ثوب من الجدة والفخامة، غمرتنا سعادة دافقة فعلا الصياح والزئاط، وجعلنا نلوح له وقد التمعت عيوننا بنور الأمل البهيج، لمحت بهاكسو وهو يلوح لنا بذراعه الأيسر وقد استغرقته سكرة طاغية من السعادة.

شملتنا سعادة غامرة جنونية آسرة، فرحنا نرقص فوق أديم الشارع أمام منزله فى رشاقة احترافية ونحن نطلق هتافات مجلجلة ترقص على أنغام فرح متدفق.

كان بهاكسو يسوق السيارة بسرعة جنونية صوبنا.

صاح هات بوجه مصفر من الغضب: إن الرجل قد جن فليسلم كل ساقيه للريح.

تفرقنا بسرعة كالحمام فى أعقاب طلقة، مرقت السيارة كالرصاصة أمام منزله، انحبست الهتافات فى الحلوق.

قال هات وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعابه وتعترض زوره: لقد فقد السيطرة على عجلة القيادة إن قلبى لينخلع فزعا عندما يتخايل لعينى مصيره المنتظر، هذا مالم تحدث معجزة.

قهقهت السيدة بهاكسو بصوت كالطبل ثم قالت: إننى أعجب غاية العجب لهذا الذعر الذى يلفكم.

بيد أننا شرعنا فى العدو وراء السيارة ودوى صراخنا يجعجع فى آذاننا. كف عن التلويح بذراعه الأيسر، إذ انصب جل اهتمامه الآن فى تحذير المارة من الخطر المحدق بهم.

توقفت السيارة فيما يشبه المعجزة قبل أن تبلغ طريق أريابيتا العمومى.

دعك بهاكسو ذقنه بيده متفكرًا ثم قال: لقد ضغطت على الفرامل بكل قوة عندما انعطفت نحو شارع ميجل، دون جدوى.

إن الأمر يتبدى لى لغزًا يستعصى على الأفهام إذ أننى أصلحت الفرامل صباح اليوم.

صاح به هات كبركان: إنك لن تجد لنفسك بدًا من استصراخ إرادتك وعقلك لينتشلاك من الجنون الذى تسلط تمامًا على وعيك، أو الرحيل إلى غير رجعة قبل إيقاع الأذى بالناس.

انجحر بهاكسو فى صمت يائس مليًا ثم تمتم: عليكم أن تساعدونى فى دفع السيارة حتى منزلى.

وحينما مررنا أمام منزل مورجان، خبير الألعاب النارية، ونحن ندفعها بعزيمة صلبة وإرادة من فولاذ، قرع آذاننا صياح السيدة مورجان: يا للبهجة المنعشة! إنك قد اشتريت سيارة جديدة يا سيدة بهاكسو.

لاذت السيدة بهاكسو بجحر الصمت.

تملكت السيدة مورجان روح دعابة فتساءلت: هل تعتقدين أن زوجك سيوافق عن طيب خاطر أن يصطحبنى فى نزهة بسيارته الجديدة؟

عضت السيدة بهاكسو على أسنانها من الغيظ وقالت: نعم سوف يأخذك للتنزه بسيارته ولكن عليك أن تعدينى أولا أن يأخذنى زوجك للتنزه بعربة الكارو التى ينوى شراءها.

صاح بهاكسو بزوجه مرعدًا كالوحوش الضارية:

احبسى لسانك القذر يا امرأة!

تساءلت زوجه نافدة الصبر: كيف تتوقع منى أن أقف مكتوفة اليدين وهى تغمزك بالسخريات. إنك زوجى ولا أقبل أن تسلخك هذه المرأة بلسانها.

نفخ مغيظا محنقًا وقال لها محتدًا: إننى أحذرك من التطوع للدفاع عنى ضد كل من هب ودب، ولذا أنصح لك أن تهبى لنجدتى عندما أطلب منك ذلك فقط.

استقرت السيارة فى موقفها بحذاء الطوار أمام منزل بهاكسو.

درنا على أعقابنا لنعود من حيث أتينا بقلوب تنوء بالخيبة والشجن فى حين تطايرت زعقات الغضب والويل تخترق آذاننا، كان الشجار الذى نشب بينهما يخلو من أى مسحة من إثارة أو تشويق، إذ راحت السيدة بهاكسو تردد على نحو يدعو إلى السأم والملالة أن من حقها الدفاع عنه، فى حين أصر الزوج على إنكار هذا الحق، ولذا لم يجد لنفسه بدا فى نهاية الأمر من أن ينهال عليها لكمًا وركلا حتى تهاوت فاقدة الوعى.

بيد أن تأديبها لم يكن أمرًا يسيرًا كما قد يخيل إلى أى امرئ لم تسنح له الفرصة لرؤيتها، فإن أردت أن تتمثل لك صورة واضحة الملامح للسيدة بهاكسو فلن تجد لنفسك بدًا من أن تستحضر بخيالك صورة حبة الكمثرى التى تشبهها لحد التماثل، إذ كانت بدينة مثل برميل، تستلفت الأنظار بإفراطها فى السمن لدرجة مخيفة عسيرة على تصور الخيال فعندما تطالعك معتمدة ذراعيها على جنبيها يتبدى لك ذراعاها مثل العلامات التى يضع الكاتب الكلمات بينها لتحصرها.

أما صوتها الذى يصم الآذان أثناء العراك فقد كان هات لا ينى عن القول بأنه يشابه الصوت المحشرج المتشنج الممزق الذى تنفر منه الخنافس والذى ينبعث من جهاز تسجيل عندما يكر المرء الشريط بسرعة هائلة.

أعتقد أن بهاكسو ظل مكبًا لفترة طويلة على تجربة صنوف من العصى مختلفة الأشكال والأحجام فى سعيه لتأديب زوجه.

بيد أنه لا يسعنى أن أقسم بأغلظ الأيمان إن هات لم يكن الشخص الذى أوصاه باستخدام عصا كريكيت.

بيد أن شخصية المحرض على الإيذاء لا تعنينا فى واقع الأمر.

ابتاع بهاكسو عصا كريكيت مستعملة من أحد العاملين فى منتزه بارادفال، ثم دلكها بالشحوم بعناية فائقة.

قال هات بصراحة معهودة فيه: أعتقد أن هذا الصنف من العصى يعد الوسيلة الناجعة الوحيدة لحملها على الإذعان لمشيئته.

أما الشىء الذى يعز على التصديق فهو أن السيدة بهاكسو لم تكن تنى عن تنظيف العصا بهمة لا تعرف الكلل.

سعى بويى بإرادة لا تلين إلى استعارة العصا لأيام قلائل، بيد أن السيدة بهاكسو لم تتزحزح عن إصرارها قيد حبة رمل.

قصدت منزل بهاكسو رأسًا فى عشية ذلك اليوم الذى سقطت فوقه السيارة لكى أراه وهو مكب على عمله المعتاد.

سألنى وهو يستشعر شيئا من القلق: أعد على مسمعى ما قلته بشأن الزمجرة المنبعثة من السيارة.

- إننى لم أقل شيئا لقد كنت أتساءل فحسب عن سبب الزمجرة التى تذكرنى بدمدمة عراك حام نشب بين السكارى فى إحدى الحانات.

- أوه... هذا أمر عجيب.

عكف بهاكسو على تفكيك المحرك إلى أجزائه بهمة عالية من طلعة الصبح حتى جوف الليل، وواصل العمل طوال اليوم التالى الأحد تسكره نشوة متحفزة للمغامرة، والتكيف مع تحديات الواقع، بيد أننا فوجئنا باستدعاء الميكانيكى فى صباح يوم الإثنين.

قالت السيدة بهاكسو لأمى بصوت تغلب على نبرته سمة الشكوى:

تطوعت الشركة بإرسال أحد العاملين لديها لإصلاح السيارة.

بيد أن ما يثير القلق ويكدر علينا صفونا هو أن هؤلاء العمال الفنيين من تريندادد يجهلون كلية «المبادئ الأولية لإصلاح السيارات.

قصدت إلى منزل بهاكسو رأسًا ورأيت الميكانيكى مكبًا على عمله فى شبه سخرة وقد تقوس دافنا رأسه تحت غطاء السيارة الأمامى، بينما اقتعد بهاكسو أفريز السيارة تتألق عيناه بالنشاط والحماس والأمل وهو يطلى بالشحم كل قطعة يناوله الميكانيكى إياها.

كان وجهه يتألق بالسعادة وهو يغمس أصابعه فى مادة التشحيم اللزجة، وقفت أرمقه بعين الإعجاب المقرون بالحسد:

هل تسمح لى بأن أطلى قطعة أو قطعتين بهذه المادة يا عمى؟

لحظنى بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر، وصاح فى زمجرة:

غر فى داهية.. إنك لم تبلغ بعد طور الرجولة.

اقتعدت الأرض أرقبه وقد اشتعلت جوارحى بنيران مقدسة.

قال فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: لقد تتبعت مصدر الزمجرة وأصلحته أنه الأصبع الغماز!

قلت وقد ابترد صدرى بلذة الارتياح والأمل: هذا خبر طيب.

انفجر الميكانيكى فى غضب قاذفًا بسيل من اللعنات الفاحشة.

تساءلت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل: هل تجد عيبًا فى الدائرة الكهربائية؟

فقال بفخر صبيانى: لقد فحصتها بعناية بالغة.

نهضت والتففت حول السيارة وجلست إلى جانبه على أفريز السيارة.

نظرت إليه فوجدت وجهه يشرق بنور الأمل، قلت بحماس:

أود أن أبوح لك بسر.

- ماهو؟

- عندما سمعت صوت المحرك فى يوم السبت الماضى تأكد لى أنه يعانى من خلل بين.

فقال بهاكسو وهو يبتسم مشرقا: إنك تتقدم فى الدرس بنجاح لذا يحق لك أن ترمق مستقبلك بعين الاستبشار.

- إننى أدين لك بالفضل، ولذا لا يسعنى أن أقابل صنيعك بالإنكار والجحود.

كانت خبرتى بإصلاح السيارات فى حقيقة الأمر تقتصر على مصطلحات تلوكها الألسن مثل الأصبع الغماز والدائرة الكهربائية، وصوت المحرك.

خطر لى خاطر هبط على نفسى كما تهبط أداة النجاة على المتخبط بين الأمواج، فخاطبته والبشر يتألق فى وجهى: هل تعلم أن مصدر الخلل هو الكاربيراتور؟

- هل تعتقد هذا حقًا يا فتى؟

فقلت بنبرة العالم ببواطن الأمور: إن هذه حقيقة لا يرقى إليها شك.

- سوف أعرض هذا الاقتراح على العامل الميكانيكى رغم أننى أعلم أنه سيرفضه.

انتزع العامل الميكانيكى عينيه من المحرك ورفع إلينا وجهًا يغشاه طبقة غليظة من غبار وقذارة وقد

نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنه سجل لقرف الزمان: ماذا يتوقع المرء من أناس عاطلين من الذكاء لحد يدعو إلى الاشمئزاز عندما يعبثون بمحرك سيارة قام بصنعه البيض بهمة عالية.

غمز لى بهاكسو بعينه وقال فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: أننى أعتقد أن الكاربيراتور هو مصدر الخلل كنت أجد قرة عينى فى تقديم يد العون إليه، بيد أن الطقوس االمتعلقة بإصلاح الكاربيراتور هو مصدر الخلل كنت أجد قرة عينى فى تقديم يد العون إليه، بيد أن الطقوس المتعلقة بإصلاح الكاربيراتور استبدت بقلبى، واستهوتنى بسحرها الأخاذ، كان بهاكسو أحيانا يشغل المحرك بينما كنت أبسط راحتى على الكاربيراتور ثم أرفعها فى حركات متشنجة إلا أن بهاكسو لم يفض إلىَّ قط بخبايا هذه المهمة، كما أننى لازمت الصمت أن يوردنى لسانى عثرة جديدة، كنا أحيانًا لا نجد لنفسينا بدًا من أن ننزح قدرًا من البنزين من الخزان كى أصبه فى الكاربيراتور بينما كان بهاكسو يشغل المحرك. وطالما كنت أطلب إليه أن يسمح لى بتشغيل المحرك، ولكنه كان يعير توسلاتى أذنا صماء.

ذات يوم اشتعل المحرك بالنيران، فاستجبت إلى الصوت الباطنى الذى استصرخنى ملهوفًا على الفرار بيد أن النيران سرعان ما خمدت.

ترجل بهاكسو من السيارة، وشخص إلى المحرك بعينين ارتسمت فيهما نظرة زائغة ذاهلة، ثم أغمض

عينيه كأنما يفرغ شحنة احتداده، ولذا ساورنى هاجس قلق بأنه سيعاود تفكيك المحرك إلى أجزائه.

إلا أن هذا اليوم شهد - لحسن الحظ - آخر تجربة خضناها مع الكاربيراتور.

انتهى بنا الأمر إلى استدعاء العامل الميكانيكى الذى تفقد المحرك والفرامل ثم قال وقد مط بوزه برما: إن السيارة الآن تتألق بالصحة والعافية. لقد تجشمت عناء فى إصلاحها يفوق الجهد المبذول فى صنع سيارة جديدة، ولذا أنصح لك بالكف عن العبث بها.

بعد أن غادرنا العامل الميكانيكى وصدره يجيش بانفعال عاصف، درنا حول السيارة مرتين أو ثلاث موزعين بين الشك واليقين دعك بهاكسو ذقنه بيده متفكرًا، ثم مرق إلى داخل السيارة كالرصاصة واحتل مقعد السائق، ونفخ فى البوق عدة مرات.

سألنى: ما رأيك فى صوت صرصرة آلة التنبيه؟

تورد وجهى بهجة وقلت: أنفخ فى البوق ثانية حتى يتسنى لى الحكم.

سمعت نفخة البوق.

أطل هات برأسه من إحدى النوافذ وصاح ببهاكسو بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير: ما هذا الصخب والعجيج يا رجل؟ أتتوهم إنك تحيى حفلا لعرس أحد سكان الشارع؟

نظرنا إليه نظرات متعالية فى صمت.

قلت له بعبارة بينة: أعتقد أن البوق يصدر عنه صوت محشرج متشنج ممزق لا تخطئه الأذن.

اشتعل باهتمام داهم حاد وتساءل:: هل تعتقد هذا حقًا؟

تقلص وجهى فى استياء وبصقت على الأرض فى ازدراء مصطنع.

غمرتنا موجة حماس وتوثبنا بهمة صلبة لإصلاح البوق.

بعد أن فرغنا من مهمتنا فى لف قطعة من السلك الكهربائى حول عمود عجلة القيادة، قال لى بهاكسو وقد لاح الرضا فى بريق عينيه: ما عليك الآن سوى أن تلمس أى قطعة معدنية فى السيارة بهذا السلك فتصرصر آلة التنبيه.

بدا الأمر لى لغزًا محيرًا، بيد أننى هزنى سرور يجل عن الوصف عندما مزق الصمت الشامل نفخة بوق.

ضحكت قائلا فى حبور: عمى بهاكسو كيف تسنى لك الإحاطة بجميع هذه المعارف؟

أحس بهاكسو إحساس الحران يهب عليه نسيم بارد معطر بالياسمين، فقال بارتياح ممزوج بزهو: ما عليك إلا أن تستحضر فى نفسك العزيمة للنهل من منابع المعارف بعزم لا يقهر.

كان سكان شارعنا يهتاجهم الغيظ لتكدير بهاكسو عليهم صفوهم، بيد أننى كنت أرمقه بعين الإكبار والمحبة لتحليه بإخلاص الفنان، الذى يكرس قلبه لعمله مثله فى ذلك مثل بوبو النجار، فعندما تستعيد لى الذاكرة حياتى طفلا تطالع عينى صورة بهاكسو الفنان، إذ كان يستهويه إصلاح السيارات التى كان يجد فيها قرة عينه ونبع حبه ومعقد أمله، ولم يساوره قط هاجس قلق بشأن النقود، بيد أن زوجه كانت تقدس المال لدرجة التفانى والتصلب مثلها فى ذلك مثل أمى إذ كانت تؤمن بأن على المرء أن يخلق النقود من العدم.

حادثت أمى فى هذا الأمر ذات يوم، قالت لها أمى بلهجة الناصح: إن اقتناء تاكسى كفيل بأن يجعل المال يجرى بين يديك فى فيض ويسر، إذ بوسعك المضى به فى طرقات المدينة مصطحبة الجنود الأمريكان وصديقاتهم.

أذعن بهاكسو مغلوبًا على أمره وابتاع سيارة نصف نقل.

كانت هذه السيارة موضع زهو سكان شارعنا لضخامتها وجدتها وفخامة طرازها «بدفورد» وعندما هلت السيارة تتبختر فى زينتها وبهجتها رقص بين ضلوعنا حماس بهيج وجلجلت الزغاريد والهتافات.

كانت السيارة تشع هالة من حسن ورواء فوقع مظهرها من نفوسنا حتى نفس هات، موقع السحر، قال هات متحمسًا:

لا يسع سوى الإنجليز صنع سيارة بدفورد، فهى بالقياس إلى ما تملكونه من فورد أو دودج لؤلؤة ثمينة يخطف بريقها الأبصار.

نشط بهاكسو لإصلاحها بعد ظهر نفس اليوم الذى ابتاعها فيه بهمة عالية طافت السيدة بهاكسو بيوت الشارع قائلة مدفوعة بشعور الفخار الذى دب فى قلبها: تعالوا لإلقاء نظرة عليه وهو مكب على إصلاح البدفورد.

كنا أحيانا نراه وظهره يتماوج كالدودة فى انكماش وانبساط وهو يتزحزح من موضعه أسفل السيارة ثم بعد ذلك نجده ينشط لتلميع أرفف عجلات السيارة وغطاء المقدمة، وما أن يفرغ من هذه المهمة حتى يعاود الزحف أسفل السيارة.

بيد أنه بدا شارد الطرف متجهمًا ومستسلمًا للمقادير.

فى اليوم التالى شكل نفر من سكان شارعنا الذين أقرضوه مالا لشراء البدفورد وفدًا توجه إلى منزله ليتوسل إليه أن يكف عن العبث بالسيارة.

ظل بهاكسو مستلقيًا على ظهره أسفل السيارة صامتًا كأنما أستل لسانه من حلقه، وقف أعضاء الوفد يتميزون من غيظ مكتوم، فى حين أخذت العضوات رجفة انفجرن معها باكيات فى توتر عصبى عنيف، بيد أن عويلهن الذى كان يثقب الآذان انزلق فوق قلبه فلم يترك أثرًا؛ ولذا لم يجد الوفد لنفسه

بدًا فى نهاية الأمر من الرحيل، مهيض الجناح، يمضه الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة.

عندما غادر الوفد المكان، انقلب بهاكسو مجنونًا ووثب الافتراس من سحنته، فوثب على زوجه كالنمر وأنشب فيها مخالبه: إنك شيطانة مولعة بالمعصية لقد سولت لى ابتياع اللورى، ولم تتورعى عن تزيين هذه السقطة لى!

إنك مثل أمك يفتنك المال إلى حد التقديس.

بيد أن الثورة الكاسحة الجامحة التى كانت تتضرم فى نفسه كان مبعثها الحقيقى إخفاقه فى إعادة تركيب المحرك بعد تفكيكه إلى أجزائه، وقف يقضم ظفره فى حيرة وارتباك، متسائلاً عن المخرج من وكسته، تمضه الحيرة حيال مصير قطعتين أو ثلاث لم يدر كيف يعيدها إلى موضعها الأصلى.

بعث وكلاء الشركة التى باعته السيارة عامل ميكانيكى لانتشاله من ورطته المؤيسة، خطف نظرة جانبية من السيارة وتساءل فى هدوء:

لماذا اشتريت سيارة بدفورد؟

فقال بهاكسو بوجه متقلص من العذاب: إننى أحب هذا الطراز من السيارات.

فصاح العامل الميكانيكى فى وجهه وصوته يرعد من الغضب:

لماذا لم تبتع رولز رويس؟ فهى تمتاز بمحرك يستحيل تفكيكه إلى أجزائه ثم نشط لعمله بهمة عالية وهو يهتف بصوت مخنوق النبرات:

إن القلب يتفتت رثاء لمصير عربة لورى فى عز أبهة الشباب مثل هذه العربة.

بيد أن بهاكسو عجز عن إدارة المحرك، ولذا اضطر إلى استخدام عصا معدنية لإدارته.

قال هات والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته:

لقد جعلنا بهاكسو مضغة للأفواه، فهذه العربة التى تبهر حسنها الأعين، والمفعمة بالشباب والحيوية لا تتحرك إلا بعصا معدنية كما لو كانت عربة طفل رضيع هرمة تمضى وهى تترنح فوق أديم الشارع مطقطقة.

بيد أن السيدة بهاكسو كانت تتيه عجبًا وسرورًا بهذه العصا المعدنية التى تدير المحرك بما يشبه المعجزة:

يا للبهجة المنعشة! ها هو المحرك يدور مطلقًا قرقرة مزمجرة!

فى صباح أحد أيام السبت التى كانت تشهد إقامة سوق للبيع والشراء، جاءت السيدة بهاكسو وهى تذرف الدمع الغزير، وقالت لأمى بصوت تخنقه العبرات:

لقد حملوه إلى المستشفى.

قطبت أمى فىّ اهتمام وتساءلت: حادث؟

فقالت السيدة بهاكسو والألم يفرى كبدها: كان يدير محرك السيارة بالعصا أمام السوق، فاندفعت السيارة بغتة مزمجرة فدفعته دفعة قوية ألقته متقهقرًا على ظهره حتى ارتطم بسيارة لورى كانت مستقرة فى موقفها بحذاء الطوار.

قضى بهاكسو أسبوعًا فى المستشفى ثم غادره بعد أن تماثل للشفاء.

بلغ الضيق ببهاكسو حد الغضب، فقامت فى نفسه ثورة جامحة، فراح يكيل لزوجه ضربات صادقة بعصا الكريكيت، بيد أن السيدة بهاكسو لم تعدم الوسيلة لرد اعتدائه عليها، فكانت تنهال عليه سبًا ولعنًا وتسلقه بلسان حداد، وأعتقد أنها بهذا السباب المقذع تمكنت من أن تخسف به الأرض ليكون موطئ نعال.

كانت مهمة العودة بالسيارة إلى الوراء حتى تجتاز بوابة الفناء مهمة عسيرة بيد أن السيدة بهاكسو اضطلعت بمهمة التوجيه والإرشاد يهزها سرور يجل عن الوصف.

قالت له يومًا وقد أضاء وجهها نور السرور: هيًا عد إلى الوراء.. انحرف قليلا إلى اليمين.. لا تخش شيئًا.. ثم بعجلة ولهوجة فى رجفة الجازع: لا.. لا توقف... سوف تحطم السور.

وقع هذا الكلام من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل، فبرقت فى عينيه نظرة جنونية، ودفع السيارة إلى أقصى سرعة إلى الخلف فاصطدمت بالجدار حتى تشقق فى خطوط متوازية ومتقاطعة، ثم دفع السيارة إلى الأمام معيرًا صراخها أذنًا صماء، وعاود دفع السيارة إلى الخلف فصدم السور ثانية حتى سوى به الأرض.

كان يصر على أسنانه حنقًا، قصد رأسًا حجرته الصغيرة مشيعًا بعويل زوجه، ونزع قميصه وطرحه أرضًا، وانطرح على وجهه فوق الفراش، وفتح كتاب الراميانا وراح يقرأ منه بصوت جهورى.

لم يهيئ إيراد اللورى لبهاكسو حتى عيشة الكفاف، وكى يرتزق من عمله لم يجد لنفسه بدًا من استخدام عمال لشحن العربة بالبضائع، استخدم اثنين من المهاجرين من جزيرة جرينادا الذين يمتازون بضخامة فى الجسم وسمرة غامقة والذين كانوا يفدون إلى بورت أوف سبين فى تيار لا ينقطع.

كانا يناديان بهاكسو «بالسيد صاحب العمل» وزوجه «مدام»، وهما لقبان كانا يسريان فى النفس مسرى السحر.

بيد أننى عندما كنت أنظر إلى هذين الرجلين وهما يضطجعان على راحتيهما مادين ساقيهما فوق الصندوق الخلفى لعربة النقل فى ملابسهما المهترئة المتلبدة بالعرق والغبار، وقد أحكما لبس القبعة

الصوفية فوق رأسيهما، كنت أساءل نفسى فى حيرة وانزعاج عما إذا كانا يدريان قدر الحيرة والارتباك الذى يخامر من حولهما بسبب وجودهما فى هذا المكان، وأن موقفهما يشابه ورقة شجر جافة فى مهب زوبعة متناوحة.

كانت السيدة بهاكسو لا تنى عن الحديث عن مصير هذين الرجلين عندما تجالس أمى، كانت تقول لها باسطة راحتيها فى يأس، وقد تقلص وجهها من الانفعال والحزن: بعد الغد يحين موعد دفع أجرة الحمَّالين، ثم تطالع أمى بعد يومين بوجه تظلله سحابة كدر فتبدو كشمعة لم يبق منها إلا عقب فتيلة قائلة:

اليوم سندفع للحمَّالين أجرتهما ثم لا تلبث أن تعاود الزيارة فتجىء منفعلة كسيرة النفس لتعيد على مسمع أمى نفس الألفاظ وقد تعثرت على شفتيها مقاطع ممزقة مبتورة: بعد الغد يحين موعد دفع أجرة الحمَّالين.

تلقت أذناى طوال الشهور التالية متململة نفس الجملة المسجوعة عن واجب دفع الأجرة، اجتاح الخبر الشارع كالنار المستطيرة، وترددت الجملة على الألسنة كأنشودة للضعف وقلة الحيلة.

ففى أحد أيام السبت ضحك بويى قائلا لإرول فى حبور:

إننى أدعوك لاصطحابى إلى حفل الواحدة والنصف بسينما روكسى.

دس إرول يده فى جيبه وقلبه بطنا لظهر قائلا: لقد تدهورت ميزانيتى إلى الحضيض، فلا يسعنى الذهاب معك فسوف أدفع أجرة الحمَّالين.

قال هات متفلسفاً:: يخيل إلىَّ أن بهاكسو اشترى عربة النقل لكى يدفع للحمَّالين أجرتهما فحسب.

اختفت العربة فى النهاية، وباختفائها ذهب الحمّالان إلى غير رجعة.

لم أدر شيئا عن مصير هذين الرجلين، حرضت السيدة بهاكسو زوجها على بيع السيارة النقل عندما بدأ الحظ يبتسم لمالكى هذا النوع من السيارات بعد عبوس، وأقبلت الدنيا عليهم بعد إدبار.

ابتاعا تاكسيًا عوضًا عن سيارة النقل، بيد أن المنافسة فى مجال التاكسيات كانت تتسم بوحشية تعز على التصديق.

كما أن الزبون كان ينقد سائق التاكسى اثنى عشر سنتا عن كل ثمانية أميال يقطعها بسيارته، وهو مبلغ يفى بالكاد نفقات التاكسى من زيت وبنزين.

كاشفت السيدة بهاكسو أمى بوساوسها: إن دخلنا من التاكسى لا يفى بنفقاته.

قر منها العزم على شراء تاكسى آخر، واستخدمت رجلا لقيادته. قالت لأمى ملتمسة الطمأنينة لنفسها: إن تاكسيين أفضل من تاكسى واحد.

توفر بهاكسو لقراءة أناشيد الراميانا بصوت جهير بحماس وأشواق.

بيد أن تلاوته أثارت غيظ سكان شارعنا وحنقهم، قال هات وقد اشتد به الغضب فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر: هاهو صوتها يتصاعد كنقيق الضفدع، فى حين تهزج حنجرته بهذه الأناشيد اللعينة.

كثيرًا ما أستحضر بخيالى هذا المشهد الذى يثير فى النفس كوامن الشجن: السيدة بهاكسو بقامتها القصيرة لحد الازدراء، وبدانتها المفرطة وقد وقفت عند صنبور المياه فى فناء منزلها وهى تصيح بزوجها غاضبة بصوت كالرعد، فى حين استلقى بهاكسو على بطنه عارى الصدر وهو يتلو بنبرة حزينة شاكية أناشيد الرامايانا، ثم ينتفض واقفًا بغتة ووجهه يموج بالغضب ويلتقط عصا الكريكيت التى تقبع فى ركن الحجرة ثم يندفع إلى الخارج كالإعصار وينهال عليها بالضربات الصادقة حتى تقع مغشيًا عليها.

ثم يسود صمت مقطع بأنفاسه المترددة لدقائق قلائل، سرعان ما يخرقه صوته مترنمًا بصوت مرتفع بأنشودة من الرامايانا.

ورغم أن بهاكسو كان يغلظ المعاملة لزوجه إلا أن قوة شخصيته كانت تنفخ جناحيها بالفخر إذ أن أى امرئ كان يترامى إلى سمعه أصوات الشجار الذى كان ينشب بين السيدة بهاكسو والسيدة مورجان كان يدرك من فوره أن السيدة بهاكسو كانت لا تزال ترمقه بعين الإكبار والمحبة.

تعالى صوت السيدة مورجان قائلة وهى تشكم رغبتها فى السخرية: لقد ترامى إلى صوت زوجك ليلة أمس وهو يرطن فى نومه بكلام لم أميزه.

فقالت السيدة بهاكسو بانفعال لم تستطع كبحه: لم يكن يتحدث أثناء نومه فهو لم يطرق عينيه نوم حتى الصباح وظل مستيقظًا يترنم بالأناشيد.

ضحكت السيدة مورجان بجفاء ساخرة: يترنم بالأشعار؟!

إننى أود أن أكاشفك برأى لا يسعنى كتمانه.

- ماهو يا سيدة مورجان؟

- لو أراد زوجك أن يتعيش من الغناء، فسوف تبيتان ليلة بعد ليلة تتلويان من عض أنياب الجوع.

- إن هذا الرجل الذى تغمزينه بسخرياتك يزهى بنفسه، على عكس جميع رجال شارعنا - عن امتلاء داخلى، فبوسعه القراءة والكتابة باللغة الإنجليزية والهندية. لقد تبين لى اتفاق أنك تجهلين أن الراميانا كتاب مقدس، فلو كنت استوعبت جوامع الحكم التى تهزج بها حنجرته لما رددت على مسمعى مثل هذه الترهات!.

- كيف حال زوجك صباح اليوم؟ هل نشط لإصلاح أى سيارات جديدة كعادته؟

- لن أدنس فمى بالتنابذ بالشتائم معك وتبادل قارص الكلمات، ولكنى أؤكد لك أنه يعرف كيف يصلح سيارته.

إننى أعجب غاية العجب لإحجام جميع سكان شارعنا عن تلقين زوجك دروسا فى إصلاح الألعاب النارية.

كانت السيدة بهاكسو لا تنى عن الإشادة بتوفر زوجها على ختم الراميانا مرتين أو ثلاث مرات كل شهر بهمة وحماس.

فكانت تردد وقد هزها طرب الخيلاء: لقد حفظ بعض الأجزاء كاملة عن ظهر قلب.

إلا إن هذا الإنجاز لم تجد فيه العزاء عن وكستهما المالية التى بلغت حدًا يدعو حقًا إلى الرثاء فالرجل الذى استخدمته لقيادة سيارة التاكسى الثانية تحرك الطمع فى صدره.

ضيقت عينيها امتعاضًا وقالت بسخط واضح: «إنه يسطو على إيراد التاكسى معتلاً بشتى العلل، فهو يقول إن الإيراد لا يفى بالنفقات، فأجدنى الآن مدينة له بنقود».

اضطرت فى نهاية الأمر إلى رفته وبيع السيارة.

لم تدخر السيدة بهاكسو من وسعها وسعًا، فانصرفت بجهدها بحثًا عن مصباح تزيح به ذلك الظلام، شرعت فى تربية الدجاج، بيد أن الأفق أسود فى عينيها، وانطفأت فى نفسها جذوة الحماس عندما اكتشفت سرقة أعداد هائلة من دجاجها، وانقضاض الكلاب الضالة على ما تبقى من الدجاج

الذى نجا من السرقة فنشبت أنيابها فى زمارة رقبتها، كما أن بهاكسو كان يقطب مستاء وتلوح فى عبوسه بوادر الانفجار كلما سطعت أنفه رائحة عشة الدجاج النفاذة، ولذا هجرت عملها وشرعت فى الارتزاق من بيع الموز والبرتقال، ورغم أن هذا العمل كان يدر عليها دخلا ضئيلا، فإنها كانت تجد فيه قرة عينها ومبعث سعادتها الغامرة.

سألتها أمى استجابة لخاطرة طارئة: لماذا لا يفكر زوجك فى البحث عن عمل؟

رفعت السيدة بهاكسو حاجبيها فى استنكار متسائلة: كيف طوح بك الخيال لهذا الحد؟

- إن قلبى يتفتت رثاء لك، إننى أخشى أن يقهرك الشقاء على ذل السؤال.

- هل يسعك حقًا أن تتمثليه مكبًا على العمل جنبًا إلى جنب مع عمال بورت أوف سبين الذين تلوح عليهم سمة اللصوصية ووصمة الخسة والدناءة؟

فقالت أمى بلهجة الانتقاد المر: بيد أنه لن يجد لنفسه بدًا من التعيش من حرفة أو عمل، فلا يسع المرء الارتزاق من الاستلقاء على ظهره تحت سيارة أو الترنم بأشعار الراميانا.

أومأت السيدة بهاكسو برأسها موافقة، بيد أن وجهها اكتسى بطابع الأسى.

حل الصمت مليًا حتى تساءلت أمى: هل أنت واثقة أن بهاكسو على معرفة فسيحة بالراميانا؟

- لا يخامرنى شك فى هذا.

فقالت أمى بصوت تشى نبراته بانفعالها: إن الأمر فى غاية السهولة، فهو ينتمى إلى طائفة البراهمة، وعلى معرفة بالراميانا، ولديه سيارة، ولذا فليس ثمة ما يحول بينه وبين أن يصبح فقيهًا تطبق شهرته الآفاق الكهنوتية فى البلاد.

فقالت السيدة بهاكسو وهى تفرك راحتيها فى سرور: إنها فكرة رائعة، ففقهاء الهندوس يظفرون من الدنيا بالحظ السنى، ويتقلبون فى النعيم ويتمرغون فى أسباب الترف.

ورغم انخراطه فى سلك رجال الدين فإنه لم يكف عن ممارسة هواية العبث بمحرك سيارته بغية إصلاحه، إلا أنه لم يجد لنفسه بدًا من الكف عن ضرب زوجه بعصا الكريكيت، ورغم هذا كان يرفل فى حلل السعادة، ويهزه سرور يجل عن الوصف.

عندما أسرح فى فراغى مستعيدًا أحداث الماضى تتجلى لمخيلتى صورة بهاكسو وهو يزحف مرتديًا وزرة فى خاصرته تحت السيارة كى يصلح ذراع إدارة المحرك فى حين يقف نفر من فقراء الهندوس ينتظرون دون ملل أن يفرغ من مهمته كى يداوى قلوبهم العليلة وضمائرهم التى ترزح تحت وطأة الشعور بالإثم.



(١٤)
الاستمساك بالحذر

لم يصدق بولو أن الحرب العظمى وضعت أوزارها حتى عام ١٩٤٧ فحتى هذا العام كان يردد دومًا: الأمر لا يعدو كونه دعاية أو حيلة جازت على السود كى يستتيموا إلى سبات الطمأنينة العذب.

ففى عام ١٩٤٧ شرع الجنود الأمريكيون فى تقويض خيام معسكرهم فى منتزه جورج الخامس فتقوضت دنيا الكثيرين، وتبدد حلمهم، وتبخرت سعادتهم.

عطفت على دكان بولو فى يوم الأحد. وبينما كان يعكف على قص شعرى قال وقد تألقت عيناه ببريق أمل:

سمعت أن الحرب قد انتهت.

فقلت بصوت يكاد ينحبس فى حلقى: لقد تناهى إلى سمعى هذا النبأ أيضا. بيد أن الشك لا يزال يساور قلبى.

أحنى رأسه مؤمنًا على قولى: صدقت فهؤلاء الناس يجيدون فن الدعاية بيد أننى أنظر إلى الأمر علَى هذا النحو:

فإن كان لهيب الحرب لا يزال مستعرا لم يكن لتساورهم الرغبة فى تقويض خيامهم.

فقلت بعجلة ولهوجة: ولكنهم قوضوا خيام معسكرهم.

فقال بولو: هذا بالضبط ما أعنيه، فالأمر لا ينطوى على لغز ينبهم مغزاه على الإدراك، فعندما تضيف اثنين إلى اثنين فما الناتج أخبرنى. ما الذى تحصل عليه؟

أجبت بلهجة لاهثة: أربعة.

لاذ بالصمت متفكرًا هنيهة لم يسمع فيها إلا صوت صفقة المقص. خرج من صمته قائلاً:

لقد بل قرار إنهاء الحرب صدرى بندى الطمأنينة والسلام.

وعندما دفعت ثمن قص الشعر سألته: ما الذى ينبغى علينا أن نفعله الآن يا سيد بولو؟ هل تظن أنه يجدر بنا أن نحتفل بهذه المناسبة؟

رنا إلىَّ بطرف واجم ثم قال: أمهلنى وقتًا كى أقلب أوجه الرأى فى المسألة، وأستعرض كافة الاحتمالات.

حسمت المسألة على هذا النحو، ولم أفاتحه فى الموضوع بعد ذلك وعندما ارتد بذاكرتى إلى أيام الطفولة فإن صور تلك الليلة التى سرى فيها نبأ انتهاء الحرب فى بورت أوف سبين سرى الحريق بين الهشيم تمر أمام مخيلتى فى تزاحم وتسابق وجنون

شملت الناس سعادة غامرة جنونية آسرة اقتلعتهم من دنيا الأحزان، فانطلقت الجموع الحاشدة إلى الشوارع وهم يضربون الطبول، وهزجت الحناجر بالأناشيد، وانطلق العازفون يستنطقون الأوتار، واسترسل البعض فى الغناء حتى رقصت الجدران من سكرة الطرب. انبعثت أغنية شعبية جديدة فى النفوس بوحى البديهة، وانخرط الجميع فى الرقص على إيقاع الغناء:

طوال الليل والنهار لا تنى ميس مارى آن عن معاشرة الرجال على ضفة النهر.

رمق بولو الراقصين بنظرات ملتهبة حادة وقال وقد أخذ رأسه يحمى بالحدة: يا للغباء والحماقة! إن السود مثال لضيق الأفق وخيبة الرجاء.

تساءلت نافد الصبر: ألا تعلم يا سيد بولو نبأ انتهاء الحرب؟

رمقنى بنظرة استياء وازدراء، ثم لفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس: ومن أين لك أن تعلم؟ هل كننت تقاتل فى هذه الحرب؟.

- ولكن الراديو أذاع النبأ، كما طالعته فى الصحف.

فرت منه ضحكة خفيفة ثم قال: إنك تلقى القول على عواهنه دون تحقيق أو تمحيص أو تثبت كطفل صغير ولا استبعد أن يقع هذا القول من آذان الناس موقعًا غريبًا يثير سخريتهم الخفية. إن أمرك

يحيرنى، إنك لا تنى عن الإشادة بخبرتك الواسعة بالحياة بيد أنك لا تزال تصدق كل ما تطالع فى الصحف من أنباء.

لقد لقنت هذا التحذير مرارًا من قبل، كان بولو فى الستين من عمره، تفتحت عيناه ـ بعد أوهام العمى. على حقيقة كان يرددها دوما كأنها جوامع الحكم: «لا تصدق أبدًا كل ما تطالع فى الصحف من أنباء».

ـ كانت هذه الفلسفة موضع زهوه ومعقد أمله، بيد أنها لم تجعله يطيب بحياته نفسًا أو تنفض عن حياته أى ظل للكدر، إذ كان جانب عريض من حياته ينضح بالتعاسة بحيث بدا مثالا صادقًا للحزن المقيم فى شارعنا، يخيل إلى أن بولو عبس له الزمان، وهو لم يزل بعد طفلا رضيعًا فى قماطه. بوسعى أن أؤكد فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة أننى لم أره قط يضحك ضحكة صافية مترعة بصحة وعافية، أو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل، إذ كان صدره يتفجر عن ضحكات قاسية أو عصبية يدارى بها تأثره، رغم أننى كنت أراه مرة كل أسبوع على الأقل على مدار أحد عشر عامًا. كان طويل القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء تظلل وجهه دومًا سحابة كدر، وغالبا يحمل طابع المتقزز كأن ليمونة تعصر فى فيه، ويظلل عينيه الواسعتين اللتين تنبعث منهما نظرة توحى بالخلو التام تقريبا من الذكاء والحرارة حاجبان متعرجان كقوس.

أحاط بى شعور من الدهشة والعجب حيال وسيلة حصوله على الرزق بعد أن هجر مهنة الحلاقة أو كاد بيد أنه يخيل إلى أنهم سوف يسلكونه فى زمرة الحمالين فى أى إحصاء سكانى.

كانت العربة التى يدفعها أمامه صغيرة لحد يدعو إلى الدهشة إذ كانت تتكون من صندوق صغير ذى عجلتين يدفعها أمامه بقامته الطويلة يعلوه الوجوم والانكسار وقد لاحت فى وجهه خيبة واضحة تدفع بك إلى التساؤل عن هذا الإصرار العجيب على دفعها أمامه، وكان يسعه أن يحمل فوق هذه العربة جوالين أو ثلاثة فقط من الدقيق أو السكر.

إلا أنه فى أيام الآحاد فحسب كان يمارس مهنة الحلاقة التى كان لا ينى عن الإشادة بانتصاراته فى حلبتها وعلو يده على معظم ممارسيها.

طالما كان يتساءل بوجه ممتعض: هل تعرف صموئيل؟

كان صموئيل قد تسنم قمة الشهرة والنجاح وطبقت شهرته آفاق حينا فى أوساط هذه المهنة، كان يظفر لنفسه بأمتع العيش وأنعمه إذ كان بمقدوره أن يمنح نفسه إجازة أسبوعًا كاملاً كل عام، وكان حريصًا على إحاطة الآخرين بهذا النبأ البهيج.

قلت برقة متوددة: نعم أننى أعرفه، بيد أننى لا أود أن تلمس أنامله شعرى، فهو مثال للخيبة والفشل. إذ يجتاح مقصه شعر رأسى كالإعصار فيتركها أرضا خربة تنعى مالكها.

ازدرد ريقه بامتعاض وتساءل وهو يدارى حنقه المختنق:

هل تعرف من لقن صموئيل دروسًا فى فن قص الشعر؟

أحنيت رأسى دلالة الإيجاب.

واصل حديثه بصوت متشك ملىء بالمرارة: لقد تلقى على يدى دروسًا رائعة انتشلته من هوة الفشل إذ لم يكن بمقدوره أن يحلق ذقنه عندما شرع فى التعيش من حرفة الحلاقة. إن نفسى تمتلئ مرارة وكمدًا عندما تمر بمخيلتى صورته وهو يتقدم نحوى متلثمًا بقناع زائف من الأدب والوداعة: يا سيد بولو علمنى فن قص الشعر فأنا فى أزمة مؤيسة.

لقد علمته.. فماذا كانت النتيجة.. ها هو ذا يتقلب فى النعيم ويتمرغ فى أسباب الترف فى حين أننى أقيم فى حجرة يتيمة تنضح جدرانها وسقفها بالحرارة المحرقة فى منزل عتيق أكله البلى، كما أن صموئيل يمتلك دكان حلاقة، بينما أحلق شعر زبائنى فى العراء تحت شجرة المانجو.

دعكت ذقنى بيدى متفكرًا ثم قلت على سبيل الملاطفة والتودد: لكن قص الشعر فى العراء يعرِّض رأسك وقفاك للشمس المتألقة فى سماء صافية فى حين يهفو على وجهك نسيم رطب بارد إنها لتجربة مبهجة منعشة تتعمق مسرتك بها عندما تتخيل نفسك قابعا فى دكان يشتعل وهج الحر فيه، حتى يجف حلقك ويستحيل حطبًا يابسًا.

بيد أننى أتساءل يا سيد بولو: لماذا تحجم عن ممارسة هذه الحرفة بانتظام؟

- إن هذا سؤال صعب الإجابة عليه، ولكنى سوف أصارحك بالحقيقة لقد تزعزعت ثقتى بنفسى.

- إننى أخالفك الرأى فالمستقبل أمامك يترامى فسيحًا باهرًا.

- إننى لا أعنى هذا يا فتى، فعندما يتخذ الزبون مجلسه فوق الكرسى الدوار أمامك بينما يغلى دمك بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع فى حين تقبض يدك على موسى الحلاقة فكثير من الأمور التى تعز على التصديق يمكن أن تقع. ولذا فإننى فى هذه الأيام أقصر نفسى على قص شعر هؤلاء الزبائن الذين أحس نحوهم بالمودة. فلا يسعنى قص شعر كل من هب ودب.

ورغم أن بولو فى عام ١٩٤٥ كان يصر على أن الحرب لم تنته إلا أنه فى عام ١٩٣٩ كان رأسه يدور بالوساوس ففى تلك الأيام كان حريصًا على شراء صحف بورت أوف سبين الثلاثة: ترينداد جارديان، وبورت أوف سبين جازيت، وإيفننج نيوز، كما أنه عندما اندلعت نيران الحرب العالمية، وأصدرت صحيفة إيفننج نيوز نشرات خاصة، حرص على ابتياعها أيضًا.

فى تلك الأيام فاتحنا بولو بما يقوم فى نفسه من الوساوس: ثمة كثير من الناس يظنون أن بمقدورهم

أن يخسفوا بنا الأرض لنكون موطئ نعال، فهم يظنون أننا نجهل كل شيء؛ لأننا فقراء بيد أن أحدًا لا يسعه أن يسلكنى فى زمرتهم. أتفهمون جيدًا ما أقول؟ أننى أستبسل كل يوم فى مطالعة الجرائد.

ورغم شرائه للصحف الثلاث كان بولو يطالع الأنباء فى جريدة تريندداد جارديان باهتمام بالغ. وشهدت تلك الفترة حماسه المنقطع النظير لتلك الجريدة لحد شراء ما يقارب العشرين نسخة من هذه الجريدة كل يوم، كانت هذه الصحيفة تنشر مسابقة فى تحديد موضع الكرة المفتقدة فى صورة ضوئية لمباراة فى كرة القدم فى إحدى اللحظات بعد محو الكرة من الصورة، كان على من يرغب فى الفوز بجائزة مالية ضخمة أن يحدد موضع الكرة برسم علامة*.

أضحى تحديد مكان هذه الكرة المفتقدة موضع انفعاله لحد الهذيان، يستقطب جل أحاديثه، ويتعلق به أمله، قنع بولو إبان نشر المسابقة فى مراحلها الأولى بإرسال علامة واحدة إلى الجريدة كل أسبوع.

كان هذا الحدث الأسبوعى يثير انفعالنا جميعًا لدرجة الاشتعال وكم كان هات يقول متحسرًا مخاطبا بولو:

إننى إراهن على نسيانك إيانا وإيداعك الماضى مدارج النسيان عندماتفوز بالجائزة المالية، وسوف تهجر شارع ميجل، وتشترى دارًا فسيحة فى سانت

كلير تحيط بها حديقة غناء وارفة الظلال. أليس كذلك؟.

اعتدل بولو فى جلسته وقال وقد دب فى قلبه الطموح والحماسة. كلا.. إننى لا أريد أن أعيش فى ترينداد.. إننى أطمح إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة.

انقدحت فى قلب بولو نشوة الحماس فجعل يبعث إلى الجريدة بعلامتى* فى موضعين مختلفين، ثم ثلاثة، تبعها بأربع إجابات ثم ستة. بيد أنه لم يفز قط بمليم. ولذا تراكم غضبه كزوبعة، وانعقدت فى عينيه نظرة مخيفة طالعتنا من وجه متجهم غالبًا، وغالبًا يحمل طابع المتقزز كأن ليمونة تعصر فى فيه.

فكان يقول وهو يدارى حنقه المختنق: إن المسابقة ليست سوى خدعة كبرى جازت على الناس مثل حكاية مفعمة بالإيماءات الجنسية تهز الأفئدة وتشعل الأخيلة، إن القائمين على تحرير هذه الجريدة قد اجتمع رأيهم منذ فترة طويلة على الفائز بالجائزة الأسبوعية. ولذا فإن هدفهم هو الاستيلاء على أموال السود، فقال هات بنبرة تشى بالرجاء لا تدع الفرصة تفلت من يدك، أبذل قصارى جهدك لتتجنب دواعى اليأس وخيبة الرجاء.

ابتاع بولو رزمة من الورق ذى المكعبات كان يثبته فوق الصورة التى تحوى الكرة المفتقدة.

كان يرسم علامة* عند موضع التقاء الخطوط، وكى يؤدى هذه المهمة على النحو الصحيح، كان عليه أن يشترى عدداً من نسخ جريدة الجارديان يتراوح بين مائة ومائة وخمسين كل أسبوع.

كان بولو يدعونا أحيانًا أنا وبوبى وإرول إلى المشاركة: ما موضع الكرة المفتقدة فى رأيكم؟ هيا أغمضوا أعينكم وارسموا علامة بهذا القلم الرصاص.

وكان أحيانًا يتساءل نافد الصبر: ما الآمال التى أنعشت قلوبكم هذا الأسبوع؟ فإذا قلنا إن شعلة الأمل انطفأت وتبدد حلمنا، كان يشعر بالقنوط يطفئ أضواء فرحه، ويخمد أنفاس أمله، اعتدت أن أبعد فى الأمانى، وأبنى له قصورًا فى الهواء حتى يدور رأسه من نشوة الأحلام الكاذبة، فأطلق عليه الناس اسم الكرة المفتقدة.

وطالما كان هات يلفت نظرنا إليه قائلاً: ها هو الرجل ذو الكرة المفتقدة.

ذات يوم اتخذ بولو سبيله رأسًا إلى مقر صحيفة الجارديان، وجعل يهدر بأقذع الشتائم، ثم انقض على أحد نواب رئيس التحرير وسوى به الأرض وسط ذهول العاملين بالجريدة، وقبل أن يتمكنوا من استدعاء الشرطة.

قُدم بولو إلى المحاكمة وخاطب القاضى بصوت تخنقه الدموع: «إن الأمر لا يعدو كونه خدعة دنيئة، فليس ثمة كرة مفتقدة على الأرض».

استشاط القاضى غضبًا وأغدق عليه غرامة مالية قدرها خمسة وعشرون دولارًا.

طالعتنا جريدة الجازيت فى صباح اليوم التالى بحكاية مثيرة تحت العنوان التالى:

قضية الكرة المفتقدة

ضربة جزاء عقابًا على ضربة متعمدة

انفق بولو حوالى ثلاثمائة دولار فى سعيه لتحديد موضع الكرة المفتقدة، بيد أنه لم يفز حتى بتلك الجائزة المالية الضئيلة، التى تمنح لمواساة من أخفق بعد محاولات عديدة فى الظفر ببغيته.

لم تنقض أيام قلائل على المحاكمة حتى قر منه العزم على هجران مهنة الحلاقة كحرفة يتعيش منها كلية، كما أحجم أيضًا عن شراء صحيفة الجارديان.

عندما امتحن ذاكرتى أجد نفسى عاجزًا عن تذكر حادث محدد جعله يحجم عن قراءة صحيفة إيفننج نيوز، وإن كان لا يخفى على السبب وراء قراره بنبذ مطالعة صحيفة الجازيت. استفحلت أزمة الإسكان حتى تجلت عن وحش رهيب أثناء الحرب العالمية، وفى عام ١٩٤٢ هب فاعل خير لتقديم المعونة للمشردين مضحيًا بوقته وجهده كاشف الناس والبشر يتألق فى وجهه برغبته فى إنشاء مشروع إسكان تعاونى.

أعلن هذا الخبر على الملأ. فعلى كل من يرغب فى المشاركة فى هذا المشروع إيداع حوالى مائتين

من الدولارات فى أحد المصارف، مما يتيح لهم فى خلال عام واحد اقتناء دار بمبلغ جد ضئيل، وهب الكثيرون من وجهاء الحى المشروع وسام النبل والأمانة، وأقيمت مآدب حافلة احتفالا ببدء المشروع، أحاطت وسائل الإعلام المشروع بالهالات الساطعة، وشيد حوالى خمسة أو ستة منازل وسلمت مفاتيحها لبعض المواطنين الذين حضروا المآدب وانقضوا على الموائد كالنسور. نشرت الصحف صورًا ضوئية لأولئك الأفراد وهم يديرون المفتاح فى القفل ثم يعبرون عتبة الباب. وقد انفرجت شفاههم عن ابتسامات تشى بظفر وارتياح وامتنان.

وعندما طالع بولو هذه الصور الضوئية والإعلانات فى جريدة الجازيت سارع بإيداع مبلغ مائتى دولار فى البنك.

وفى عام ١٩٤٣ اختفى فجأة مدير جمعية الإسكان التعاونى، فلم يقف له على أثر أو خبر، وباختفائه تبدد الحلم، وتبخرت السعادة، وتفتحت العيون - بعد أوهام العمى - على حقائق بشعة. أحجم بولو عن شراء الجازيت.

وفى يوم الأحد التالى من شهر نوفمبر من هذا العام عالنا بولو ونحن نفترش الحشائش تحت شجرة المانجو ننتظر دورنا بقراره فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: لقد قر منى العزم على هجران قراءة الصحف وأننى أقسم أمامكم بأغلظ الأيمان إننى حتى لو تعلمت اللغة الصينية فلن أطالع الصحف

الصينية، هذا هو الرأى الذى أود مكاشفتكم به، أننى أنصح لكم بعدم تصديق أى نبأ تطالعونه فى الصحف.

كاشفنا بولو بهذا القرار، وهو منهمك فى قص شعر هات، إلا أن هات نهض بغتة بشعره المنتفش كالشيطان وغادر المكان دون أن يلقى تحية وراءه. قال لنا هات فيما بعد بسخط واضح وقد ضيق عينيه امتعاضًا:

أتعلمون الفكرة التى تلح على ذهنى فى إصرار؟

أننا لن نجد لأنفسنا مفرًا من تحامى قص الشعر فى دكانه، فإننى أرتجف رعبًا فى محضره.

لم تتح لنا الفرصة لتقليب أوجه الرأى فى قرار هات، إذ أن بولو جاء إلينا بعد أيام قلائل وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف: لقد جئت اليوم لتوديعكم قبل الرحيل.

بدا غارقًا فى التعاسة حتى أذنيه حتى خيل إلىَّ أنه سوف يفحم فى البكاء.

تساءل هات: ما الذى تنوى فعله؟

فأجاب بولو وهو يغلى بأحزانه: سوف أغادر هذه الجزيرة الملعونة دون رجعة، فهى تكتظ بالمحتالين السفلة.

تساءل أدوس بلهجة لاهثة: هل ستأخذ العربة ذات العجلتين معك؟

رفع بولو حاجبيه بدهشة وأجاب: كلا.. هل

تعجبك؟

فقال أدوس والبشر يتألق فى وجهه: إنها تستهوينى بجودتها ومتانتها.

قال بولو بلهجة تنم عن رغبته فى قفل باب الحديث: خذ عربتى يا أدوس.

تساءل هات وهو يتمادى فى الاهتمام: ما البلد التى ستذهب إليها؟

فأجاب بولو باقتضاب: سوف تعلمون بالأمر فى حينه.

غادر الجزيرة فى تلك الليلة مخلفًا وراءه عاصفة من التكهنات.

تساءل أدوس وهو يزفر زفرة المتحسر: هل تظنون أن بولو حصل له لطف؟

فأجاب هات نافد الصبر: كلا.. أنه يقصد فنزويلا إلا أنه يطوى دوننا سره لأن الشرطة الفنزويلية لا ترحب بمواطنى ترينداد فى بلادهم.

قال أدوس فى سرور لم يفلح فى مداراته: إن بولو رجل لطيف المعشر جم المروءة، وإننى أشعر بالأسف لفراقه «ثم واصل: إننى أعرف أناسًا تذوب أرواحهم شوقًا إلى اقتناء العربة ذات العجلتين التى خلفها وراءه.

قصدنا حجرة بولو الصغيرة فى تلك الليلة، وأخذنا

جميع الأشياء التى توسمنا فيها نفعًا أو فائدة، لم يكن المحصول وفيرًا، إذ لم يتعد مشمع منضدة ومشطين قديمين أو ثلاثة، وسيفًا قصيرًا مقوسًا ودكة خشبية.

اكتست الوجوه بطابع الأسى.

قال هات فى نبرات حزينة: إن الناس فى بلادنا يكيلون لبولو المسكين الإساءة لطمات بعد لطمات. ولذا لا يسعنى أن أنحى عليه باللائمة لرحيله المفاجئ.

كان أدوس يجيل بصره فى الحجرة وقد عكست عيناه شعاع النهم.

قال هات بلهجة الانتقاد المر: لم يخلف بولو شيئا وراءه يا أدوس.

بعد ظهر اليوم التالى أعلن أدوس والبشر يسجع فى صدره: هل تعلمون المبلغ الذى بعت به العربة ذات العجلتين؟ دولاران.

فقال هات: إن هذه الفعلة تتسم بالعجلة والتهور. غمرتنا موجة عالية من الذهول وانفغرت الأفواه من عجب عندما شاهدنا بولو ذات يوم وهو يسير الهوينى فى شارع ميجل.

قال هات: إننى أستشعر نذر المتاعب تتجمع فوقك كالسحب المليئة بالغبار.

فقال أدوس ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: ولكنه وهبنى هذه العربة.. أننى لم أسرقها منه!

تبدى الإعياء فى أعماق عينى بولو وغشيته سحب

الأكدار.

تساءل هات وهو يرنو إليه بعينين دهشتين: ما الذى حدث يا بولو؟ إن ما فعلته يعز على التصديق ويجل عن الوصف، نشدتك الله لا تقل إنك ذهبت إلى فنزويلا حقًا وعدت بين عشية وضحاها.

أجاب بولو بعصبية: أهل ترينداد! أولاد السفلة! إننى لا أدرى ما الذى يجعل هتلر يحجم عن غزو الجزيرة ويصلى هؤلاء الأوغاد قنابله، فأنتم تعلمون أن طائراته تمطر الأبرياء نيرانًا، وتنكل بهم تنكيلا مروعًا.

قال هات: اجلس يا بولو، وقص علينا ما حدث.

فأجاب بولو بصوت تشى نبراته بانفعاله وتأثره: فيما بعد بيد أن هناك أمرًا أود تسويته أولا. أين عربتى يا أدوس؟ فرت من هات ضحكة.

قال بولو عابسًا وهو يبث حنقه فى نبرات صوته: علام تضحك؟ إننى بطئ فى فهم النكت، أين عربتى يا أدوس؟ هل تعتقد أن بمقدورك صنع واحدة مثلها؟

تساءل أدوس بصوت خامل محشرج بالخيبة: عربتك يا بولو؟ ولكنك وهبتنى إياها؟

فقال بولو متلقيًا طاقة النجاة ببراعة: وأنا أطلب منك الآن أن تعيدها لى.

فقال أدوس بصوت مبحوح متهدج: ولكنى بعتها يا

بولو ها هما الدولاران اللذان بعتها بهما.

قال بولو والغضب يشتعل تحت قبضة إرادته: لقد أبديت قدرًا كبيرًا من التهور يا فتى ندت عن أدوس حركة تنبئ بنهوضه.

عطف بولو نحو رأسه، وقال مغلفًا قوله بنبرة نذير:

- ثمة نصيحة أرجو أن تتقبلها بصدر سمح، إننى أنصحك بأن تتحامى من قص شعرك فى دكانى. فقد أنصحك بأن ثقتى بنفسى، كما أننى أنصح لك بشراء العربة ممن ابتاعها منك وإعادتها إلى.

غادر أدوس المكان وصدره يجيش بانفعال عاصف: إننى أعجب لهؤلاء الناس الذى يعلقون آمالهم بعربة لا يمكن أن تشابه بأى حال من الأحوال عربتى الزرقاء الضخمة.

قال بولو بلهجة جديدة يمهد بها لتغيير مجرى الحديث: عندما أمسك بتلابيب هذا اللص التافه الحقير الذى سلبنى نقودى بحجة تسفيرى إلى فنزويلا، فسوف أصعقه بضربة تجعل عاليه سافله. هل تعرف ماذا فعل هذا الرجل بنا؟ لقد ظل يجوب بنا البحر فى قاربه البخارى طوال الليل حتى وصلنا إلى مستنقع وعندها أفرغ القارب حمولته التى شيعها هذا اللص بحلو الأمانى بطيب الإقامة فى الموطن الجديد فنزويلا رأيت بعض الأشخاص اقتربت منهم وجعلت أتحدث إليهم بالإسبانية. هزوا رءوسهم فى

حيرة وصمت. ثم انفجرت صدورهم عن ضحكات بلهاء الرنين. هل تعرفون السبب؟

لقد أوصلنا القارب إلى ترينداد على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من لابريا.

قال هات على سبيل التعزية: أنك لا تدرى كم أنت سعيد الحظ. إذ لم يكن من المستبعد أن يقتلك هؤلاء الناس ويطوحوا بالجثة من فوق ظهر المركب. فهم يقولون دومًا إنهم لا يرغبون فى التورط فى المتاعب بإثارة استياء الشرطة الفنزويلية. فأنت تعرف أن دخول فنزويلا إجراء غير شرعى. مضت فترة بعد ذلك كنا لا نكاد نراه فيها، تمكن أدوس من استعادة العربة، وطلب إلى أن أعيدها إلى بولو، ضحك أدوس ضحكة المغيظ وقال: إنك تدرك الآن دون شك السر وراء تردى السود فى هاوية الخيبة وتوارى كل جميل من دنياهم، فأنت قد رأيته وهو يمد يديه ليعطينى العربة، والآن يريد استعادتها، أعدها إليه وأبلغه أن أدوس يستنزل عليه اللعنات، والدعوات الطالحات.

قلت لبولو برقة متوددة: إن أدوس ينزلك من نفسه منزلة سامية ويأسف من أعماق القلب لما فعل، وطلب إلى أن أعيدإليك العربة.

صاح بولو بصوت متهدج من شدة الغضب: إن السود قد تقشر الطلاء عنهم ـ كما ترى ـ فتجلوا على حقيقتهم فالطمع يتحرك فى صدورهم. لذا لا عجب أن تطالعهم الدنيا دومًا بأنكد وجوهها.

قلت متوددًا بحلق جاف: سيد بولو لقد أخذت

شيئًا بعد رحيلك ولكنى أعيده إليك الآن. ها هو مشمع المائدة لقد أخذته وأعطيته لأمى لكنها طلبت إلى أن أعيده لك.

فقال بولو: لا تثريب عليك. بيد إننى أتساءل يا فتى عمن يقص شعرك هذه الأيام، إنك تبدو كالشيطان بشعرك المنتفش كما لو أن طائرًاباض وأفرخ فيه.

قلت بلهجة آسفة: إنه صموئيل يا سيد بولو، بيد أننى أقر الآن بخيبته وقلة حيلته، فعيناك الخبيرتان لا يمكن أن تخطئا سوء حال تسريحة شعرى لحد الازدراء.

طيب خاطرى وربت على منكبى قائلاً: تعال يوم الأحد القادم، سوف أصلح ما أفسده صموئيل.

أستأثرت بعقلى الوساوس وجف فى حلقى الريق، فانعقد لسانى.

- هل تخشانى؟ يا لك من أحمق؟ إننى أحبك.

فى اليوم المحدد عطفت على دكانه فى الهواء الطلق.

- هل تتقدم فى الدرس بنجاح؟

لم أرد أن أشيد بعظمتى وانتصاراتى فى المدرسة كى لا أستثير غيرته.

قال وهو يتمادى فى الاهتمام: أود أن تسدى إلى صنيعًا بيد أن التردد يعقلنى.

- أطلب ما تشاء. فأنا طوع أمرك ورهن إشارتك.

- لا تحمل للأمر همًا، فلنرجئ هذا إلى حين مجيئك المرة القادمة.

انقضى شهر وذهبت إليه، وبعد أن جلست على المقعد اللولبى مال على أذنى وسألنى بصوت خافت:

هل بمقدورك القراءة؟ وبعد أن أحنيت رأسى دلالة الإيجاب، واصل: أود أن أفضى إليك بمكنون سرى فهل يمكن أن تعقل لسانك فلا يخون إرادتك؟

أومأت برأسى بالإيجاب.

- إن رجلا عجوزًا مثلى جدير بأن يوطن النفس على الرضا بحياته كما هى، إلا أن هذا لا يعنى أن يصرف نفسه عن مراودة أحلام السعادة عندما يومض فى أفقه المظلم بارق أمل جديد، ويعد هذا تفسيرًا لما أفعله الآن.

- ماذا تفعل الآن يا سيد بولو؟

كف عن قص شعرى، ونحى المقص جانبًا، ثم دس يده فى جيب بنطلونه وأخرج مطبوعة.

سألنى: أتعرف ما هذا؟

- ورقة يانصيب.

- حقا أنك فتى بارع الذكاء، فهى ورقة يانصيب.

- ولكن ما الخدمة التى بوسعى أن أؤديها لك؟

- أولا عليك أن تعدنى ألا تبيح السر.

- أقسم بشرفى أن أتكتم سرك.

- أريد أن تطالع النتيجة لتعرف أن كانت ورقتى

ربحت أم لا ، أجرى السحب بعد حوالى ستة أسابيع.

وعندما طالعت الجريدة، تجلت فى عينى نظرة مغيظة محنقة، صارحته بالحقيقة عارية عن كل تخفيف: أنك لم تفز يا سيد بولو.

- قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس: ألم يفز حتى رقم مقارب لرقمى؟

هززت رأسى بالنفى.

ورغم أنه ارتطم بخيبة جامعة، فإن عينيه لم تعكسا نظرة خابية تفيض يأسًا وقنوطًا. رنا إلىَّ بطرف واجم ثم قال: هذا هو ما توقعت.

ظل هذا السر طى الكتمان لفترة ثلاث سنوات. وطوال هذه السنوات الثلاث لم يكف بولو عن شراء أوراق اليانصيب رغم أنه لم يفز قط. وحتى عندما قال له هات متحمسًا: لماذا لا تجرب حظك بشراء اليانصيب؟

أجاب: لقد نفضت يدى من هذه الأمور منذ فترة طويلة.

فاز بولو فى سحب اليانصيب عشية الاحتفال بأعياد الميلاد فى عام ١٩٤٨. لم يكن المبلغ الذى فاز به ضخمًا، فهو لم يتعد ثلاثمائة دولار.

عدوت بسرعة الريح صوب حجرته. قلت له بصوت متقطع الأنفاس: لقد ربحت اليانصيب!

ندت عنه ردة فعل لم أتوقعها: انظر يا فتى لقد

شبـبت عن الطوق الآن! فلا تثر أعصابى، وإلا سأبتدرك بلطمة يظلم لها الجو فى عينيك.

قلت بصوت متهدج وأنفاس لاهثة: ولكنك فزت حقًا يا سيد بولو!

صرخ فى وجهى بصوت غليظ كالرعد: اللعنة! أنى لك أن تعرف؟

- إن النبأ منشور فى الصحف.

انفجر فى صدره الغضب والغيظ كما تنفجر الزائدة، فقام هائجًا كالأسد المتوثب، وأمسك بتلابيبى وعيناه تشعان شرر الغضب، صاح بى كالزوبعة: كم مرة حذرتك يا وغد، يا من تجرى فى عروقه دماء النذالة والضعة، من تصديق كل ما تطالع من أنباء فى الصحف.

قصدت نادى سباق الخيل فى ترينداد لأتحقق من صحة النبأ ،عدت إلى بولو بنتيجة مسعاى قلت بنبرة تستجدى تصديقه: «الأمر جد لا هزل فيه لقد فزت» لكنه أصم أذنيه عن نصحى، وتمادى فى العناد. قال لى والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته: إن أهل ترينداد يناصبون الفضيلة العداء، فالأكاذيب تنبعث فى نفوسهم بوحى البديهة، فمبقدورهم أن ينصبوا لك الفخاخ بيد أن أى خدعة تتفتق عنها أذهانهم لا تجوز علىَّ.

فاض الحزن بى فاستجابت نفسى لرغبة طارئة

فى إفشاء السر، فقلت لرفقاء الشارع: لقد أصاب بولو مس من الجنون، فالرجل يتمادى فى الجدل ويلح فى العناد، ويرفض أن يصدق أنه فاز بثلاثمائة دولار.

قال بوبى ذات يوم لبولو وقد ابتسمت أساريره فى سرور: إنك لسعيد الحظ لا مراء. لقد سمعت أنك ربحت اليانصيب.

سرعان ما لمحنا بوبى وهويطلق للريح ساقيه والآخر يطارده بعزم صادق وإرادة لا تلين، وهو يصيح به بوجه مصفر من الغضب: أبلغت بك الوقاحة يا وغد حد التعريض بى ساخرًا وجهًا لوجه! أتستحل لنفسك توجيه لذعات جارحة إلى رجل عجوز يعد بمثابة جد لك؟

وعندما قابلنى بولو بعد ذلك انتحى بى جانبًا على الطوار وقال لى هو يحدجنى بنظرة نافذة مداريًا مرارة:

أهكذا تستبيح سرى؟! ولكن - لا عجب - فجميع أهل ترينداد لا يعقلهم أدب أو خلق.

ثم مضى بصندوقه ذى العجلتين وهو يدفعه أمامه إلى بيت أدوس صائحًا بوجه مكفهر: أدوس! هل تريد عربتى؟ تعال خذها.

ثم انهال بغتة على عربته بضربات صادقة من سيفه القصير المقوس حتى تحطمت إربا، ثم التفت إلىَّ صائحًا بصوت يهدر بالغضب: إن الناس يخالون

أن بمقدورهم خداعى بالألفاظ المعسولة والوعود الكاذبة.

ثم دس يده فى جيبه وأخرج ورقة اليانصيب ومزقها شر ممزق، ثم اندفع صوبى كالإعصار، ودس القصاصات فى جيب قميصى بقوة حانقة.

آثر بعد ذلك أن يقبع فى سياج قاس من الكبرياء والعزلة، فانزوى فى حجرته الصغيرة لا يغادرها إلا للضرورة. عاش منطويًا على ذاته عسير الألفة.

فلم نكن نراه إلا مرة واحدة كل شهر عندما يخرج للحصول على معاشه.

(١٥)

«جاء الجنود فحل الكدر مكان الصفاء بيننا»

عرفت إدوارد - أخا هات - كرجل متعدد المواهب على معرفة واسعة بأمور عديدة. ولذا كان يمضنى الأسف والحزن عندما كنت أشعر أن الخيوط الواهية التى تصله بنا كانت تتقصف واحدًا إثر واحد.

عرفته أول مرة عندما كان يساعد هات فى تربية الأبقار، كان فؤاده تغمره طمأنينة سعيدة مثل هات. كان يردد دومًا أنه أستدبر دنيا النساء، وأنه لا يعد بالكريكيت وكرة القدم والملاكمة وسباق الخيل وصراع الديكة شيئًا؛ ولذا لم يكن الفراغ يثقل على ظهره أو يتجرع الملل ويعانى الوحشة، كما لم يكن يناوشه طموح كبير يشعل جوانحه بنار الحزن والحسرات.

كان إدوارد مثل هات يقدر الجمال حق قدره. بيد أنه لم يكن مثل هات مغرمًا باقتناء الطيور من ذوات الريش الذى يبهر الأبصار بجماله، بل كان يستهويه فن الرسم.

كان يجد قرة عينه فى رسم قبضة يد بنية تحتضن يدًا سوداء. وعندما كان يرسم اليد ذات اللون البنى لم يكن يهتم بما يعده من توافه الأمور مثل الأضواء والظلال، كما كان يرسم البحر باللون الأزرق والجبال باللون الأخضر دائمًا.

كان يثبت بنفسه رسوماته فى أطر حمراء اللون.

تعهدت المحال الكبيرة مثل سالفاتورى وفوجارتى وجونسون بتوزيع أعماله فى مقابل نسبة مئوية من سعر البيع.

بيد أن إدوارد كان يسلط الإرهاب على تيار السابلة الذى لا ينقطع فى شارعنا.

كان عندما يرى السيدة مورجان وهى ترفل فى ثوب جديد يخاطبها والبشر يتألق فى وجهه قائلاً: إنك ترتدين ثوبًا فى غاية الروعة. ألا تعتقدين أن رسوماتى ستزيده حسنًا وبهاءً؟

وعندما يطالعه أدوس بقميص جديد كان يقول بحماس: إنك ترتدى قميصًا جديدًا ولكن ألا يجدر بك أن تكتب اسمك عليه متخذا الحيطة لاحتمال أن يختلسه لص من سطح بيتك، إننى أعرض عليك اقتراحًا طيبًا: سأنقش اسمك عليه.

بيد أن رسوماته ألحقت الدمار والخراب بملابس تعساء الحظ من حسنى النية.

كما كان من عاداته أيضًا أن يهدى الرفاق أربطة عنق زينها بروائع فنه، كان يقول وهو يضحك فى

سعادة ناطقة: لدى هدية لك خذها وارتديها. إننى أهبك إياها لأننى أحبك.

بيد أنه عندما يحجم من أتحفه بهذه الهدية عن ارتدائها كان يثور ثورة جامحة ويصيح بنا وقد اتقدت عيناه فتطاير منهما الشرر:

أترون كيف يقابل السود صنيعى بالإنكار والجحود!. إنصتوا إلىَّ فى اهتمام. عندما ألمح هذا الرجل يسير متسكعًا فى الشارع مهمل الهندام يبرز عنقه من فوق بنيقة؟ القميص مكتنزًا لا يطوقه رباط رقبة، فإننى أمضى من توى إلى المدينة مستقلا الباص، ثم أترجل من الباص وأمضى إلى محل جونسون ثم أقصد قسم ملابس الرجل رأسًا، وأقابل إحدى الفتيات وأبتاع رباط عنق، ثم أستقل الباص عائدًا إلى بيتى، وفور أن أدخل البيت أنشط للعمل بهمة عالية: فأهرول إلى حجرتى وأتناول الفرشاة وأفض سدادة حُق الألوان: ثم أغمس الفرشاة بعناية فى الطلاء وأرسم رسومًا رائعة على رباط العنق، إننى أنفق ساعتين أو ثلاث ساعات فى هذا العمل. فهل يحق له بعد كل هذا الجهد أن يأنف من ارتدائه؟!

بيد أن الرسم لم يكن يشغل سوى جزء ضئيل من اهتماماته فبعد انتقالنا إلى الشارع بأشهر قلائل خاطبنا إدوارد قائلا ذات يوم وقد اشتعل باهتمام داهم حاد: أثناء عودتى بالباص ليلة أمس من كوكو رايت ترامى إلىَّ صوت طقطقة ظهور الكابوريا أسفل

عجلات الباص، أتعرفون ذلك الموضع عن كثب من أشجار جوز الهند والمستنقع؟. إن هذا الموضع من الطريق يكتظ أديمه بالكابوريا حتى اختفى تحته مما دفع أعدادًا هائلة منها إلى تسلق أشجار جوز الهند القائمة على جانبى الطريق.

اندفع هات قائلا بحماس وقد تألقت عيناه بالنشاط والأمل: إنها تتسلل إلى الخارج وهى تتدافع بالمناكب عندما يغمر البدر الدنيا بنوره البهى، فلنذهب هذه الليلة لنصيد بعضها.

فقال إدوارد وقد سرت الجملة الأخيرة فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق: هذا ما كنت أنوى أن أقوله. بيد أنه لا مفر من أن نصطحب الصبية أيضًا إلى هذا الموضع الذى يكتظ بالكابوريا لدرجة تعز على التصديق أو التأمل.

تهللت وجوه الصبية بالبشر، وخفقت قلوبهم بالفرح.

دعك إدوارد ذقنه بيده متفكرًا ثم قال: لقد خطرت ببالى فكرة يا هات، سنحمل معنا مجرافًا يساعدنا فى جمع هذا الحشد الهائل من الكابوريا فى كومات متلاصقة تمهيدًا لرفعها.

فقال هات: موافق. فلنذهب لإحضار مجراف حظيرة الأبقار.

قال إدوارد بنبرة جديدة يمهد بها لتغيير مجرى الحديث: عليكم أن تنتعلوا أحذية متينة البنيان فالكابوريا لن ترعوى عن قضم أصبع القدم الكبرى

وتواصل سيرها فى خطوط حلزونية مخلفة وراءها عاصفة من الذهول والدهشة.

فقال هات: سوف أمضى إلى هناك بحذائى ذى الرقبة الذى أرتديه عند تنظيف حظيرة الأبقار.

وقال إدوارد وهو يقطب تقطيبة باسمة: كما أننى أنصح لكم بارتداء قفازات يد، إننى أعرف رجلا كان يتصيد كابوريا فى أحد الأيام صرخ الذهول فى عينيه عندما رأى يده اليمنى تسير مبتعدة عنه فى خطوط حلزونية، وعندما ضيق عينيه ليحد بصره، تبين جماعة من الكابوريا لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وهى تحمل يده فوق ظهورها وتسير مبتعدة دون مبالاة انتتر واقفًا فى ذعر وأغرق فى نشيج حار. ولذا علينا أن نستمسك بالحذر الشديد حتى النهاية، فإذا لم يكن لديكم قفازات، عصبوا أيديكم بقصاصة من القماش، فإنها كفيلة بحمايتها من أسنان الكابوريا الحادة كالمناشير.

فى ساعة متأخرة من مساء تلك الليلة صعدنا جميعًا إلى الباص المتجه إلى كوكو رايت: هات بحذائه ذى الرقبة، وإدوارد بحذاء مشابه بينما يحمل بقية الرفاق سيوفًا معقوفة قصيرة، وحقائب من القماش ضخمة من ذوات اللون البنى.

زكمت أنوف الراكبين رائحة نتنة تطايرت من مجراف حظيرة الأبقار الذى صعد به هات إلى الباص. فالتوت الشفاه فى امتعاض، وتقبضت الوجوه

من السخط والاستياء.

قال هات وهو يدارى ابتسامة شامتة: دعهم يتشممون رائحة روث الأبقار، فطالما نهلوا من ضرعها حتى استوفوا المزاج.

اختلس الراكبون من الحذاء ذى الرقبة والسيوف والمجراف والأجولة نظرات ملتهبة بالحنق والسخط، ثم جنحوا إلى الصمت مغيظين مقهورين، لم يطلب منا الكمسارى أجورًا، ساد صمت ثقيل مشحون بالندم يغلفه الأسى حتى خرقه إدوارد قائلاً بحماس: إننى أنصحكم بتجنب قتلها بالسنج وإراقة الدماء، ولنجرب التقاطها من فوق الأرض حية ووضعها فى الأجولة.

ترجل الكثير من الراكبين من الباص فى المحطة التالية، أفرغ الباص حمولته أو كاد فيما تلى من محطات. ولذا عندما وصل الباص إلى طريق موكورابو كان قد خلا من جميع الراكبين سوانا. أما الكمسارى فقد وقف مستندًا فى تراخ إلى أحد القوائم المعدنية يجاذب السائق أطراف الحديث.

وقبيل وصولنا إلى المحطة الأخيرة قال إدوارد بصوت متهدج وأنفاس لاهثة: يا إلهى لقد نسيت أمرًا مهمًا، فنحن لا يمكننا أن نعود بالباص بحمولتنا الهائلة من الكابوريا، ولذا سوف أغادر الباص فى المحطة القادمة، وأتصل تليفونيا بالشركة، لتبعث

إلينا بسيارة نصف نقل نشحنها بالكابوريا.

ترجل من الباص فى المحطة قبل الأخيرة.

سرنا وقتًا متمهلين فى هوادة ورفق وقد أذنت الشمس بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رءوس الشجر ثم غادرنا الطريق وهبطنا منحدرًا قاصدين المستنقع رأسًا، كان الجو خاشعًا تحت سمرة المغيب، وقد تدثر الكون بغلالة داكنة هادئة تردد أنفاسًا ضعيفة كأنها أنفاس شيخوخة فانية، كان الهواء مضمخًا برائحة العشب والماء.

كانت أشجار جوز الهند تسبح فى ظلام دامس. سرنا بخطوات وئيدة ثقيلة، غشيت سحابة وجه القمر وطوت همة الريح الفتور والملال.

ارتفع صوت هات بحدة كأسنان المنشار قائلاً: هل أنتم بخير يا فتية. قدروا لأقدامكم قبل الخطو مواضعها من الحيطة، إن كل ما أخشاه أن يعود أحدكم إلى بيته بقدم تحوى ثلاثة أصابع فقط.

نفخ بوبى قائلا بوجه عابس: بيد أننى لا أرى أثرا للكابوريا!.

بعد عشر دقائق رأينا إدوارد يحث الخطو صوبنا، وقد بلغ منه الانفعال وتلاحقت أنفاسه وقال بلهجة دب فيها الحماس:

كم عدد الأجولة التى امتلأت بالكابوريا؟

رنا إليه هات بطرف واجم وقال بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا:

يبدو أن هذه الفكرة قد خطرت ببال الكثيرين وعششت فى رءوسهم فنشطوا للعمل بكل همة، ولم يعتقوا كابوريا واحدة فأقفر هذا الموضع منها أو كاد.

فقال إدوارد وهو يزدرد ريقه الجاف: إن ما تقول محض هراء، إن القمر يتوارى وراء الغيوم،علينا أن ننتظر حتى ينقشع الغيم ويغمر البدر الدنيا بنوره البهى وتخرج الكابوريا لتجوب الطرق والممرات. اجلسوا يا رفاق. لا تستتيموا إلى قبضة اليأس.

ظل القمر متواريا فوق السحب الكثيفة لمدة نصف الساعة.

قال بويى بصوت تمزقه الشكوى: إننى أحس الهواء البارد يلسع عظامى. أريد أن أعود، إلى بيتى، كما أننى أعتقد أن هذا الموضع يخلو من الكابوريا كلية.

فقال إرول بنبرة مشجعة: لا تهتم بما يقول بويى. بوسعى أن أقرأ قلبه كصفحة مبسوطة فهو يرتعد فرقًا من الظلام، ويرتجف رعبًا من عضة الكابوريا.

تناهى إلينا أزيز سيارة قادم من بعيد.

قال هات بنبرة لا تخلو من امتعاض: ها هى عربة نصف النقل قادمة!.

فقال إدوارد: إننى لم أستدع عربة نصف نقل، بل عربة نقل ضخمة من سام.

اقتعدنا الأرض ننتظر فى صمت انقشاع الغيم. على حين بغتة صوبت فوق رءوسنا من جميع الجهات أضواء الكشافات الكهربائية، صاح أحدهم فى وجوهنا وصوته يرعد من الغضب: إننا لا نبغى المتاعب لكن حذار أن تحاولوا الفرار، فسوف أصعق من يحاول خداعى بضربة تجعل عاليه سافله.

كان ثمة حشد من رجال الشرطة يحدق بنا.

أجهش بويى فى البكاء.

قال ادوارد وهو يدارى حنقه المختنق: ثمة رجل فى مكان ما يضرب زوجه.. ثمة أناس يسطون على بيوت الآخرين فلماذا لا تتصرفون لأداء مهامكم الحقة وتكفون عن دس أنوفكم فى شئوننا الخاصة؟.

احتد أحد رجال الشرطة غاضبًا وقال وقد غشى وجهه ضباب الغضب: ولماذا لا تحبس لسانك القذر؟ بوسعى أن أسوى بك الأرض ببصقة واحدة فى فيك!

وتساءل آخر فى اهتمام: ماذا تحوى هذه الحقائب؟

فأجاب إدوارد وهو يدارى غيظه: كابوريا، لكن عليك بالحكمة والحذر فهى كابوريا كبيرة الحجم لدرجة مخيفة، وأتوقع أن تفقد كف يدك بقضمة واحدة منها.

ارتسم سوء الظن فى العيون بيد أنهم آثروا السلامة وجفلوا من النظر داخل الحقائب، ساد صمت مثقل بالخيبة خرقه أحد الرجال بشرائط يخطئها الحصر ملتصقة بسترته قائلا بسخط واضح وقد ضيق عينيه امتعاضًا: إن أحدًا لا يتورع فى هذه الأيام عن اصطناع السحنة التى تشع عنادا وشيطنة وتلفيق إجابات لا تخلو من دعابة وتهكم مثل الأمريكيين!

قال أحد رجال الشرطة بنبرة محرضة: لكن لماذا يحملون معهم حقائب وسنجًا ومجرافًا وقفازات؟

فقال هات بلهوجة: كنا نصيد الكابوريا.

فتساءل وهو يحدجه بنظرة ارتياب: تصيدونها بمجراف؟

هل تعتقدون أن بمقدوركم خلق نوع جديد من الكابوريا يمكن صيده بمجراف؟

أنفقنا وقتًا طويلا لإقناع رجال الشرطة بصحة موقفنا.

قال رئيسهم بنبرة تنم عن غيظ مكتوم: إننى أود أن أطبق بيدى على عنق ذلك الرجل الدنيء الحقير الذى أتصل تليفونيا بى وأخبرنى بعزمكم على قتل أحد الأشخاص.

غادرنا رجال الشرطة فى ساعة متأخرة من الليل.

غصنا فى أعماق خيبة جامعة عندما علمنا أن المواصلات انقطعت.

قال هات بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل: لننتظر السيارة التى أرسل إدوارد فى طلبها.

فقال إدوارد وهو فى ربكة شديدة من الخجل: يساورنى ثمة هاجس قلق بأن العربة لن تأتى أبدًا.

قال هات بصوت هادئ جاد كالقاضى ينطق بالحكم وإن لم تزايل وجهه هيئة الضحك: رغم أننى أعدك أخا لى يا إدوارد إلا أنك يجب أن تسلم بنذالتك التى تعز على التصديق.

اضطجع إدوارد على راحتيه مادا ساقيه فوق العشب ثم غلبه الضحك على أمره فاسترسل ضاحكًا حتى دمعت عيناه.

ثم قامت الحرب. غزا هتلر فرنسا فغزا الأمريكيون ترينداد، سرت كلمات أغنية شعبية سريان الحريق بين الهشيم فترددت على الألسنة كأنشودة للجبروت والقسوة:

كنت أتملى الحياة صفاء خالصًا مع زوجتى التقية النقية التى تنفث الهناءة والمودة فى جنبات البيت.

بيد أن دنياى تقوضت، وتبدد حلمى، وتبخرت سعادتى عندما جاء الجنود وانتظموا صفوفًا.

شهدت ترينداد لأول مرة فى تاريخها سوقا نافقة للأيدى العاملة فراح أهلها يرمقون مستقبلهم بعين

الاستبشار لسخاء الأمريكيين وكرمهم وهزجت الحناجر بالنشيد الشعبى:

أبى وأمى وابنتى

يحصلون على الدولارات بعرق الجبين

ويتملون خضرة الدولارات اليانعة

يا للبهجة المنعشة!

كف إدوارد عن العمل فى حظيرة الأبقار وظفر لنفسه بوظيفة فى معسكرات الأمريكيين فى شاجوا راماس.

قال له هات بنبرة الناصح: أظن أنه من الغباء أن نعمل فى معسكرات الأمريكيين، فهى لن تدوم، وسوف يقوضون خيامهم ويرحلون بعد ثلاث أو أربع سنوات، وعندئذ ستتضور جوعًا.

قال إدوارد ملتمسًا الطمأنينة لنفسه: يبدو أن هذه الحرب سوف تستمر سنوات طوال، كما أن الأمريكيين يختلفون كلية عن الإنجليز فهم يطالبونك الإخلاص فى العمل والتفانى فيه، ولكنهم يدفعون لك أجورًا مجزية.

باع إدوارد هات نصيبه فى الأبقار، ومنذ هذه اللحظة بدأت الخيوط التى تصله بنا تتقصف واحدا إثر واحد.

تغيرت حياة إدوارد جذريًا نتيجة معايشته الأمريكيين لحد الاندماج والذوبان التام، ابتاع ملابس جديدة من ذوات الطراز الأمريكى وشرع فى مضغ العلكة والحديث باللهجة الأمريكية، لم نكن نراه إلا فى أيام الآحاد، وكانت تسرى فى كلماته رنة العظماء حين يتحدثون إلى من يصغرونهم منزلة وقدرًا، فكان يلح علينا شعور بالدونية. كان يرفل فى ثياب أنيقة لحد التبرج، تطوق عنقه سلسلة ذهبية، ويحيط بمعصميه شريط معدنى محتذيا حذو لاعبى التنس، كانت هذه الشرائط المعدنية موضع الحظوة لدى شبان بورت أوف سبين إبان هذه الفترة، فكانوا يزدهيهم الخيلاء بهذه الشرائط التى تطوق المعصم.

لم يكف إدوارد عن الرسم وإن ذبلت شعلة حماسه لتزيين ملابسنا بروائع فنه حتى انطفأت، فلمعت العيون بضوء بهيج، وتهللت الأسارير بالبشر، وغمرت الأفئدة طمأنينة سعيدة.

تقدم إدوارد لمسابقة فى تصميم الملصقات فمنى بخيبة شاملة، أشعلت نيران الغضب والحنق بقلبه على ترينداد وأهلها.

ذات يوم قال إدوارد وهو يزفر من الغيظ: من الغباء أن ترسل روائع فنك إلى لجنة تحكيم تتشكل من مواطنى ترينداد، فهم يعاشرون جهلهم معاشرة التسليم، فلو كنت فى أمريكا، كانوا سيغدقون على

صفة النبوغ والعبقرية، فالأمريكيون ذوو خبرة فسيحة بأمور كثيرة فى الحياة.

كان يخيل إلى من يبادله إدوارد الحديث أن أمريكا دولة عملاقة يسكنها عمالقة، فهم يعيشون فى منازل فسيحة لدرجة تعز على التصور والخيال ويمتلكون سيارات مترامية الأطراف طولا وعرضا.

كان إدوارد لا ينى عن الإشادة بعظمة أمريكا: انظروا إلى شارع ميجل: هل تظنون أن بأمريكا شوارع ضيقة مثله؟ إن أى طوار فى أمريكا يفوقه اتساعا!

سايرت إدوارد ذات ليلة حتى دوكسايت التى يقع فيها معسكر للجيش الأمريكى، رأيت خلال سور مقام من الأسلاك الشائكة شاشة عرض بالغة الضخامة يترامى أمامها فناء فسيح تظله السماء صفت بجنباته الكراسى الخشبية ذات المقاعد من القش المفتول.

قال إدوارد وهو يحدجنى بنظرة نافذة: أترى قاعة السينما التى شيدوها فى هذا البلد التافه الحقير. دعنا نتخيل روعة وجمال دور السينما التى يرتادونها فى بلادهم.

مشينا جنبًا إلى جنب فى خطو ثقيل صوب حارس فى كشك خشبى.

تفرس إدوارد فى وجه الحارس كأنما يمتحن أثر حضورهما فى نفسه، ثم ضغط على جناحى أنفه بأصبعيه متأملا وقال وهو يحاكى اللهجة الأمريكية بإصرار وعزم هائلين: كيف الحال.. يا جو؟

عقلت الدهشة لسانى عندما صكت أذنى إجابة لاذعة ندت عن الحارس الذى أمال خوذته على جبهته وراح يرمينا بنظرات كالأحجار المدببة من تحت إطار خوذته. سرعان ما انخرط إدوارد والحارس فى حديث تطايرت فيه الشتائم بينهما.

عندما عاد إدوارد إلى شارع ميجل راح يختال فى مشيته كالطاووس ملقيًا على ما حوله نظرة متعالية كلها ثقة وزهو، عطف نحوى رأسه وقال منشرح الصدر: عالنهم بحقيقة مشاعر الأمريكيين نحوى وطبيعة الصداقة بينى وبينهم التى توطدت حتى تناهت إلى ذروة الثقة.

وعندما قابلنا هات صباح اليوم التالى قال له إدوارد بارتياح ممزوج بزهو:

كنت أحادث فى الليلة الماضية جنديًا أمريكيًا تأصلت بينى وبينه صداقة متينة، أخبرنى هذا الصديق الأمريكى أن دخول الأمريكيين الحرب كفيل بإنهائها على وجه السرعة.

فقال إرول: إننا لا نبغى كسب الحرب. بيد أنه بمجرد أن يتقلد أنتونى إيدن رئاسة الوزارة فسوف تنتهى الحرب بسرعة.

فقال إدوارد كاظمًا غيظه: اخرس يا ولد!

بيد أن أعظم تغيير لمسناه فى شخصيته تجسد فى انقلابه بين عشية وضحاها من رجل نبذ النساء

كما ينبذ الحذاء البالى إلى رجل غزل ماهر يروى حكايات تهز الأفئدة وتشعل الأخيلة. فقبل التحاقه بمعسكرات الجيش كان لا ينى عن الإشادة بقراره بالعزوف عن ضروب اللذات وأفانين النعيم طائعًا مختارًا.

كان قد صارحنا بأنه عانى فى شبابه آلام قلبه المنفطر وكبريائه الجريح وأنه أخذ على نفسه عهدًا بأن يلفظ جميع النساء من قلبه الذى اخترقت شغافه تلك الطعنة النجلاء كما يلفظ ذبابة اندست فى فيه وهو يتثاءب، كنت أحس أن جوانحه تشتعل بنار الحزن والحسرات عندما كان يقص علينا هذه الحكاية الفاجعة التى يلفها غلالة من الغموض كما لو كان لسانه يخون إرادته أحيانًا رغم إصراره على إدراجها فى أكفان النسيان.

كان يهل علينا فى أيام الآحاد فندهش لما نطالعه فى وجهه من حماس تتألق له عيناه الصغيرتان: إننى أدعوكم إلى معاينة أجساد ووجوه النساء فى القاعدة العسكرية فهن لا يشابهن بأى حال من الأحوال فتيات ترينداد الحمقاوات لحد الازدراء. فنسوة المعسكر يبدو على سيمائهن الجلال والكبرياء لنشأتهن نشأة منعمة فى بيوت وافرة الثراء، ناهيك عن حسنهن الذى يبهر الأعين بما يسرى فى قسماتهن من نضارة الزهر يتفتح من أكمامه.

أظن - حسب ما أذكر الآن أن أدوس قهقه فى انشراح وقال لإدوارد بنبرة مشجعة: إننى أنصح لك

بأن تغربل نفسك من الوساوس، فهؤلاء النسوة لا يطمحن إلى إقامة علاقة غرامية معك. فهن يأبين إلا الانخراط فى علاقة مع رجال أمريكيين يمتازون بضخامة فى الجسم كمصارعين محترفين.

ولذا حاول جهدك أن تطرد سحائب المخاوف أن تزدردك لقمة سائغة فليس ثمة ما تخشاه فى واقع الأمر!

صاح به إدوارد وهو ينتفض كالمصعوق: كيف تجرؤ أن تلقى على سمعى هذا الهراء؟ بقامتك القصيرة وهزالك كأنك خارج من مجاعة! ثم غادرنا مقطبا مدمدمًا يسب الناس والشارع.

واظب إدوارد على تقوية عضلاته برفع الأثقال، وهى الرياضة البدنية التى سرت ممارستها سريان الحريق بين الهشيم فى ترينداد إبان هذه الفترة، فغدا جميع الشبان مهجوسين بأنموذج الجسد الجميل، وشهدت البلاد كل شهر إقامة مسابقات كمال الأجسام.

اعتاد هات أن يردد على أسماعنا ملتمسًا المواساة لنفسه:

علينا ألا نترك أنفسنا لقمة سائغة للقلق يزدردها إن كل ما يقول محض هراء، فهم يدعون أنهم يقوون عضلاتهم عضلة أثر عضلة، فلنتركهم حتى يفتر حماسهم وينطفئ، ولنر ما تتمخض عنه هذه

التمرينات القاسية، فكل عضلة قاموا بتقويتها ستتحول إلى دهون فيغدون مضرب الأمثال ببدانتهم لحد الإفراط.

قهقه أدوس عاليًا ثم قال: عندما تذهب إلى شارع فيليب سيطالعك مشهد فى غاية من الفكاهة: عشرات من الشبان السود وقد اتخذوا مجلسهم فوق مقاعد عاليه بغير ظهور أمام طاولة رخامية بيضاء فى مشرب لبن، وهم يحتسون أقداح اللبن بتلذذ بقمصانهم الصوفية مفتوحة الطوق دون أكمام معلنين عن أذرع قوية منتفخة العضلات تلفت الأنظار رغم الأنوف.

لم تنقض ثلاثة أشهر حتى طالعنا إدوارد مرتديًا قميصًا مشابهًا فثبت لنا أنه قوى عضلاته بالمواظبة على رفع الأثقال.

راح يفخر جهرًا بمطاردة نساء القاعدة له بعزم لايلين. قال وعصافير النشوة تزقزق فى قلبه: إننى لا أدرى ما الذى يجذبهن إلى على هذا النحو العجيب!

تفتق ذهن أحد المواطنين عن فكرة بارعة تدعو إلى تنظيم عروض شعبية يستعرض فيها المواطنون مواهبهم المختلفة.

قال إدوارد وهو يسبل جفنيه فى استياء: عما تتحدثون؟

إنها فكرة مضحكة. فما الموهبة الشاهقة التى تحسبون أن أهل ترينداد يمتلكونها؟

جالسنا الراديو بمنزل أدوس نتابع أنباء العرض الأول بانتباه بالغ فى حين راح إدوارد يطلق ضحكاته المجلجلة دون مراعاة لشعورنا.

تساءل هات وهو يرمقه بنظرة ودية: لماذا لا تجرب الغناء؟

فأجاب إدوارد وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة: أغنى لمن؟

لأهل ترينداد؟!

فقال هات بنبرة مشجعة: سوف يذكرون صنيعك إلى الأبد.

ارتسمت على الوجوه آى الدهشة وانفغرت الأفواه من عجب عندما ترامى إلينا صوته وهو يقوم بتدريباته الغنائية فلفظت أنفسنا الفن. نفد صبر هات فقال مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس:

لم يعد بمقدورى الاحتمال، لن يقاسمنى بيتى بعد الآن. عليه أن يرحل.

غادر إدوارد مسكنه وانتقل إلى مسكن آخر فى نفس الجانب من شارعنا. قال وهو يتنهد تنهيدة ارتياح: لقد طبت نفسًا بانتقالى إلى هذا المسكن الجديد إذ أن مسكنى القديم كانت تسطع فى هوائه الفاسد رائحة روث الأبقار لحد يعز على الاحتمال.

تقدم إدوارد لأحد العروض الفنية، خفقت القلوب رغم كل شىء بالأمل فى أن يفوز بإحدى الجوائز،

أقيم العرض تحت رعاية شركة تنتج البسكويت، كانت كما كنت أظن ـ تمنح جميع الفائزين هدايا مالية.

بيد أن هات قال لى وهو يخفى ضحكات ساخرة: إنها تهب بعض الفائزين هدايا من علب البسكويت لا تتجاوز قيمتها ثلاثين سنتًا!

فاز إدوارد بعلبة بسكويت بيد أنه لم يعد بها إلى بيته ألقى بها فى أرض الحافلة العامة التى كان يستقلها فى طريق عودته.

قال وهو ينتفض من الغضب: أتتساءلون لماذا ألقيت بها فى الشارع؟

لا عجب فأهل ترينداد مثال للغباء والحماقة، ولا حيلة لهم فى ذلك، فى حين أن الأمريكيين فى القاعدة يحترقون توقًا إلى سماع أغنية واحدة أترنم بها ليطربوا حتى تفيض قلوبهم بالدمع، فهم على معرفة واسعة بفن الطرب الأصيل.

والدليل على ذلك أننى بالأمس كنت أدندن فى غمغمة أثناء انكبابى على العمل فدنا منى العقيد وهنأنى على حنجرتى الذهبية التى ترسل أنغامها الشجية فتنتشر النشوة كالشذا الطيب النفاذ، وترقص الجدران من سكرة الطرب، وتوسل إلى أن أذهب إلى أمريكا فالأمريكيون فى رأيه لا يودون أن يحرموا على أنفسهم أشهى ثمار الفن الأصيل.

فقال هات وهو يروض نفاد صبره: ولماذا لا تمتثل لنصيحته وتذهب؟

تلقى السؤال التهكمى كأنه بودرة عفريت رشُت فى قفاه: أمهلنى بعض الوقت! لقد صدقت عزيمتى على قرار الرحيل ولن أتراجع عنه.

خطر لأدوس خاطر فتساءل باسمًا: ما مصير نسوة القاعدة اللاتى نشطن لرمى الأحابيل حولك؟ هل أوقعنك فى المصيدة أم تبدد حلمهن ووأدت آمالهن وتبخرت سعادتهن؟

فصاح إدوارد والغضب يشتعل تحت قبضة إرادته: حذار أن تتمادى فى ضلالك وتستبيح لنفسك توجيه لذعات جارحة إلىَّ.

إنك تدفعنى إلى أن أطبق يدى على عنقك. إننى أنصح لك بالصمت أن يوردك لسانك عثرة جديدة، فتهلك.

وعندما كان يلمحنا وهو يمضى إلى منزله بصحبة أصدقائه الأمريكيين، كان يحول عنا عينيه فى تجاهل بين ثم يمرق من جانبنا، كان مظهره فى غاية من الفكاهة وهو يسايرهم محاكيا المشية الأمريكية، وقد تدلت ذراعاه على جنبيه فى تراخ كذراعى الغوريلا.

زفر هات زفرة غيظ وتمتم: إن النقود التى يجمعها بعرق الجبين يهلكها فى هوى الخمر والتمسح فى سيقان الأمريكيين كالكلب.

بيد أن الغيرة كانت تدب فى أعماقنا.

قال هات مستوهبًا العزاء لنفسه: من اليسر أن يجد المرء لنفسه عملا فى المعسكر الأمريكى، بيد أننى لا أحب أن أكون مرءوسًا يستغلنى صاحب العمل ويستذلنى. فأنا لا أعدل بالحرية شيئًا.

لم يعد إدوارد يستهويه الاجتماع بنا، فكان يلزم بيته فى معظم الأيام.

طالعنا ذات يوم بوجه مخطوف وبصر زائغ: هات! يبدو أننى لن أجد لنفسى بدًا من الزواج.

كان يتحدث بلهجة أهل ترينداد.

حارت فى عينى هات نظرة قلقة. تساءل: لماذا تجد نفسك مجبرًا على الزواج؟

- ثمة امرأة تحمل فى جوفها حملا!

- محض هراء! فلو تزوج كل رجل من المرأة التى تحمل فى جوفها حملا منه لتقوض بنيان عالمنا كله وغصنا فى أعماق خيبة جامعة. فما سبب التغير الذى طرأ فى صميم روحك وجعلك تنشد الاختلاف عن كل أهل ترينداد فى العادات والطبائع فهل وضعك الأمريكيون فى قالبهم؟

جذب إدوارد بنطلونه ذا النمط الأمريكى الذى التصق بجسده جذبة سريعة لأعلى ثم اصطنع سحنة ممثلى الأفلام الأمريكية. نفس عن صدره بتنهيدة عميقة ثم قال: ليس الأمر كما تظن بيد أن هذه الفتاة لا تشابه الفتيات الأخريات، أننى أقر بأننى وقعت فى

الهوى مرة أو مرتين من قبل واكتويت بنار الحب بيد أن هذه الفتاة تختلف عن الأخريات.

تساءل هات ساخرا وهو يبتسم فى استهانة: هل هى جديرة بحبك؟

فأجاب إدوارد بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته: نعم.

تنفس هات تنفسًا عميقًا ليخفف عن أعصابه وقال: إنك يا إدوارد رجل ناضج. من الواضح أن نيتك قد صدقت على الزواج، فلماذا جئت إلينا كى أجبرك على الزواج؟ إنك رجل قد تسنم ذروة الرجولة ولذا فأنت لست مضطرًا إلى المجيء إلىَّ للحصول على تصريح لفعل هذا أو ذاك.

عندما غادرنا إدوارد، قال هات: بوسعى أن أقرأ قلبه كصفحة مبسوطة، فهو مثل الطفل لا سر يصان فى فمه لا يستطيع أن يكذب علىَّ فبوسعى قراءة أعماقه بسهولة. بيد أنه إذا تزوج من هذه الفتاة التى لم يقع عليها بصرى حتى الآن فسوف يذوق مر الخيبة ويشعر بخيبة أمل لا عزاء فيها.

كانت زوجة إدوارد ذات قامة طويلة بيضاء نحيلة لدرجة تستثير الرثاء، بدا عليها هزال وخور بالغان. كانت مشيتها تبدو مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادئ المشى الأولية، كان إدوارد يشغف بها أيما شغف ويتدفق منه الثناء عليها. بيد أنه لم يعارف بيننا وبينها قط.

انتشر خبر الزواج بسرعة الشهب، ولاكت ألسنة النسوة فى شارعنا سيرتهاورحن يتقولن عليها بسوء، مطلقين ألسنتهن فى طبعها وشخصيتها.

قالت السيدة مورجان وعيناها الذابلتان ترمشان فى خبث: إنها امرأة تفور جراثيم العدوان فى دمها، فهى تجد قرة عينها فى جر شكل جيرانها، إن قلبى يتقطع حزنًا عليه فقد رمى بنفسه إلى مركز حرج.

أما السيدة بهاكسو فقالت وعيناها تعكسان نظرة قرف ممتعضة وانعقدت فوق جبيها تكشيرة كاللعنة: إنها امرأة متفرنجة تشابه فى سلوكها وهيئتها أولئك النسوة اللاتى يأبين إلا أن يعمل أزواجهن فى شبه سخرة سحابة النهار ثم يعودوا لكى يطبخوا ويغسلوا الآنية وينشروا الغسيل فى الشرفات، فى حين ينشطن للتزين فتجدهن يمسحن الخدود والجيد بالبودرة المعطرة، ويكحلن العيون، ويصبغن الخدود والشفاه بحمرة قانية، ثم يسرن فى الشارع فى هالة من التبرج الفاقع بعجيزة تهتز وتتأرجح فتصوب إليهن من جميع الجهات نظرات نارية، لو عثرت فى طريقها بصوان لأذابته. تساءل هات وهو يضرب كفًا بكف متعجبًا: إننى لا ألمح أمارات الحمل عليها!

كف إدوارد عن التردد على مجلسنا كلية فتلاشت روح الزمالة العتيدة.

قال هات: إنها تسيمه الذل، وها هى حياته تتقلب جحيمًا لا يطاق!

ذات يوم هتف هات صائحًا: إدوارد! تعال هنا!

فصاح إدوارد من موقفه على الطوار المقابل بلهجة أهل ترينداد وهو يرميه بنظرة جامدة فى تجهم وصلف: ماذا تريد؟

ارتسمت بسمة ساخرة على شفتى هات وقال: متى سيرى الجنين النور؟

فأجاب وقد اشتعلت فى عينيه نظرة غير إنسانية تمج سما:

ما الذى ترمى إليه بهذا السؤال؟

فأجاب هات: ألن يعجب الناس من عم مثلى عندما لا يبدى اهتمامًا بابن أخيه؟

قال إدوارد بلهجة تنم عن رغبته فى قفل باب الحديث:

إنها ليست حبلى.

تمطت شياطين العبث فى نفس أدوس فقال: لقد كانت تنصب لك الفخاخ!

قال هات وهو يكتم فيضان غضبه إنك تفترى الأكاذيب يا إدوارد! لقد اختلقت الحكاية برمتها، فهى لم تكن حاملا وأنت كنت تعلم هذا، وهى لم تخبرك أنها حبلى وأنت تعلم هذا أيضًا، فإذا كنت تريد الزواج من هذه المرأة، فما الذى كنت ترمى إليه من وراء هذه الحكاية المختلقة من جذورها ولا أساس لها فى الواقع؟

قال إدوارد بصوت منخفض وهو يعانى مرارة القهر: إن أردت الحقيقة، أنا لا أعتقد أنها قادرةعلى الحبل.

عندما تناهى الخبر إلى النسوة فى شارعنا، رددن نفس العبارة التى ندت عن أمى.

قالت أمى: كيف تتوقع من امرأة يلوح الشحوب بشرتها. امرأة نحيلة لدرجة مخيفة كأنها محض عظام أن تحبل وتلد!

رغم غياب الشواهد، ورغم عدم انقطاع الضيوف من الأمريكيين عن الصياح والزئاط، كنا نستشعر نذر الشقاق بين إدوارد وزوجه.

فى يوم الجمعة التالى عندما كان المغيب يضفى على الدنيا ظلاله هرع إدوارد إلى مجلسنا فوق الطوار وصاح بى بصوت مرتعش النبرات: نح جانبا هذا الكتاب التافه الذى تطالعه وأسرع لإحضار أى رجل شرطة تصادفه فى طريقك.

تطلعت إليه بحذر وأنا أحد نظرى لتكاثف العتمة: رجل شرطة! أتطلب منى ببساطة أن أذهب لإحضار رجل شرطة؟!

فقال إدوارد: نعم هل تستطيع أن تسوق دراجة؟

أحنيت رأسى بالإيجاب.

فسألنى: هل تمتلك مصباح دراجة أمامى؟

هززت رأسى سلبًا.

فقال إدوارد: خذ دراجتى وامض بها دون مصباح أمامى أنا وأثق أنك سوف تعثر على أحد رجال الشرطة.

تساءلت: ماذا أقول له عندما أعثر عليه؟

- قل له إنها حاولت الانتحار مجددًا.

قبل أن أنعطف بدراجتى إلى شارع اريابيتا الرئيسى كنت قد مررت برجلى شرطة لا شرطى واحد، كان أحدهما برتبة رقيب، صاح بى بصوت خشن فظ: هل ستقطع الشارع حتى آخره؟

- إننى أبحث عنك!

أطلق الآخر ضحكة مجلجلة.

التفت الرقيب صوبه وقال: إجابة لاذعة. أليس كذلك؟ إننى أعلم أن القاضى سوف تستهويه هذه الإجابة التى تستهوينى أيضًا، فهى تنم عن ذكاء عجيب وحب المفاكهة، والميل إلى التندر والمداعبة.

قلت باستعطاف منبعث من الأعماق: إن زوجة إدوارد حاولت الانتحار للمرة الثانية.

قال الرقيب بصوت ينم عن الضجر: إن زوجة إدوارد لا تكف عن المحاولة. ضحك ملء شدقيه، ثم واصل: أين جرت هذه المحاولة؟

- على كثب من الموضع الذى يعترض فيه طرف شارع ميجل الشرقى الشارع العمومى.

قال الكونستابل: إن هذا الصبى متوقد الخاطر، على غاية من الذكاء.

فقال الرقيب: بكل تأكيد. فلنتركه هنا ونذهب للبحث عن تلك المرأة التى قر منها العزم على الانتحار، والآن كف عن هذا الهراء يا فتى وأخبرنى: أين تصريح الدراجة؟.

فقلت بعجلة ولهوجة: إن الحكاية التى قصصتها عليكما صادقة وسوف أعود معكما لأريكما المنزل.

لمحت إدوارد وهو يجلس القرفصاء دافنًا وجهه بين ركبتيه.

عندما رآنا قادمين نهض بغتة وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام الشديد وخاطبنى قائلاً باستياء بوجه متجهم: لقد انتظرتك حتى نفد صبرى وهأنت تعود مصطحبًا رجلى شرطة فقط!.

دلف رجلا الشرطة إلى الداخل مع إدوارد فى حين تجمع حشد من الخلق فوق الطوار.

قالت السيدة بهاكسو وهى تدارى ابتسامة شامتة: هذا هو ما توقعت تمامًا. لقد كنت أعلم منذ البداية هذه النهاية.

وقالت السيدة مورجان بصوت خامل محشرج بالخيبة: إن أحداث الحياة تشيع فى نفس المرء الدهشة والحيرة. فلو كنت عقيمًا مثلها لصفت الحياة من شوائب الكدر، فى حين أنها تنشد الموت لأنها عقيم. كما تنشد الخمر المعتقة.

عطف أدوس نحوها رأسه وتساءل بحدة: كيف علمت أنها تنشد الموت لهذا السبب؟

ندت عن منكبها الغليظ حركة استهانة وقالت: وهل ثمة سبب آخر؟

تقطع قلبى حزنًا على إدوارد لأن رجلاً أو امرأة فى شارعنا لم يعطه الفرصة كى يشكو بثه وحزنه إليه، ولم تفلح الحفلات التى كان يعقدها بمنزله لضيوفه الأمريكيين فى تبديد سحب التعاسة التى انعقدت فوق رأسه، فبدا شارد الطرف متجهمًا ومستسلمًا للمقادير، اصفر وجهه من التأثر عندما صاح به أدوس بصوت غليظ مرتعش النبرات:

لماذا لا تذهب بزوجتك إلى أمريكا؟

فالأطباء الأمريكيون يتميزون ببراعة تعز على التصديق، وبإمكانهم تحقيق المعجزات! كما هبط عليه صمت واجم عندما نصحته السيدة بهاكسو باصطحاب زوجه إلى عيادة البعثة الطبية لدول البحر الكاريبى فى الطرف الشرقى لشارع اريابيتا العمومى لإجراء اختبار فحص لدمها.

ومع مرور يوم وراء يوم أوغلت هذه الحفلات فى ضلالها فارتفع الصياح حتى رج الجدران وصم الآذان.

قال هات بنبرة معتصرة بالحسرة والحزن: فى نهاية كل حفل نستشعر حركة تنذر بالختام وسرعان

ما يعود كل ضيف إلى بيته، ويتفشى فى الجو أسى عميق، وتغشى إدوارد كآبة ثقيلة.

رغم امتلاء الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات كنت أرى زوجة إدوارد من خلال النوافذ المفتوحة مستكنة فى غشاوة كآبتها، هزلت كأنها خارجة من مجاعة، وبدت متجهمة الوجه غالبًا، وغالبًا تحمل طابع المتقزز كأن ليمونة تعصر فى فيها.

كانت تشتبك فى شجار مع زوجها فتتطاير الشتائم بينهما.

وكان لا ينقطع عن الصياح حتى يلم بأوتار صوته الألم من الزعق.

بيد أن مشاجراتهما لم تكن تشابه ذلك النوع من الشجار بين الأزواج الذى اعتدنا عليه فى شارعنا. إذ أنه رغم أن دوى صراخه كان يجعجع فى آذاننا كنا نستشعر رغبته الصادقة فى تطييب خاطرها وإرضائها.

قال أدوس بفخر صبيانى: أتمنى لو أن المرأة التى سأتزوجها تسلك مثل هذا السلوك الشائن. فسوف أجعل منها عبرة لكل معتبر وأقوم من سلوكها بعلقة واحدة.

فقال هات: إن إدوارد مسئول عن تعاسته. أما الأمر الذى يستثير السخرية المريرة فهو أنه يحبها حبًا يملك عليه نفسه.

كان إدوارد يحادث هات وأدوس والرفاق الكبار الآخرين عندما يبادلونه الحديث، بيد أن صبره كان ينفد عندما كان يستشعر نذر محاولاتنا - نحن الصغار - لمبادلته الحديث، فكان يتوعدنا بالضرب، ولذا تركناه وشأنه.

ورغم ذلك كان بوبى الذى كان يجمع بين الشجاعة وبين الغباء يوجه الخطاب إلى إدوارد كلما مر بمجلسنا قائلاً بلكنة أمريكية قحة: كيف الحال يا جو؟

كان إدوارد يتوقف عن السير بغتة ثم يدور على عقبيه بحركة عصبية، ويطعن بوبى بنظرة غاضبة حانقة مستفزة ثم ينفجر فى غضب قاذفًا بسيل من اللعنات الفاحشة، كان يصيح بنا وقد كور قبضة يسراه مهددًا: أترون السلوك الشائن الذى يسلكه أطفال ترينداد؟ هل ثمة وسيلة أخرى لتأديبه سوى هرسه بقدمى وعجنه حتى لا يعرف له رأس من قدم؟

أخذ إدوارد بوبى من تلابيبه إلى وسط الشارع ذات يوم وانهال عليه ضربًا بالسوط.

تعالت صيحات بوبى ممزقة بوحشية الألم: كلا إدوارد كلا.

بيد أن صيحاته جاءت نفطًا على لهب، إذ أبيضت عينا إدوارد من الغضب، وراح ينتفض من الرأس إلى القدم.

هرع هات لنجدته. لوح لإدوارد بقبضته منذرًا وصاح به:

أترك هذا الصبى فورًا، وإلا سيشهد الشارع خناقة حامية.

فرغم أنك ضخم الجسم قوى المبنى كمصارع، فأنت تعلم أننى لا أخشاك.

اشتبكا فى عراك، واضطر بعض السابلة إلى التدخل للتخليص بينهما.

عندما أطلق سراح بويى صاح بإدوارد بصوت مخنوق النبرات:

لماذا لا تنجب طفلاً ثم تضربه عندما يشب عن الطوق حتى تستوفى المزاج؟

لوح هات لبويى بقبضته منذرًا وصاح به: كف عن هذا الهراء وإلا سأنشب أصابعى فى زمارة رقبتك. إرول أعد لى سوطًا فضرب الوالد ولده كالسماد للزرع.

كان إدوارد هو الذى كاشفنا الحقيقة عارية عن كل تخفيف.

قال بصوت منخفض يخلو من أى اضطراب فى نبراته: لقد هجرتنى.

قال أدوس على سبيل التعزية: إن قلبى يتفتت رثاء لك.

وقال هات: عليك أن تسلم بالمقادير.

كان إدوارد ينصت إليهما بعقل نصف غائب، وبدا أن كلمات العزاء تنزلق فوق قلبه فلا تترك أثرًا.

واصل أدوس بحماس: لم تستثر حبى منذ أن رأيتها أول مرة، كما أننى لا أعتقد أن من الصواب أن يتزوج الرجل من امرأة عاقر.

بادرهما إدوارد مروحًا عن حنقه الذى عز عليه المتنفس:

اخرس يا أدوس. أما أنت يا هات فلا تحاول خداعى بنثر لآلئ كلمات العزاء والتشجيع بين يدى. إذ تقشر الطلاء عنكم فتجليتم على حقيقتكم، فاخلعوا قناع العطف الزائف فإننى أعلم أن الأحزان تعصف بقلوبكم لحد تفجر الصدور عن ضحكات بلهاء الرنين!.

فقال هات بصوت متهدج من الغضب: إن أحدًا لم يضحك.

يمكنك أن تنفس عن حنقك المختنق فى أى امرئ سواى، بيد أنه ليس ثمة غرابة فى أن تهجر زوجة زوجها، وهذا يذكرنى بكلمات الأغنية الشعبية.

كنت أتملى الحياة صفاء خالصًا مع زوجتى التقية النقية التى تنفث الهناءة والمودة فى جنبات البيت.

بيد أن دنياى تقوضت، وتبدد حلمى، وتبخرت سعادتى عندما جاء الجنود وانتظموا صفوفًا!.

فلا تهب نفسك للشقاء وتقدمها لقمة سائغة للهموم تزدردها.

فأنت لم ترتكب ذنبًا فالأمريكيون هم الذين نغصوا عليك صفوك، ووضعوا فكرة خبيثة فى رأس زوجك.

سأله أدوس وعيناه الذابلتان ترمشان فى خبث: هل تعرف الرجل الذى غواها فهربت معه؟

اشتد بإدوارد الغيظ فقال بحدة: هل سمعتنى أقول إنها هربت مع شخص غواها؟

فقال أدوس: «كلا... ولكنه هاجس يساورنى».

تنهد إدوارد تنهيدة المغيظ المقهور وقال: «لقد صدقت ظنونك... هربت مع جندى أمريكى خائن قابل صنيعى بالإنكار والجحود، فطالما كان يصيب من الشراب فى بيتى حتى تتوهج روحه بالنشوة والبهجة».

بيد أنه بعد أن أزاح هذا الاعتراف عن صدره همًا ثقيلاً راح بعد أيام قلائل يطوف بيوت الشارع يكاشفهم بما حدث قائلاً منشرح الصدر: «أشعر كأن حملاً ثقيلاً رفع عن عاتقى، إذ أن معاشرة امرأة عاقر كان يهيج أشجانى، ويجعلنى أشعر بخيبة أمل لا عزاء فيها.

لم يعد أحد فى شارعنا يسخر من اللهجة الأمريكية التى كان يصطنعها فى حديثه، وبت أعتقد أن بوسعنا التغنى بصداقته مجددًا والترحيب به

عضوًا فى شلتنا، بيد أنه لم يبد أى قدر من الاهتمام حيال هذا التغير فى مشاعرنا، وآثر أن يقبع فى سياج قاس من الكبرياء والصمت، إذ لم يعد يرتاد مجلسنا عندما يفرغ من عمله بل راح يخبط فى الشوارع على غير هدى.

قال هات وهو يقطب تقطيبة باسمة «إنه يحبها ملء فؤاده. فها هو يهيم على وجهه يبحث عنها كالمجنون حاملاً طعنة الغدر بين أضلعه. ففى الأغنية الشعبية يسلب الأمريكيون المغنى زوجه فيتوسل إليها أن تعود إليه فتقول:

عزيزى لن أعود إليك

فأنا أعاشر جنديًا أمريكيًا

وأرشف من كئوس الهوى خمرًا صافية

هذا ما حدث تمامًا لإدوارد.

عاد إلى شارعنا كشمعة لم يبق منها إلا عقب فتيلة، قال والعبوس على شفتيه والجهامة فوق جبهته: سأغادر ترينداد.

تساءل أدوس: هل ستذهب إلى أمريكا؟

وقع تساؤله التهكمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فانقض عليه مسددًا قبضته إلى وجهه ولكن أدوس تفادى من الضربة بما يشبه المعجزة.

قال هات بصوت متئد متزن النبرات: كيف تستنيم لقبضة اليأس وتدع امرأة تقوض دنياك؟ إن سلوكك ينم عن اقتناعك فى قرارة نفسك أن أحدًا لم يعان مثل معاناتك من قبل!

بيد أن إدوارد أدار له أذنًا صماء.

ففى نهاية الشهر باع منزله وغادر ترينداد، أظن أنه ذهب إلى أوروبا أو كوراساو ليعمل بشركة البترول الهولندية الضخمة هناك.

بعد أشهر قلائل من رحيله أحاطنا هات بنبأ وقع من آذاننا موقع الدهشة، قال: «هل علمتم بالنبأ. إن زوجة إدوارد أنجبت طفلة أمريكية».

(١٦)

«هات»

كان هات مولعًا بإسدال ستار كثيف من الغموض والإبهام على توافه الأمور المتعلقة بحياته مثل علاقته ببويى وإرول.

فكان يعالن الغرباء بأنهما طفلاه غير الشرعيين، وأحيانًا كان يكاشفنا بوساوسه وشكوكه فى صحة نسبهما إليه، فكان يروى حكاية بالغة الشذوذ والغرابة عن امرأة كان يعاشرها هو وإدوارد فى نفس الوقت. ورغم ذلك كان يؤكد لنا أحيانًا أنهما ثمرة زواج باكر له، وكانت الدموع تزدحم بعينى وتراودنى نفسى على البكاء عندما كان يقص علينا اللحظات الأخيرة فى حياة الزوجة واستدعائها ولديها كى تنصحهما بسلوك الطريق القويم فى الحياة وقد لاحت فى نظرة عينيها الغائمة أطياف من العالم الآخر.

إلا أن الحقيقه تكشفت لى فيما بعد، فعلمت أن بويى وإرول كانا فى حقيقة الأمر ابنى أخته، إذ توفيت أمهما التى كانت تعيش فى منطقة الأدغال عن كثب

من سانجرى جراندى بعد وفاة زوجها بفترة قصيرة وانتقل الصبيان للعيش مع هات.

كان بويى وإرول يبخسان خالهما هات حقه من الاحترام إذ لم ينادياه قط بلقب خال بل هات فحسب، كما لم ينغص عليهما صفوهما ادعاء هات أنهما ابنان غير شرعيين له أو لإدوارد. ففى حقيقة الأمر كانا لا يترددان فى الإعراب عن تأييدهما لأية حكاية يرويها عن نسبهما.

عرفت هات أول مرة عندما عرض على اصطحابى إلى مباراة كريكيت فى أوفال، بيد أنه تكشف لى أننا لن نذهب منفردين إذ التقط أحد عشر صبيًا آخرين من أربعة أو خمسة شوارع قريبة من شارعنا ليصحبوه إلى استاد أوفال.

انتظمنا صفًا واحدًا أمام شباك التذاكر وجعل هات يحصينا بصوت عالٍ، وخاطب بائع التذاكر قائلا: «تذكرة واحدة واثنا عشر نصف تذكرة».

استلفت قوله اهتمام معظم الواقفين فى الطابور، فاستجمعوا حواسهم للإصغاء.

رفع بائع التذاكر حاجبيه دهشة وتساءل: اثنا عشر نصف تذكرة؟!

خفض هات عينيه وهو يحصر بصره فى حذائه مؤكدًا: اثنا عشر نصف تذكرة.

ندت عن الصفوف همهمات كطنين النحل ونحن نسير صفًا يتقدمنا هات وهو يجيل فى المكان نظرات مستطلعة بحثًا عن مكان خال.

ترددت الصيحات فى جنبات الإستاد: هل جميع هؤلاء الصبية أطفالك؟

ابتسم ابتسامة شاحبة فى استسلام دلالة الإيجاب.

وعندما جلسنا على مقاعدنا عاود إحصاءنا فردًا فردًا بصوت عال مجددًا. قال على سبيل التفسير: إننى أبذل قصارى جهدى لتجنب دواعى الشقاء وأسباب النكد، فإننى أعلم أنه إذا فُقد أحدكم دون رجعة فإن أمه سوف تنقض علىّ بوجهها الكالح فتنشب أصابعها فى زمارة رقبتى.

كان اليوم الأخير للمباراة النهائية بين ترينداد وچاميكا، وعندما أبلى لاعبا ترينداد «جرى جوميز» «ولن هاربين» بلاء حسنًا، وأحرز جوميز مائة وخمسين نقطة، استخف هات طرب جنونى عذب فانطلق يرقص فى رشاقة احترافية، وقد شاعت النشوة فى أساريره وهو لا ينقطع عن الصياح: البيض مثال فى الكمال البشرى.

مرت أمامنا امرأة تبيع أقداحًا من شراب الليمون المثلج سألها هات: بكم تبيعين القدح يا امرأة؟

ـ ستة سنتات.

ـ فلتخفضى الثمن. فأنا أريد ثلاثة عشر قدحًا.

تفرست المرأة فى وجوهنا بدهشة وإنكار: هل جميع هؤلاء الصبية أطفالك؟

فأجاب هات وقد مط بوزه برما: هل تعتقدين أننى وقعت فى خطأ لا يغتفر؟

باعتنا المرأة قدح الشراب بخمسة سنتات.

عندما أحرز «هاربين» تسعًا وثمانين نقطة أعلن الحكم ارتكابه خطأ وطرده من الملعب، كما أعلن فوز تريندا د بالنقاط.

احتدم الغيظ بصدر هات، وقطر وجهه غضبًا قانيًا نمت نبرته عن غيظ مكتوم وهو يقول:

يطرده من الملعب؟ لعرقلة الخصم بقذفه بالكرة فى ساقه؟ متى حدث هذا؟ إن الأمر لا يعدو كونه سرقة فى وضح النهار؟ والحكم من ترينداد؟! يا إلهى حتى الحكام ينزلقون إلى الرشوة؟!

لقد لقنت على يدى هات دروسًا لا تنسى فى ظهيرة هذا اليوم..كانت أسماء لاعبى الكريكيت لعذوبة نطقه بها تقع من أذنى موقع العطر من الأنف. كما أثار أشواقى لمشاهدة مباريات الكريكيت لدرجة الاشتعال.

طلبت إليه أن يشرح لى ما خُط على لوحة تسجيل الأهداف التى تبدت لى غشاء من الألغاز.

فقال بلهجة دب فيها الحماس: فى شمال اللوحة تسجل أسماء اللاعبين الذين فرغوا من تسديد ضرباتهم.

احتفظت ذاكرتى بالعبارة لأنهاوقعت من نفسى موقعًا حسنًا لما تضمنته من عناية باختيار الألفاظ، ومصارحة بالحقيقة بلباقة فاللاعب الذى يركن على الرف يوصف بأنه فرغ من تسديد ضرباته.

أثناء فترة الاستراحة المخصصة لتناول الشاى اشتعل الحماس فى عروق هات نارًا، وأسكرته نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول، فراح يطوف بجميع الصنوف من الخلق، حاثًا إياهم على وضع رهانهم على اللاعبين، اندفع بين الصفوف ملوحًا بورقة نقدية من ذات الدولار صائحًا: دولار فى مقابل شلن فى رهان على أن هيدلى لن يحقق رقمين، أو أراهن بدولار أن ستولمير سوف يلتقط الكرة فى أول ضربة ويمنع الخصم من التسديد.

كان الحكام يتجهون إلى الساحة عندما انخرط أحد الصبية بغتة فى بكاء لم يملك له دفعًا.

تساءل هات بعصبية: لماذا تبكى؟

فتح الصبى الذى كان ينتحب باكيًا شفتيه، وهمهم دون أن يبين.

- لماذا تنتحب؟

تطوع أحد الجلوس هاتفًا: إنه يريد أمه كى ترضعه رضاعًا صناعيًا.

التفت هات صوبه وخاطبه قائلاً: دولاران فى رهان على أن فريق جاميكا سوف يخفق فى تسديد خمس ضربات اليوم.

فقال الرجل: «ليس ثمة اعتراض من جانبى إن كنت مصرًا على الخسارة»، وافق رجل ثالث على قبول الرهان.

كان الصبى لا يزال مستسلمًا لموجة عاتية من النحيب.

صاح به هات بصوت غليظ مرتعش النبرات: كف عن البكاء لقد جعلتنى مضغة للأفواه قل لى بسرعة ماذا تريد.

إلا أن الصبى واصل البكاء، مال أحد الصبية على أذنه وصارحه بصوت خافت بسبب بكائه.

تساءل هات بوجه مكفهر: ألا يشتد به الحصر إلا عندما يتجه الحكام إلى الساحة بعد الاستراحة؟

أومأ إلينا جميعًا بالنهوض، ثم ساقنا كقطيع يخشى أن تشرد منه غنمة فتهلك إلى السور الحديدى للإستاد، وأمرنا أن نصطف صفًا واحدًا بمحاذاة السور ملصقين وجوهنا به.

صاح بعجلة ولهوجة: فلتبولوا جميعًا الآن.

كانت مباراة الكريكيت بعد ظهر هذا اليوم فى غاية الروعة، أضاع فريق جاميكا ستة أهداف من

إحدى وثلاثين فرصة للتصويب، رغم أنه كان يتضمن اللاعب هيدلى ذا الموهبة الفذة فى إصابة الأهداف.

عندما مالت الشمس نحو الأفق الغربى فى سياحتها الأبدية إلى عالم الظلام وتشرب لون المغيب بالسمرة، كان تريل جونسون لاعب تريندداد المنوط به مهمة قذف الكرة بقوة يستحيل معها إمساكها قد بدا أن نجاحه فى قذف الكرات بهذه القوة الهائلة حفزه إلى الاندفاع بأقصى سرعة.

شرعت امرأة عجوز مفرطة فى السن كانت تجلس على يسارنا فى الصياح بترتيل جونسون وصوتها يرعد من الغضب حتى بح صوتها وألم بأوتار صوتها الألم من الزعق ثم لم تلبث أن صرفت وجهها إلينا بعنف وقالت بصوت مبحوح كأنها سعلت دهرًا: إننى أعرف تريل منذ أن كان صبيًا صغيرًا لم يشب عن الطوق بعد، وكنت ألاعبه بالبلى. كنا كفرسى رهان يتسابقان فى غير كلل، ثم تشيح عنا بوجهها، وتواصل الصياح باللاعب.

راح هات يجمع مبلغ الرهان، تظلل وجهه سحابة كدر خانق تكشفت لى حقيقة مذهلة وهى أن هات يحترق توقًا لوضع رهانه على جواد خاسر، فتجده يواصل هبوط درجات جديدة فى أحضان اليأس حتى يقع فى مأزق ليس منه فكاك، أهلك ماله فى هوى سباقات الخيل، وإن كان يفوز أحيانًا فى الرهان بمبلغ محترم فيقيم لنا حفلاً فى الشارع نصيب فيه من الطعام حتى نشبع.

لم أعرف رجلاً مثله تحلق روحه فى أجواء من السعادة وتغزوه دومًا فرحة راقصة تسمو به إلى أرفع سماوات السعادة.

لم يكن يفعل الأعاجيب أو يفكر جديًا فى تغيير حياته من جذورها، بل كان قانعًا راضيًا يحاول أن يضفى من روحه الهالات الساطعة على أمور الحياة العادية التى لا تستثير الاهتمام.

كنت أجد شبهًا بينه وبين كلبه فى الوداعة ودماثة الطبع، فمن بين الأمور التى استلفتت انتباهى فى شارع ميجل هو المشابهة العجيبة بين الكلاب وأصحابها، فكلب جورج الهجين مختلط الأنساب كان - مثل صاحبه - يعتور نباحه نبرة احتجاج دائم وتلوح عليه وصمة الخسة والدناءة، وكلب تونى كان شرس الطباع، صخرى القلب، ذا سحنة وحشية يشبه صاحبه لحد التماثل.

أما كلب هات فينفرد عن بقية أعضاء فصيلته بروح المزاح والدعابة التى كانت لا تفارقه.

كان يسلك سلوكًا غريبًا قياسًا إلى أفراد فصيلته. إذ كان يغمر شعوره سرور راقص ويضىء وجهه بنور بهيج عندما كان يعهد إليه باستعادة أشياء تقذف بها أمامه بعيدًا، ففى أحد الأيام طوحت فى الهواء بحبة جوافة فى أحراش السافانا لتستقر وسط شجيرات كثيفة، عندما أخفق فى الوصول إلى صيده الثمين ند عنه صوت كالأنين، واكتسى وجهه بطابع الأسى.

إلا أنه دار على عقبيه بغتة وعاد أدراجه وهو يركض كالمجنون وتجاوزنى وقد تعالى نباحه فمزق السكون تمزيقًا،وعندما التفت إلى الوراء لأتبين حقيقة الأمر، لمحته يركض كالسهم عائدًا إلى موضع الدغل، لم أر شيئًا غريبًا يستلفت الأنظار، بيد أننى عندما درت على عقبى وصوبت عينى نحو موضع الشجيرات لمحته قابضًا بفكيه على حبة جوافة أخرى كان قد التقطها بفمه.

ناديته فهرع إلىّ وهو لا ينقطع عن النباح.

قلت له بلهجة آمرة: اذهب يا فتى وأحضر حبة الجوافة.

عاود الركض صوب موضع الشجيرات ملتفة الأغصان، وراح ينكت الأرض بقدميه الأماميتين ويتشممها، ثم مرق كالرصاصة وراء الشجيرات ليلتقط حبة الجوافة التى سبق أن وضعها فى ذلك المكان.

كنت أتمنى لو أن الطيور الجميلة التى جمعها هات كانت تشابه فى طبائعها هذا الكلب دمث الأخلاق، لين الجانب رقيق الحاشية، إذ كانت طيور الببغاء التى يتيه بها فخرًا تفور فى دمائها جراثيم العدوان، وتبدو كالنسوة العجائز، شرسة السحنة، صلبة القسمات، يوحى منظرها بالحدة والجدية والتجهم، لذا كان الداخل إلى منزل هات يهزه الخوف من أعماقه،ويتصلب شعر رأسه أحيانًا من ترقب الشر إذ

كنت تجد نفسك أحيانًا وأنت غارق فى المقعد الكبير تتحدث فى هدوء، وقد اصطنعت سحنة تشع وقارًا وجدية تنتفض قائمًا وقد ارتسم على وجهك آى الدهشة والذعر إثر مهاجمة أحد هذه الطيور ذوات الجبروت لسمانة ساقك، منفسة عن صدرها المستعر بضربات من منقارها كالمطر، أو جذب بنطلونك جذبات شديدة فوق الرسغين تكاد تمزقه إربًا.

عندما شكونا إلى هات شراستها وسوء طبعها راح يقنعنا بأنها لاتهاجمه بمناقيرها الحادة، بيد أننى كنت فى قرارة نفسى غير مقتنع بقوله.

الغريب فى الأمر أن كلاً من هات وإدوارد انقلبا بين عشية وضحاها من شخصين لطيفى المعشر لا يرهب جانبهما إلى شخصين شديدى الخطورة لا يؤمن لهما جانب عندما حاولا مغازلة الجمال.

فاستهوى إدوارد فن الرسم،واستبدت هذه الطيور بمناقيرها الحادة بقلب هات.

توثقت أسباب الجفاء والنفور بين هات والشرطة، بيد أن الأمر لم يكن ذا خطورة حقة، إذ لم تتجاوز أسباب الشقاق بينهما إقامة حلبة لصراع الديكة دون تصريح أو الانزلاق إلى القمار أو مساهرة الرفاق الليل يشربون الخمر، أو ما شابه من جرائم صغيرة يفخر بها أهل شارعنا جهرًا.

بيد أن هذه المناوشات لم تبذر بذور البغضاء بينه وبين الشرطة أو تشحنه برغبة دكناء فى الانتقام من

القائمين على القانون. ففى الحقيقة كان هات يدعو الرقيب تشارلز إلى بيته لحضور حفل الكريسماس كل عام، فكان يجىء مصطحبًا معه ساعى البريد ومفتش الصحة اللذين لا يعدلان بالشراب والأنس شيئًا.

كان الرقيب تشارلز يقول بصوت المعتذر: إنه مجرد عمل أتعيش منه يا هات، إننى أعلم أن ليس ثمة رقيب علىّ وأنه ليس أمامى سبيل للترقية إلى مرتبة أعلى، ورغم ذلك لا أجد لنفسى بدًا من أداء العمل المنوط بى بهمة وحماس.

فكان هات يرد عليه على سبيل الملاطفة والتودد: لا تثريب عليك يا أخى. فنحن جميعًا لا نكترث لهذا الأمر، كيف حال أولادك؟.

كيف حال إليجا؟

كان إليجا صبيًا يفيض حيوية ويتألق ذكاء.

فيرد الرقيب بحماس تألقت له عيناه الواسعتان: «ابنى إليجا سوف يعرض رسومه فى إحدى القاعات هذا العام.

ليس بمقدرونا أن نفعل أكثر من ذلك يا هات؟! إذ لا يسعنا سوى أن ننصرف بجهدنا بحثًا عن مصباح نزيح به هذا الظلام».

كانا دائمًا يفترقان فى جو من الود والصفاء.

بيد أنه غاص فى دوامة لا فكاك منها عندما اُتهم بغش اللبن بمزجه بالماء.

قال هات مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس: جاء رجال الشرطة مستفسرين عن وسيلة تسرب الماء إلى داخل إناء اللبن، إذ خيل إليهم أننى أدرى ما حدث، بيد أننى أجهل هذه الوسيلة، فأنتم تعلمون أننى أضع الإناء فى الماء ليظل اللبن باردًا محتفظًا بطزاجته. يُخيل إلى أن قعر الإناء كان مثقوبًا... ربما مجرد ثقب صغير فى غاية الضآلة.

فقال إدوارد: إننى أنصح لك بمصارحة القاضى بهذا الأمر.

فرد هات بلهجة حادة: كنت أمتثل لنصيحتك لو أننا كنا فى إنجلترا فهل سبق لك أن سمعت عن أناس فى ترينداد يتحرون الصدق فى القول ويفلتون من العقاب؟ ففى ترينداد كلما ثبت للسلطات براءتك من التهمة كلما ازداد إصرارهم على الزج بك فى السجن، ولذا لا تجد لنفسك بدًا من أن تهب القاضى رشوة،وتهب الآخرين دجاج لجهورن سمينًا، والمزيد من الأموال على سبيل الرشوة، كما أن مفتشى الصحة لن يعتقوك من الدفع، وعندما تفرغ من توزيع الرشاوى فسوف يسوقونك من قفاك إلى السجن فى هدوء وإصرار عجيب.

فقال إدوارد: إنك أصبت بقولك مفصل الحق. إلا أننى لا أنصح لك بالإقرار بجرمك أمام القاضى. لا مفر من أن تختلق حكاية جديدة.

غُرم هات غرامة لا يستهان بها مقدارها مائتا دولار، كما اضطر إلى الجلوس جامدًا كالتمثال، صامتًا كالأموات، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، تتلقى أذنه متململة موعظة القاضى بجملها المسجوعة عن الأمانة وواجب الولاء بارتياب وحنق.

عاد من المحكمة بخطى ثقيلة، مهيض الجناح، تتجمع فى صدره ثورة جامحة وغضبة كاسرة ، حل عقدة رباط رقبته بقوة حانقة وخلع معطفه، وهو يدمدم، ثم قال كاظمًا غيظه: إن المرء يكتسحه شعور من الحيرة والذهول حيال أحداث عالمنا هذا التى تعز على التصديق والتأمل، فأنت تستحم، ثم ترتدى قميصًا نظيفًا وربطة رقبة وسترة، وتلمع حذاءك، ولماذا تجشم هذا العناء؟ كى تمثل أمام قاض أحمق ينهال عليك سبًا ولعنًا من غير سبب.

ظل يتلظى بالغضب أيامًا متواصلة.

قال فجأة كأنما قد تذكر بتداعى المعانى أمرًا مهمًا: لم يجانب هتلر الصواب عندما دعا إلى حرق جميع كتب القانون، فلنكدسها أكوامًا ونضرم فيها النيران ونحن ترشقها بنظرات ملؤها الحنق والغضب، إن هتلر على صواب وإننى أعجب أشد العجب لاشتباكنا فى قتال معه..

فقال أدوس، إنك تهرف بما لاتعرف يا هات!

اغمض هات عينيه كأنما يفرغ شحنة احتداده ثم قال: إننى لا أريد الحديث فى هذا الأمر، هتلر لم يكن

مخطئًا فلنحرق جميع كتب القانون، بيد أننى أرغب فى الخوض بهذا الحديث.

انقطعت خيوط الصداقة التى تصله بالرقيب تشارلز واحدًا إثر واحد.

فظل ثلاثة شهور لا ينى عن الإشاحة عنه بوجهه كلما قابله سائرًا فى الشارع، أحس الرقيب تشارلز بطعنة أصابت فؤاده، إذ حل الكدر بينهما مكان الصفاء، بيد أنه واظب على إرسال خطابات إليه يبلغه فيها تحياته.

ذات يوم بينما كنت أسير فى الشارع دعانى الرقيب تشارلز إلى منزله وقال لى: هل سترى هات مساء اليوم؟

أومأت برأسى بالإيجاب.

فواصل: هل رأيته بالأمس؟

فقلت: نعم

- كيف حاله؟

- ماذا تعنى؟

- أعنى كيف يبدو؟ هل يبدو سعيدًا منشرح الصدر؟

- كلا.. طالعنا بوجه عابس تتطاير نار الغضب من صفحته المكفهرة..

تأوه الرقيب تشارلز آهة الحزن والحسرة.

قلت: هل من خدمة أخرى أؤديها إليك؟

- انتظر.. قبل أن تذهب أود أن...

- ماذا؟

- لا شىء... انتظر قليلاً... أسأله عن حقيقة مشاعره نحوى.

قلت لهات بنبرة مرتعشة من التأثر: دعانى اليوم الرقيب تشارلز إلى بيته وقد ارتسمت فى عينيه نظرة زائغة ذاهلة، وراح يحدجنى بنظرة ناطقة بالاستغاثة ثم استسلم للنحيب، بعد أن روح بالدمع عن نفسه الملتاعة انجحر فى صمت يائس مليًا ثم تمتم: إننى لست مستاءً منه، كما أننى لست الشخص الذى قام بالوقيعة بينه وبين الشرطة... أعنى مسألة اللبن والماء!.

لاحت فى عينى هات بوارق الغضب، نفخ مغيظًا محنقًا وتساءل محتدًا:

ماذا يعنى بمسألة اللبن والماء؟

لم أدر ماذا أقول فلذت بجحر الصمت.

علا صوته وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار: شد ما تغيرت ترينداد ودب فيها الفساد! يقول أحدهم إن اللبن ممزوج بالماء، ورغم أن أحدًا لم يضبطنى متلبسًا بدس الماء فى اللبن فإن الألسن تلوك سيرتى حتى غدت حكايتى نادرة الشامتين ومفزع المتخيلين». ورغم ذلك برقت نظراته بأضواء فرح غامر حتى خُيل إلىّ أن الفخر يهزه، وأنه يطيب نفسًا بهذا الاتهام.

كنت دائمًا أعد هات مثالاً للرجل ذى العادات الراسخة المتأصلة التى لا تفارقه أو يفارقها أبدًا، ولذا كان يصعب على دومًا تخيله فى هيئة غير الهيئة التى كان يطالعنا بها، أظن أنه كان فى الخامسة والثلاثين عندما اصطحبنى لمشاهدة تلك المباراة فى الكريكيت، وفى الثالثة والأربعين عندما زُج به فى السجن، ورغم ذلك كان يبدو لى فى نفس الهيئة رغم تسنمه قمة الرجولة وانحداره نحو الكهولة.

كما سبق الذكر كان بينه وبين الممثل ركس هاريسون مشابهة، كان داكن السمرة، ربعة، مكتنز الجسم..كان يمشى منفرج الساقين قليلاً بقدمين مسطحتين يدق بهما الأرض بقوة وعزم.

وطنت النفس على رؤيته يمارس نفس العادات والأنشطة بقية حياته: مشاهدة مباريات الكريكيت وكرة القدم وسباق الخيل، أو مطالعة الصحف فى الصباح والأصيل، والجلوس على الطوار والانخراط فى أحاديث لا تنقطع والإفراط فى الشراب حتى تدور رأسه، وتعانقه فرحة شاملة فى ليلة الكريسماس وليلة رأس السنة، فتراه يعود مع الفجر، هو يتلاطم مع الجدران سكرًا.

كان لا يعدل بالطرب والأنس شيئًا، ولذا لم أحس أن ثمة شيئًا آخر ينشده، لم تكن الشهوة تستأثره أو تستذله.

كنت أعلم بطبيعة الحال أنه كان يرتاد بعض الأماكن سيئة السمعة فى المدينة من حين إلى آخر،

بيد أننى أظن أنه كان يفعل هذا مدفوعًا بالرغبة فى إمتاع غرائزه بالمغامرة والإثارة والعربدة، وليس لإشباع شهوته الجنسية فى نساء هذه الأماكن.

ذات يوم رج خبر مذهل شارعنا رجًا عنيفًا قوض نادى شارع ميجل، خُيل إلينا أن هات فقد فى صميم روحه شيئًا ثمينًا لا يُعوض.

أعتقد أن هذا التغيير الذى أصاب هات فى صميم كيانه يعزو إلى زواج إدوارد. إذ أن أحدًا منا لم يكن يدرك أن صديقه إدوارد كان محور وجوده وقطب الرحى فى حياته، وأن خبر زواجه عصف بفؤاده عصفًا، كما أنه طرب طربًا استخفه وأخرجه من قيود الاتزان فقهقه فى انشراح عندما علم بهروب زوجة إدوارد مع الجندى الأمريكى الذى غواها، وهيمن عليه شعور بخيبة الأمل عندما علم برحيل إدوارد إلى «أوروبا».

قال لنا ذات يوم بنبرة لا تخلو من امتعاض: كل امرئ بلغ طور الرجولة يعتزم الرحيل.

كما اعتدل فى جلسته فى اليوم التالى وقطب باهتمام وقال: إن الأسى يعتصر قلبى وأجدنى أعض أصابعى عضًا من الندم على حماقتى وجفولى من العمل فى المعسكر الأمريكى مثل إدوارد وبقية السكان فى شارعنا.

قال أدوس دون أن يحاول إخفاء لهجته الواشية بالشماتة:

إن هات قد أضحى معلمًا من معالم المدينة بملاهيها وحاناتها فهو يكاد لا يفارقها كل ليلة حتى طلوع الفجر.

فقال بويى وهو يستميت فى دفع التهمة عنه: لقد تسنم قمة الرجولة والنضج، فما الذى يحول بينه وبين فعل ما يشاء؟

فهز أدوس رأسه هزة العارف العالم وقال: إن الأمر لا يستثير العجب أو الدهشة، فعندما يحس الرجل بالكهولة تركض نحوه بلا رحمة، ويشتعل الشيب فى فوديه، تتضعضع ثقته بنفسه، وتستأثر بعقله الهواجس فيجمع على أن يطلق لنفسه الحبل على غاربه، فتجده ينقلب بين عشية وضحاها من ورع طيب إلى شيطان مولع بالمعصية، يستميت فى التشبث بأهداب الشباب المولى.

حنقت على أدوس لدرجة الغليان إذ وقع قوله من نفسى موقع السم الزعاف بيد أننى كتمت حنقى فى أعماقى، وغضضت طرفى فى خزى لإحساسى بأن أدوس لم يجانبه الصواب.

صحت بأدوس وأنا أكتم فيضان غضبى: ألن تكف عن إثارة الشبهات حول سمعة الأبرياء؟ لماذا لا تترك أفكارك القذرة وراءك عندما تغادر مسقط القمامة... ذلك المستنقع المكتظ بالجراثيم؟

بيد أن هات اصطحب إلى منزله ذات يوم امرأة.

شعرت بأن جدارًا هائلاً من الحرج قد انقض على صداقتنا فدفنها تحت ركامه، إذ غدا رجلاً ينوء منكباه بعبء ثقيل، ولم يعد بمقدوره تكريس جل وقته واهتمامه لأفراد شلتنا، ومما زاد الأمور سوءًا أننا كنا نتظاهر بتجاهل المرأة كلية كما لو أنها لم تقتحم حياتنا، وتفسد علينا أمورنا. حتى هات لم يتحدث عنها قط، ونمَّ سلوكه على الإجمال عن رغبته فى تبديد مخاوفنا من أى تغير ينغص علينا صفونا أو يجرعنا غصص الخيبة.

كانت تناهز الثلاثين، ريانة الجسم، ذات بشرة سمراء، مغرمة بارتداء الملابس الزرقاء، كانت تطلق على نفسها اسم دوللى، كانت تقبع وراء النافذة تسرح الطرف فى مناظر الحى وقد لاح فى عينيها السهوم والتفكير، لم تتحدث قط إلى أى أحد منا، لم أسمع صوتها فى الحقيقة إلا وهى تنادى هات من داخل بيتها.

بيد أن بويى وادوارد سرا بالتغير فى حياة هات سرورًا لا مزيد عليه. قال بويى وقد تهلل وجهه فى سعادة شاملة:

هذه أول مرة يثب من باطنى إلى مخيلتى صورة إمرأة عشت معها فى الماضى البعيد تحت سقف واحد، فالمرأة تنفث الهناءة والمودة فى جنبات البيت حيث يثملك إحساس حميم بأنك بلغت غاية ما وراءها غاية!.

أما أمى فقالت بصوت لا يخلو من رنة الأسف: إن الرجل غارق فى مستنقع الحماقة حتى أذنيه. فهات رأى إدوارد يتردى فى هاوية العذاب ورغم هذا تقول إن هات لا يريد أن ينتشل نفسه من هذه الورطة عسيرة المخرج.

لم يتسع أمام السيدة مورجان والسيدة بهاكسو الوقت الكافى لمعاينة دوللى ومراقبة سلوكها لحد إطلاق لسانهما فى هيئتها أو سلوكها إلا أنهما اقتنعتا فى قرارة نفسيهما أنها امرأة كسول، قاعدة الهمة رخوة العزيمة، تستنيم إلى أسباب عجزها وتخاذلها.

قالت السيدة مورجان فى غضب وازدراء: إن هذه المرأة التى تدعى دوللى تبدو لناظرى امرأة عجوزاً، لا تخطئ العين كهولتها خاصة كراميش الفم وما تحت العينين.

كان فى غاية اليسر نسيان دوللى كحقيقة ماثلة فى بيت هات، إذ أنه واصل حياته على نفس المنوال فكان يصحبنا لمشاهدة جميع المباريات كما أنه ظل يجالسنا على الطوار ويجاذبنا أطراف الحديث.

كان يترامى إلينا صوتها من النافذة فى كل ليلة وهى تصيح بصوت ذى رنة نحاسية: هل ستدخل يا هات أم ستظل فى مجلسك على الطوار؟ بيد أن هات كان يعير نداءها أذناً صماء.

كانت تعاود الصياح بعد نصف الساعة: هل ستأتى أم لا؟

فكان يرد حينئذ: أنا قادم فى الحال.

كنت أتساءل دومًا عن الحياة التى تحياها دوللى، إذ ظلت محتبسة فى بيتها لا تفارقه فى حين أن هات كان يُشاهد دومًا خارجه، كنا نراها تقبع وراء النافذة لساعات طوال تتصفح عيناها المناظر والوجوه بعقل غائب.

غدا هات وامرأته مضرب الأمثال بشذوذهما وغرابة سلوكهما فى الشارع كله، لم يشاهدهما أحد وهما يسيران جنبًا إلى جنب فى الشارع، ولم يترام إلينا ضحكاتهما أو دمدمة عراكهما مختلطًا بصوت هادر أو طقطقة التحطيم مصحوبة بزعقات الغضب والويل.

قال أدوس وهو يضرب كفًا بكف متعجبًا: يُخيل إلىّ أنهما غريبان لا تزال حواجز الكلفة بينهما قائمة.

صرف إرول وجهه إليه بعنف وقال بحدة: لا تحكم بالظاهر، إن هات عندما يجالسنا يصطنع سحنة تشع هدوءًا ووقارًا ورزانة، ولكنه يحسر هذا القناع عن وجهه عندما يدلف داخل بيته، فتشيع النشوة فى أساريره، ويمضى يبادل المرأة الحديث والبشر يسجع فى صدره، وعيناه تلمعان بنور الفرح، كما أنه يغدق عليها هدايا من أساور من ذهب وحلى.

فقال أدوس والشر يتراقص فى عينيه «يخيل إلى أنها تشابه ماتيلدا، بطلة الأغنية الشعبية التى نترنم بها أحيانًا:

ماتيلدا.. ماتيلدا

لقد سلبتنى نقودى

ثم فرت إلى فنزويلا

يبتاع لها حلى؟! لشد ما تغير هات، يُخيل إلى أنه يعانى أمراض شيخوخة مبكرة، فالمرأة لا تنشد حليًا عندما تعاشر رجلاً مثل هات بل تنشد شيئًا آخر».

عندما يقف المرء على الطوار ويمد بصره إلى داخل البيت من خلال النافذة المفتوحة يلفت انتباهه الطيور محتبسة فى أقفاصها والكلب مغلل بالسلاسل وقد غشيته كآبة ثقيلة.

بيد أن أحدًا لم يتحدث إلى هات عن دوللى، وأظن أن نبأ اتخاذه رفيقة قد بغتنا، فدهشنا دهشة بكرًا دارت لها رءوسنا.

بيد أننا تلقينا بعد ذلك لطمة داهمة فارتسم الذهول فى الوجوه، وعقدت الدهشة الألسنة، لم يتسن لنا الإحاطة بالتفاصيل إلا بعد مرور عدة أيام. لاحظت فى البداية اختفاء هات كأنه فص ملح ذاب، ثم تطايرت الشائعات حتى ملأت الجو.

تكشفت لنا الحقيقة فى المحكمة. هربت دوللى من البيت وهى تحمل هداياه بطبيعة الحال. جد هات فى أثرها اقتحم البيت الذى اتخذته سكنًا جديدًا لها كإعصار فوجدها فى حضن رجل غريب تقدم نحوه

مزمجرًا كأسد هصور يهم بفريسته. التحم معه فى عراك حام.

تفتت الموائد والمقاعد أكوامًا ونثارًا، وتطاير حشو الشلت ندفًا، وتكسرت القوارير، وانتشر كسارها، ثم أفلت الرجل من قبضته الحديدية، وانطلق مثل رصاصة لائذًا بالفرار، راحت المرأة تصوت من أعماق صدرها، جاء صراخها نفطًا على لهيب، فانقض عليها بوجه مغبر فانشب أصابعه فى زمارة رقبتها.

ذكر محضر الشرطة أنه قصد قسم الشرطة رأسا ليسلم نفسه قال والدموع تنساب من تحت جفنيه على رغمه: لقد قتلت امرأة!.

بيد أن دوللى نجت من الموت بأعجوبة.

كنا نجهل هذه الحقيقة فتلقينا الخبر كمصيبة دهماء، فلبثنا يومًا أو يومين ذاهلين قبل أن يستقر خبر مصرعها فى وعينا وإدراكنا.

ساد شارع ميجل صمت مجلل بالرهبة. كف الصبية والرجال عن التلكؤ طويلاً أمام بيت هات تحت عمود الإنارة فى الشارع، وهم يتجاذبون أطراف الحديث فى موضوعات شتى، كما كفوا عن إقامة مباريات الكريكيت، فسرت لأول مرة إلى صدر جميع الجيران الذين يقيلون طلبًا للراحة من تعب اليوم نسمة ارتياح سعيدة، بيد أن النادى الذى اتخذ من

الشارع مسرحًا لأنشطته لفظ أنفاسه مشيعًا بالحسرات.

إننى أشعر الآن بغمز الألم فى صميم قلبى وأنا أجتر ذكرى هذا الحدث إذ أننا لم نكترث لمصير دوللى فقد كان وزنها عندنا أخف من الهباءة العالقة فى الهواء الساكن، فى حين أن قلوبنا تقطعت حزنًا على هات، ولم نستطع أن نسلم بفكرة انزلاقه إلى الجريمة.

طالعنا هات فى المحكمة بوجه بدا أكبر من سنه الحقيقية، فقد من وزنه قدرًا ملموسًاوحل به هزال وذبول فبدا كالطيف، ارتسمت على فمه ابتسامة مصطنعة، ورغم ذلك هيج ضحكنا، وإن كانت ضحكات تفجرت الصدور عنها كى نداري شعورًا بالحزن غشيها. سأل القاضى هات: هل كان الظلام فى تلك الليلة يطمس معالم الأشياء؟ أعنى هل ذهبت هناك فى ظلمة دامسة؟

فأجاب هات: لا عجب فعندما يأتى المساء ينسدل ظلام الليل، وتشتد الظلمة!.

كان محامى هات قصير القامة، بدينًا لحد الإفراط، كان اسمه تشتيرانجان، كان يرتدى بدلة بنية اللون متلبدة بالعرق والغبار بدت عليه قلقة جافية وعندما مر أمامنا فغمت أنوفنا رائحة ترابية نفاذة ملبدة بالعرق.

شرع تشتيرانجان فى تسميع أبيات شعرية من مسرحية لشكسبير تلقيها بطلتها بورشيا وهى تتذلل للقضاة كى يحنو عليها، قر منه العزم على مواصلة التسميع حتى النهاية لولا أن قاطعه القاضى قائلاً فى حدة: هذه أبيات تستثير الاهتمام وبعضها لا يخلو من صدق بيد أنك يا سيد تشتيرانجان تضيع وقت المحكمة فيما لا فائدة فيه أو نفع!.

انقدح فى قلب المحامى نشوة حماس فراح يتحدث وعيناه تلمعان ببريق حاد يدل على العزم والأمل عن لسعات الهيام التى تدغدغ القلوب، وسياط اللهب التى تلهب الأفئدة المكلومة ونفثات العاطفة وفورات الغرائز، قال إن أنطونيو ضحى بإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس من أجل الحب، مثله فى ذلك مثل هات الذى آثر أن يتلفع بالهوان بعد العزة ويجعل من نفسه نادرة تلوكها الألسن، كى يدافع عن حبه الطاهر ولذا فإن هات ارتكب فعلته مدفوعًا بدفعة غريزته فحسب.

ثم واصل قائلاً إنه لو أن هات ارتكب مثل هذا الجرم فى فرنسا وهو على معرفة واسعة بأحوال هذه البلاد لإقامته فترة فى باريس لنثر الفرنسيون بين يديه لآلئ الكلمات، وجعلوا يرمقونه بعين الإعجاب المقرون بالحسد، أما النساء ـ لا عجب ـ فكن يسارعن بترصيع رأسه بأكاليل الغار.

ضيق أدوس عينيه امتعاضًا وقال بسخط واضح: إن أمثال هذا المحامى يقودون دومًا من يدافعون عنهم إلى حبل المشنقة.

حُكم على هات بالسجن أربع سنوات.

ذهبنا إلى سجن شارع فردريك لزيارته، شعرت بخيبة أمل لا عزاء فيها عندما ألقيت على السجن نظرة فاحصة ناقدة، كانت الجدران مطلية بلون الكريمة الفاتح ولم تكن عالية مثلما توقعت.

أثار دهشتى تألق العيون بالفرح والغبطة، بيد أننى رأيت قلة من النسوة يبكين، بدا الأمر كما لو أن هناك حفلاً فى إبان ازدهاره وسروره إذ امتلأ الجو برنين الضحكات ووميض الابتسامات.

وقف أدوس بملبسه الأنيق إلى حد التبرج وهو يلوح بقبعته فى يده، ويجول ببصره بين الوجوه الضاحكة، قال لهات ناشدًا تأييده: إن الكآبة لا تنشر رداءها على هذا السجن لحسن الحظ.

فأجاب هات وقلبه يقطر حزنًا: سينقلوننى إلى سجن كاريرا الأسبوع القادم!.

كانت كاريرا جزيرة صغيرة لا تقع على بعد أميال قليلة من بورت أوف سبين لا تحوى سوى مبانى السجن.

بيد أن هات استطرد وهو يعض بنواجذه على أهداب الأمل مخاطبًا أدوس:

«لاتقلق يا صديقى، فأنت تعلم أن بمقدورى إقناعهم بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بأن يعهدوا إلى بعمل لا ينطوى على مشقة، أو جهد». كنت كلما قصدت كارنيج أو بوينت كومانا بغرض الاستحمام أشخص ببصرى إلى جزيرة كاريرا تتصب وسط المياه ذات اللون الأخضر كمارد يخضخض رجليه فى الماء، وقد قامت فوقها مبان أنيقة ذوات لون قرمزى تستلفت الأنظار رغم الأنوف. حاولت أن أعمل خيالى أستخبره ما يحدث داخل هذه المبانى دون جدوى.

كنت أقول لنفسى فى شبه غمغمة: هات فى محبسه هناك وأنا هنا فهل يعلم أننى هنا أفكر فيه، ويفيض قلبى بمودته؟

بيد أنه مع تلاحق الأيام والشهور لاهثة امحت ذكراه من خيالى أو كادت فبات لا يخطر على ذهنى لأسابيع متواصلة، لم يعد يضنينى الحياء أو يراودنى شعور عنيف بالذنب كلما طردت عن مخيلتى ذكراه، إذ فتر شوقى لاجتلاء وجهه حتى انطفأ كأنه مصباح كهربائى انقطع عنه التيار، فأدرجت ذكراه فى أكفان النسيان.

بيد أننى كنت أسأل نفسى أحيانًا دون مبالاة عن ميعاد خروجه من محبسه.

كنت فى الخامسة عشرة عندما زُج به فى السجن وفى الثامنة عشرة عندما أُطلق سراحه، شهدت هذه السنوات الثلاث أحداثًا كثيرة من أهمها انقطاعى عن

المدرسة والتحاقى بالعمل فى مصلحة الجمارك، فانقلبت بين عشية وضحاها من صبى يذهب إلى المدرسة ببنطلونه القصير إلى رجل يحصل على رزقه بعرق الجبين.

تلقى هات عند عودته إلى شارعنا استقبالا فاترًا قياسًا إلى سلوكيات أهل شارعنا الذين يفخرون جهرًا بالسجون، فلم ترتفع صيحات الغلمان مهللة ولم تصدح المزامير والطبول أو تجلجل الزغاريد والهتافات، كنا نحن الغلمان قد ناهزنا طور الرجولة، كما قرأنا فى وجهه شرودًا وحيرة ووجومًا ينذر بالقطيعة، فثبت لنا أنه فقد فى صميم روحه الإحساس بالبهجة والفرح، فجفلنا من مجاذبته أطراف الحديث.

زار هات جميع أصدقائه ومعارفه فى الشارع لانت فراملة فاستفاض حديثه عن خبراته وتجاربه فى السجن وقد تألقت عيناه بالنشاط والحماس. وعندما زارنا صبت أمى الشاى من إبريق فى قدح وقدمته إليه.

راح ينفخ بخار الشاى ويحسو حسوات ذوات فحيح.

وبعد أن تناول آخر رشفة من قدح الشاى رفع صوته فجأة شأن من تذكر شيئًا أعياه طلابه: لقد صدق حدسى، وحدث ما توقعت، اتحدت علاقتى مع بعضهم فى صداقة وطيدة، أتعرفين ما حدث بعد

ذلك؟ حققت هدفى متعلقًا بأثوابهم، إذ ألحقونى بوظيفة أمين مكتبة بالسجن، أنت تعرفين أن بالسجن قاعة ضخمة رُصت جدرانها برفوف الكتب، ولذا فهى تعد المكان الوحيد بالسجن الذى يجذب شخصًا مثل تيتس هويت الذى يستهويه النهل من نبع المعارف. إلا أن رفاقى فى السجن كانوا ـ لسوء الحظ ـ يجفلون من مجرد قراءة عناوين الكتب فى الرفوف.

استخرجت من علبة سجائرى سيجارة قدمتها إليه، تناولها منى بحركة آلية، ثم صاح فى دهشة: ما هذا؟ عندما تركتك وذهبت إلى السجن لم تكن تدخن!.. بيد أننى نسيت أننى قضيت سنوات طويلة فى السجن وأنك أصبحت الآن رجلاً، إننى لم أرك منذ دهر يا فتى!.

ـ نعم لقد مرت السنوات سراعًا!.

مرت ثلاث سنوات فحسب، إلا أن هذه السنوات الثلاث شهدت ولوجى الرجولة، وتفتح عينى إلى الحقائق، ورحت أتفحص من حولى بنظرات فاحصة ثاقبة غير مبق على إنسان ذبلت شعلة حماسى لترسم خطا أدوس والفوز فى النهاية بمركز كمركزه إذ انقشعت عن عينى غشاوة الجهل فتبدى لى أدوس نحيل الجسم يستلفت الأنظار بقصر قامته وهزاله البالغ، كما خامرنى النفور من تيتس هويت لتوغله فى الحماقة بلا هوادة وإطلاقه النكات السمجة التى تبعث فى النفوس الملل.

تلاشت الغشاوة عن عينى فطالعتنى الدنيا فى ثوب جديد، عندما زُج بهات فى السجن فقدت فى صميم روحى شيئًا ثمينًا لا يُعوض.

(١٧)
كيف غادرت شارع ميجل

قالت أمى ذات يوم وهى تزفر زفرة المتحسر: لقد أطلقت لنفسك العنان فى اقتناص اللذات فى غير حياء ولا خجل ولذا آن لك أن تحزم أمتعتك لتكون على أهبة الاستعداد للرحيل.

قلت وأنا أكابد خيبة أمل: إلى أين؟ فنزويلا؟.

كلا.. ليس فنزويلا اختر بلدًا آحر... ففى اللحظة التى تطأ فيها قدماك أرض فنزويلا، فسوف تسوقك الشرطة من قفاك إلى السجن، فإننى أعرفك كما أعرف فنزويلا... كلا.. اختر مكانًا آخر.

قلت باقتضاب وبلهجة ناطقة بالملل: فلتقلبى أوجه الرأى فى الأمر حتى تصدق عزيمتك على قرار.

فقالت أمى بلهجة تدل على العزم: سوف أتخذ سبيلى رأسًا إلى منزل جانش بنديت لأحادثه فى الأمر.

فقد كان صديقًا لوالدك بيد أنه ينبغى أن تحزم أمرك وتستجمع شجاعتك، فلا يسعك البقاء هنا تاركًا زمامك لدفعات الهوى.

سلمت بصحة رأيها ونفاذ بصيرتها إذ كنت على وشك التردى فى الهاوية، والوقوع فريسة للنزوات العمياء التى تورد أصحابها مهالك الفتن، كنت شريبًا سكيرًا تنفث أنفاسى دومًا شذا الخمر، كما كنت أقارف صنوفًا أخرى من المنكرات وأمتع غرائزى بالمغامرة والإثارة والعربدة، انزلقت إلى تعاطى الخمر أثناء عملى فى الجمارك الذى شهد مصادرتنا للخمور لأوهى الأسباب، كانت رائحة الخمر فى أول عهدى بها تثير إحساسى بالغثيان ولكننى روضت نفسى على قبول الواقع، مخاطبًا إياها قائلاً: لا مفر من تخطى هذه العقبة ولتعدينها كعلقم لا مفر من تجرعه ولتسدى منخارك وتغمضى عينيك، وهكذا لم ينقض وقت طويل حتى أصبحت من الراسخين فى السكر، وغدوت أتيه فخرًا بمعدتى القادرة على ابتلاع حانة، ثم توغلت فى الضلال عندما عرفنى بويى وإرول بحانات البلدة وملاهيها، ففى بداية عهدى بالعمل بالجمارك اصطحبانى إلى أحد الأماكن القريبة من ميدان مارين، ارتقينا السلم مهرولين إلى الدور الأول لنجد أنفسنا فى حجرة صغيرة مضاءة بمصابيح خضراء.

طالعتنا لافتة كبيرة مسطر عليها بالخط العريض: يحرم على رواد الحانة التفوه بالألفاظ البذيئة أو التندر بالنكات المكشوفة.

سألنى إرول: أى من هاتيك النسوة تروق لك؟

أدركت من فورى مغزى السؤال، وانتابنى إحساس بالغثيان، مرقت من الحجرة كالهارب، وعدت إلى منزلى وقد جف فى حلقى الريق وارتعدت منى الفرائص.

وقلت لنفسى: عليك أن تتغلبى على هذا الإحساس اتخذت سبيلى رأسًا فى الليلة التالية إلى نفس الملهى.

انطلقنا فى مذاهب العشق والهوى كالثيران الهائجة فكنا نقيم الحفلات الماجنة فى خليج ماراكاس التى كنا نصطحب إليها النساء الساقطات ونعود مع الفجر ونحن نتلاطم مع الجدران سكرًا.

قالت لى أمى: لقد انطلقت فى تحررك إلى آخر المدى، مذعنًا لشهواتك كلية.

لم أعر الأمر التفاتًا حتى مساء تلك الليلة التى أفرطت فيها فى الشراب حتى أوشكت أن أفقد الوعى وظللت طوال اليومين التاليين سكران تدغدغ الخمر رأسى، وعندما أفقت واستردت وعيى أقسمت أن أمتنع نهائيًا عن التدخين وتعاطى الخمر.

قلت لأمى مستوهبًا تأييدها: لا يسعنى أن أنحى باللائمة على نفسى فى حقيقة الأمر، فليس بمقدور أى امرئ فى ترينداد سوى أن يسكر.

قالت لى أمى ذات يوم بعد انقضاء شهرين وقد اشتعلت باهتمام داهم حاد: عليك أن تصطحبنى فى الأسبوع القادم لزيارة جانش باندت.

كان جانش باندت قد هجر حياة التأمل الروحى والتصوف لفترة طويلة خلت، وولج حلبة السياسة التى أبلى فيها بلاءً حسنًا، إذ تقلد أحد المناصب الوزارية فى الحكومة، كما تناهى إلى سمعى ترشيحه لمنصب رفيع.

ذهبنا إلى منزله الفسيح فى سانت كلير لم يستقبلنا بزيه المعهود من وزرة قصيرة تطوق خاصرته وقميص كما فى أيام التأمل الروحى، بل طالعنا فى كامل زيه الحديث كالكبراء فى بيوتهم.

استقبل أمى بفيض من مشاعر المودة الصادقة.

قال بنبرة ودودة: سوف أبذل قصارى جهدى لتجنيبك دواعى الشقاء.

انخرطت أمى فى بكاء لم تملك له دفعًا.

عطف نحوى رأسه متسائلاً: ماذا تود أن تدرس بالخارج؟

فأجبته بنبرة تستجدى تصديقه: إننى أرغب فى الرحيل فحسب.

قال وقد افتر ثغره عن ابتسامة: إن الحكومة عازفة حتى الآن عن منح مثل هذا النوع من المنح الدراسية إلا للوزراء كلا يجب أن تفكر فى دراسة فرع من فروع العلم.

فأجبته وأنا أعانى سكرات الخيبة: لم يتسن لى قط التفكير فى هذا الأمر، أعطنى فسحة من الوقت للتدبر والتأمل.

فقال جانش: لك ما تشاء، فلتعمل التفكير فيما تود دراسته.

بادرته قائلاً: إننى أعلم ما أود دراسته، الهندسة ندت عنى،وقد تمثل لخيالى صورة عمى بهاكسو وقد تألقت عيناه بالنشاط والحماسة والأمل وهو يقوم ببعض الإصلاحات فى سيارته ضحك ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر وقال: وماذا تعرف عن الهندسة؟

- فى اللحظة الراهنة لا أدرى عنها شيئًا: ولكننى سوف أبذل أقصى ما لدى من جهد حتى أتقدم فى الدرس بنجاح.

قالت أمى: لماذا لا تود دراسة القانون؟

تمثل لخيالى صورة تشيتارانجان فى بدلته البنية التى اتسعت عليه أيما اتساع، فقلت بلهجة مزدرية: لن أدرس القانون.

قال جانش: ثمة منحة دراسية واحدة لدراسة العقاقير.

قلت بصوت لا يخلو من رنة الأسف: ولكنى لا أود أن أشتغل صيدليا لا أريد أن أرتدى البالطو الأبيض وأبيع أحمر الشفاه للنساء، انسابت ابتسامة خفيفة من بين شفتى جانش.

قالت أمى فى رجفة الجازع: لا تهتم بما يقول الصبى فسوف يدرس علم تحضير العقاقير، ثم قالت وهى تحدجنى فى عينى: بوسعك دراسة أى شىء إن

صدقت عزيمتك على دراسته قال جانش بلهجة دب فيها الحماس: فكر فى مباهج الذهاب إلى لندن ورؤية الثلج ونهر التايمز ومبنى البرلمان الضخم.

قلت بصوت مبحوح متهدج: موافق سوف أدرس تحضير العقاقير.

قالت أمى بصوت تنم نبراته عن الامتنان: إننى لا أعلم كيف أرد لك صنيعك.

ثم جعلت تنشج باكية وهى تعد فى يده مائتى دولار.

قالت فى نبرات حزينة: إننى أعلم أنه ليس مبلغًا كبيرًا.

لكنه كل ما أملك. لقد استغرق كنزه وقتًا طويلاً. دس النقود فى جيبه وهو يتنهد حزينًا آسفًا وقال: لا تكربى صدرك بالهموم، فلا تكلفى نفسك ما لا طاقة لك به أغرقت أمى فى نشيج حار ففاضت عينا جانش بالدمع. عندما رأت أمى الدموع تنهمر من عينيه توقفت عن البكاء ومسحت عينيها من الدموع وقالت: آه لو تعلم ما بداخلى من قلق وما يركبنى من اضطراب يزلزل أركان نفسى. إننى أرزح تحت وقر الفقر والقنوط، وتتاهت بى الحيرة حتى شملنى حال من الحزن والكآبة.

توقف عن النحيب، فعاودت أمى البكاء مجددًا حتى انفطر قلبها من البكاء، نزل جانش على حكم

الأمر الواقع وأعاد إليها مائة دولار من المبلغ، وهو يبكى بكاء لا يملك له دفعًا قائلاً بنبرة يرعشها الحزن والانفعال: خذى هذا المبلغ وابتاعى للصبى بعض الملابس اللائقة بطالب بعثة قلت وقد تنور وجهى بالارتياح: إنك رجل صالح. تلقى كلماتى كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب: عندما تعود من إنجلترا مبتهجًا يميد السرور بعطفيك بعد حصولك على أكبر الشهادات الدراسية التى ترشحك لأن تتقلد منصب إمام الصيادلة، فسوف أطالبك برد الدين.

فاتحت هات بنبأ رحيلى.

تساءل: لماذا؟ بحثًا عن عمل؟

- وهبتنى الحكومة منحة لدراسة العقاقير.

- هل أنت الذى دبر لهذا الأمر؟

- كلا لست أنا بل أمى.

- قال أدوس: إنها مهنة تعد بحياة طيبة رغيدة، أننى أعرف أحد الصيادلة الذى ظللت أرفع نفايات منزله لسنوات طوال، هذا الرجل يتقلب فى النعيم ويتمرغ فى أسباب الترف.

تناهى النبأ إلى مسمع إلياس الذى وقع من نفسه موقع السم الزعاف، مضى إلى بوابة منزلى ذات مساء، وصاح بصوت كالرعد: رشوة.. رشوة إن كل ما يسعكم فعله هو نفح السلطات برشوة.

هوى كلامه على رأس أمى كالمطرقة، فصاحت: لا يشكو تفشى الرشوة سوى من يبلغ من العوز أدناه بحيث يعجز عن دفع الرشوة.

لم ينقض شهر حتى تم الانتهاء من جميع إجراءات الرحيل خاطبت حكومة ترينداد القنصل البريطانى بأمرى، ومنحتنى الحكومة الأمريكية تأشيرة دخول البلاد بعد أن جعلتنى أقسم بأغلظ الأيمان إننى لن أسعى إلى الإطاحة بها متوسلاً بالقوة المسلحة.

أقامت أمى حفلاً صغيرًا عشية الرحيل، بدا كحفل عزاء لسكب الدموع على فراق الحبيب، دخل الناس أزواجًا وأفرادًا وقد نسجت الكآبة حولهم غشاء محكمًا، معربين عن شعورهم العميق بالأسى للفراق الوشيك، بيد أنهم نسوا بعد ذلك آلام الفراق وانقضوا على المائدة مثل نسور جائعة وكأنما يشهدون العشاء الأخير.

طبعت لورا قبلة على خدى، ووهبتنى قلادة تحمل صورة القديس كريستوفر، وطلبت منى أن أطوق بها عنقى قطعت على نفسى أمامها عهدًابذلك، ثم دسستها فى جيبى، إننى لا أعلم الآن مصير هذه القلادة، وهبتنى السيدة بهاكسو عملة معدنية من ذات الستة بنسات قائلة إنها قطعة مباركة تحدق بها هالة من القداسة، تدرأ كل شر عن حاملها بيد أنها لم تبد لناظرى مختلفة عن العملات الأخرى من ذوات الستة بنسات ويخيل إلىّ أننى أنفقتها، غفر لى تيتس هويت

كل ما ارتكبته فى حقه وأهدانى المجلد الثانى لأعمال تينسون الشعرية الكاملة التى صدرت عن أفريمان، أعطانى أدوس حافظة نقود أقسم بأغلظ الأيمان إنها جديدة لم يستخدمها امرؤ من قبلى قط. أما بويى وإرول فلهم يهديانى شيئًا أهدانى هات صندوقًا من السجائر قائلاً إنه يعلم أننى لم أعد أدخن، ولكنه يهدينى إياه تحسبًا للحظة التى أعاود فيها التفكير فى الأمر كله وأعود إلى التدخين كانت النتيجة هى معاودتى التدخين مجددًا.

قضى العم بهاكسو ليلته فى إصلاح السيارة التى كان من المقرر أن تقلنى إلى المطار صباح اليوم التالى، كنت أهرع إلى الخارج من حين إلى آخر وقد غمرتنى موجة انفعال مضطرب كى أضرع إليه أن يبدى قدرًا من الرحمة بالسيارة إلا أنه قال فى يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة أن موضع الخلل يكمن فى الكاربيراتور.

فى الصباح التالى بكر بهاكسو فى الاستيقاظ على غير عادته وانكب على إصلاح السيارة فى شبه سخرة، كنا قد صح منا العزم على الرحيل فى الثامنة، بيد أن الوقت كان قد ناهز العاشرة وأنا أوهم نفسى بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد.

اعترت أمى رجفة الخوف من الرأس إلى القدم وكسا وجهها لباس الخوف والرعب، أما زوجة بهاكسو فقد تهدمت من شدة القلق ودب الضعف فى أعصابها.

كان بهاكسو مستلقيًا أسفل السيارة وهو يترنم بصوت خفيض بأشعار من الراميانا، خرج من مكمنه وضحك بقهقهة عالية ثم قال: إنك توشك أن تتلاشى من الرعب أليس كذلك؟

اتخذنا أهبتنا للرحيل فى الحال، ولم يوقع بهاكسو ضررًا كبيرًا بالمحرك أعجزه عن الدوران؛ ولذا نقلت حقائبى إلى داخل السيارة وقصدت إلى السيارة رأسًا لأغادر المنزل لآخر مرة قالت أمى بعجلة ولهوجة: انتظر.

وضعت أمى إبريق لبن نحاسيًا فى منتصف مدخل البوابة.

إن مغزى ما حدث يعز على إدراكى حتى الآن، إذ كان المدخل واسعًا يكفى لمرور سيارة واستقر فى منتصفه الإبريق الذى يبلغ عرضه حوالى أربع بوصات، خيل إلى أننى أسير عند حافة المدخل بعيدًا عن الإبريق، ورغم ذلك عثرت به فانقلب تلاشت البهجة فجأة من صفحة وجهها كأنها مصباح كهربائى انقطع عنه التيار.

تساءلت بصوت تقطعه حشرجة اليأس: هل ينذر انقلابه بشر مستطير؟

نكست أمى رأسها ولاذت بالصمت.

نفخ بهاكسو فى البوق عدة مرات.

صعدنا إلى السيارة التى انطلق بها بهاكسو وهى تزمجز نافثة وراءها سحبًا من الدخان فقطعنا شارع ميجل ثم طريق رايتسون حتى بلغنا ساوث كى، بيد أننى لم أمد بصرى إلى الطريق خلال زجاج النافذة أجهشت أمى فى البكاء حتى انتحبت وجعلت تشهق كالأطفال، ثم قالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها: إننى أعرف أننى لن أراك مرة أخرى فى شارع ميجل.

تساءلت وقد ساورنى الخوف: لماذا؟ هل لأننى دلقت اللبن؟

أمسكت أمى لسانها بالصمت وإن ظلت تنتحب باكية على اللبن المسكوب لم أمد بصرى إلى الطريق خلال النافذة إلا عندما خلفنا وراءنا بورت أوف سبين وضواحيها، كان الزمان صيفًا وقد صفت السماء وأشرقت الشمس دون حجاب، رأيت الرجال والنساء مكبين على عملهم فى حقول الأرز، كما رأيت رشاش دش على جانب الطريق يترشش على أجساد بعض الأطفال العرايا بلغنا بيكارو دون تأخير، إلا أن قلبى غشيته سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة وودت لو أن مجرى حياتى لم تعترضه هذه المنحة الدراسية، غاص قلبى فى صدرى عندما دلفت إلى داخل بهو مبنى المطار، لمحت مواطنين أمريكيين يميلون إلى الامتلاء يجلسون أمام البار يحتسون شرابًا مجهول الهوية ربما لا يعرف كنهه حتى الراسخين فى السكر والعربدة..كما رأيت نساء أمريكيات يضعن على

عيونهن نظارات شمس تسبغ على وجوههن هيئة الكبراء ذوى الشأن ويتحدثن بصوت مرتفع بدا الجميع لناظرى فى بحبوحة من الغنى والجاه وحسن الحال.

انهال صوت من مكبر صوت يعلن بالإسبانية والإنجليزية تأجيل رحلة الطيران رقم ٢٠٦ لست ساعات، قلت لأمى متوددًا بحلق جاف: أتودين العودة إلى بورت أوف سبين لم أجد لنفسى بدًا من الجلوس مع هؤلاء الناس فى البهو على أية حال بيد أننى كنت أود تأجيل هذه اللحظة قدر الإمكان.

عندما عدت إلى شارع ميجل كان هات أول من عثر عليه بصرى من سكان الشارع، كان يسير الهوينى بقدميه المفلطحتين عائدًا من المقهى يتأبط جريدة لوحت له بذراعى صائحًا وقد انتعش فؤادى بالفرح قال متجاهلاً انفعالاتى الجياشة: لقد ظننت أنك فى الطائرة الآن موقع قوله من نفسى موقعًا أليمًا وهيمن علىّ شعور بخيبة الأمل لم يكن مبعثه هذا الاستقبال الفاتر فحسب بل إحساسى أنه رغم رحيلى وذهابى إلى بلاد الغربة ربما دون رجعة، فإن الحياة فى الشارع كانت تسير سيرها المعهود دون أن تبدى عن أى أثر خلَّفه غيابى.

شخصت ببصرى إلى إبريق اللبن النحاسى المقلوب الذى استقر فى مدخل البوابة، وقلت لأمى

بنبرة لم تخل من تهكم: إن هذا يعنى أننى لن أعود إلى هنا أبدًا أليس كذلك.؟

انفجرت أمى ضاحكة وتهلل وجهها من الفرح.

على هذا النحو رسمت الأقدار لى أن أتناول طعام غدائى الأخير فى بيتى مع أمى والعم بهاكسو وزوجته. ثم عدنا أدراجنا إلى بيكارو عبر الطريق الذى اشتعل أديمه بنار الشمس المحرقة.

لمحت الطائرة رابضة فى مدرج المطار، عثر بصرى بأحد ضباط الجمارك الذى تصلنى به أسباب التعارف، ولذا لم تفتش حقائبى.

انهالت من مكبر الصوت كلمات فى برودة الرصاص تعلن عن إقلاع الطائرة.

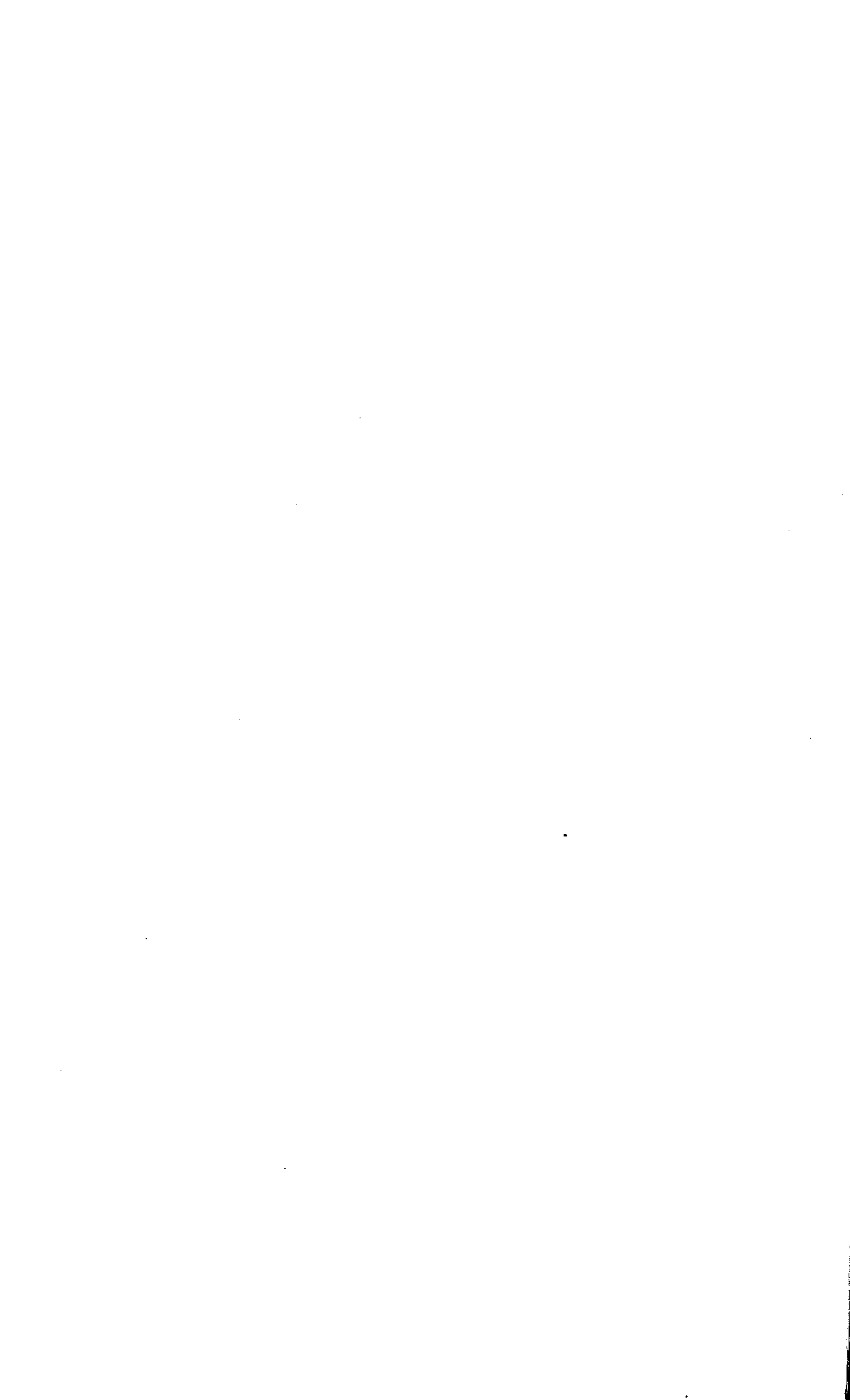
ضممت أمى فى حضنى، ثم خاطبت بهاكسو قائلاً: عمى بهاك سوف أصارحك بأمر لم أود مكاشفتك به من قبل، إلا أننى أعتقد أن جزءًا من المحرك يصدر عنه صوت كالزمجرة.

التمعت فى عينيه نظرة تنطق بدهشة وانزعاج.

خطوت خطوًا سريعًا إلى الطائرة دون أن أنظر ورائى، مطرقًا رأسى نحو الأرض، وقد حصرت بصرى فى ظلى الذى كان يرسم شبح قزم يتراقص على ممر الإقلاع.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة



١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء - للكاتب التركى أورهان بأموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط - للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة - للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - جائزة الدولة للأدب.

١٥ - الرجل البطىء - ج . م . كويتسى - رواية - جائزة نوبل.

١٦ - طحالب - للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية - جائزة كين.

١٧ - شوشا - للكاتب البولندى إسحق باشيفيس سنجر - رواية - جائزة نوبل.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org

تلتقط عين الصبى / الراوى صورًا
لمجموعة شخوص تقطن "شارع ميجل"،
ويقص الصبى علينا حكاية كل منهم
بحماس من يقاسم الشخصيات
طموحاتها وينغمس حتى أذنيه فى
الخيبات المتتالية التى يكابدونها.
ويستسلم معهم لأحلام كاذبة. ويصحو
معهم ليرتطم بصخرة الواقع. ويقدم لنا
رؤية صادقة حميمة لحيوات هؤلاء
الأشخاص ويشير فى نهاية روايته إلى
وشائج الصلة بين هذه الهزائم وبين المناخ
الثقافى فى ترينداد إبان هذه الفترة.



٩,٥٠ جنيه

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9774196228

